لا إهداء حتما..
لأن الموتى لا يشعرون!

ثبت " جويزع " مذكراته هذه شفاه ا لجهازه (الإنفرانانوكوانتمبايوپيسي) خلال الفترة التي استغرقتها رحلته من كوكبه الأم حتى وصل إلى الكوكب الجديد " و 666! " الذي لم تكن الشركة المقدسة قد خصصته له لكي يسكنه مع طاقمه لضمان استمرار بقاء الجنس البشري بعد أن لاحت علائم الشيخوخة المبكرة والفناء على الكوكب الأصلي، وإنما كانت قد خصصت له الكوكب "أمل" الذي يبعد حوالي 1600 سنة ضوئية وبالنظر لسرعة المركبة "البقاء" التي تقترب كثيرا من سرعة الضوء ولكنها لا تساويها (لإستحالة ذلك بالطبع) فإن رحلة الطاقم ستستمر مدة تزيد على الثمانية عشر عاما، ولكي نمنع ارتباك القراء الذين لا يمتلكون اهتمامات علمية يجب أن نذكر أن السفينة "البقاء" ستبقى تبحر في أرجاء الكون مدة تزيد على الـ 1600 سنة، قبل أن تحط على الكوكب "أمل" ولكن الزمن يتباطأ كلما اقتربت سرعة جسم ما من سرعة الضوء حتى يصبح صفرا عندما تتساوى سرعته مع سرعة الضوء، ولما كان الزمن نسبيا، كما هو شأن جميع الأشياء في هذا الكون، لذلك ستستمر رحلة جويزع ورهطه أقل من تسعة عشر عاما، أي أن السنة عندهم ستعادل 84,9 سنة من سني مركبتهم وهي تخترق مجاهل الفضاء العميق، لأن زمنهم داخل المركبة هو غيره الزمن خارجها، هكذا بكل بساطة، وإذا لم يستطع قاريء ما أن يستوعب ما قلت فأرجو أن لا يجزع لأن تصور مثل هذا الأمر صعب حتى بالنسبة لي رغم عدد المرات التي مخرت فيها عباب الفضاء بسرعة تقارب سرعة الضوء حتى تغلغل مجرى الزمن في أنحاء جسدي في النهاية وحوله إلى طاقة صرفة جعلت روحي عصية على الفناء رغم تفتت جسدي منذ ملايين السنين وتناثره في غياهب الكون الفسيح.

ورغم مرور عشرات آلاف السنين أيضا على جهاز " جويزع " هذا الذي دفنه في الرمال حيث حطت مركبته منذ عقود قضى معظمها وحيدا، دفنه هناك ونزل ليدخل مركبته العتيدة، ويموت، إلا أن ذلك الجهاز، وهو مطمور في الأرض، ما يزال يستعيد بعض ما خزنه في ذاكرته، رغم تلف اجزاء كبيرة منه، أحيانا وبصوت جويزع نفسه، بسبب بكتيريا الـ(رودو ثيراكس فيريدوبوشوسيزم) المتوفرة بكثرة في المكان الذي كانت له فيه رقدة لم يفق منها قط، وهذه البكتيريا تكسر المواد الكربوهيدراتية الموجودة في التربة وتحولها إلى ثاني أوكسيد الكربون والكترونات تتسرب إلى أسلاك الجهاز التي تعرضت لعوامل التعرية فيسري فيها تيار كهربائي ضعيف ولكنه كاف لفضح مكنونات ذلك الجهاز الذي بقى مدفونا في أعماق الأرض عشرات الآلاف من السنين. ويجب أن لا ننسى هنا تأثيرات المادة البيولوجية الحية، المحفوظة في أكمل المواد الحافظة التي اكتشفها البشر على الاطلاق، التي تتكون منها معظم أجزائه وهي تتفاعل مع التربة التي خلقت منها أصلا.

يظل صوت " جويزع " يخاطب الآخرين الذين يدخلون المركبة وهم يتصورون أنهم يلجون كهفا مقدسا، ويتعاملون مع بقايا تلك الأجهزة المتقدمة جدا التي يرونها، على أنها آيات ربانية، يخاطبهم الصوت وكأنه يريد تحذيرهم، رغم أنه لا يريد ذلك، ولكنهم يسمعونه و لا يفقهون ما يقول، بل هم لا يدركون أصلا أنهم يسمعون صوت بشر، فتظل الآلة تبوح بأسراره إلى ذرات التراب لتنعي لها الجنس الذي منحته سر الحياة الكامن فيها وارتضت أن تبقى ترابا على أمل أن يكون، ولكن انتظارها الذي بدأ منذ الأزل، سيستمر حتى الأبد

من دون جدوى، مادام هذا الجنس الجاحد لا يدرك حقيقة من يكون.

وللإيضاح يجب أن نذكر أن هذه المذكرات لو عرضت كما أملاها " جويزع " بالضبط لما استطاع أن يفهمها إلا عدد قليل جدا من العلماء الراسخين، لأن غرضه من الإملاء كان التوثيق بمنهجية صارمة كما تعود طوال حياته المجردة من العاطفة، لا النجوى كما يجدر بالبشر. ولكن المادة البيولوجية المأخوذة من خلايا " جويزع " نفسه أضافت إليها مشاعره التي كانت تستشعرها بالرغم منه، ولأن هذا الجهاز يعتمد أساسا على خلاياه فقد احتفظ تحديدا بما يجدر بانسان أن يهتم به، في حين ضاعت المعلومات الفنية غير مأسوف عليها لأنها لا تعني لنا شيئا هنا.

هذه هي بعض مكنونات هذا الجهاز الإنفرانانوكوانتمبايوپيسي، الذي يعتبر بمثابة الصندوق الأسود للرحلات الفضائية.

وسارت

اليوم السادس عشر من الشهر الأول من السنة الأولى:

(خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، (الهولي فرم) تتمنى لسفينة الفضاء (سرڤـايڤـل) وطاقمها رحلة آمنة وموفقة، (الهيومان ريس) أمانة بأعناقكم، الوداع، انطلقوا.

بهذه الكلمات التي كانت هي آخر ما سمعناه من أهلنا على كوكبنا، بدأت مرحلة ما قبل تأريخ الكوكب (هوپ) الذي يبعد عنا 160 (يوني ڤـيرسال مايل) في المجموعة الشمسية (ميراج) الذي نتجه إليه في رحلتنا ذات الاتجاه الواحد هذه، وأقول ما قبل التأريخ لأننا قررنا أن نعتبر السنين الثماني عشرة التي سنقضيها على متن هذه السفينة، التي تستطيع ان تأخذنا إلى نهاية الكون لا إلى (هوپ) فقط، بطاقتها، والتي حسبت (الهولي فرم) حسابها لنستفيد منها بعد أن نصل إلى (الإيم پـلانيت)، كمصدر للطاقة حتى نستكشف بيئتنا الجديدة جيدا، زمنا صفرا بالنسبة لنا، ولنبدأ التأريخ الجديد حال وصولنا الكوكب البعيد. ولكن تحديد الوقت يبقى مهما جدا لسير الأعمال وخاصة عند إصدار الأوامر الضرورية ولذلك كان لا بد من استنباط تأريخ مؤقت خلال الرحلة، ولأنه مؤقت لم أر ضرورة في استشارة أحد فأنا (الكاپتن) في النهاية، وليتني لم أفعل، لأن هذا كان هو السبب في وقوع أول خلاف معلن لي طوال حياتي الزوجية، مع زوجتي.

حدث ذلك في الأمس ونحن نستعد للنوم بعد يوم مليء بالعمل المضني، أنساني أن اثبت التاريخ قبل أن أترك مقر القيادة، ومثل هذا الخطأ البسيط يمكن أن تكون له آثار كوارثية على هذه الرحلة ذات الأهمية القصوى للجنس البشري، الأمر الذي اضطرني للطلب من جهازي تثبيت ذلك بذكر الأرقام فقط، أي كما سيثبتها في

ذاكرته بالضبط. فوجئت بنظرة الاستنكار التي رمتني بها قبل أن تقول "كيف تقول هذا"لم أفهم ما تعنيه فقلت متسائلا "ما الذي تقصدينه يا امرأة" فاجابت قائلة "أقصد التأريخ، فمن يسمعك يتصور وكأننا نسبر أغوار الفضاء منذ أكثر من سنة، ونحن لم يمض علينا غير خمسة عشر يوما في مهمتنا" فهمت فورا ما تقصد فقلت مبتسما رغم استغرابي منها لأنها من المفروض أن تعرف هذا منذ بداية الرحلة لأنها من الناحية الرسمية (الفيرست اوفيسر) على متن هذه السفينة، أي أنها تأتي بعدي مباشرة في هرم المسؤولية فيها "آه هي مجرد أرقام فهي تعني اليوم الخامس عشر من الشهر الأول من السنة الأولى" فقالت بغضب واضح، وغير مبرر بالنسبة لي "بل كان الأجدر بك أن تقول، اليوم الخامس عشر من الشهر صفر من السنة صفر" لم يكن فيما قالته من المنطق شيئا، لأن ما أمرت به كان هو الصحيح المتفق عليه، ولكني أدركت مبررات تصرفها هذا لأنها كانت تتذمر بين الحين والآخر من دوري القيادي في كل شؤون حياتنا وبخاصة مسألة عدم إنجابنا والتي أصررت عليها رغم ميلها لذلك، ولكي لا أدعها تستمريء معارضتي قلت بنبرة رادعة "لقد فعلت ما رأيته صحيحا، وأرجو أن لا تنسي بأني لم أزل (الكابتن)"

.....

يبدو أن الجفاء سيكون طابعا لعلاقتي بزوجتي لفترة طويلة بسبب ذلك الخلاف التافه قبل حوالي ثلاثة أشهر. ولكي أكون صريحا مع نفسي يجب أن أعترف بأني ربما أسهمت من حيث لا أدري في تأجيج هذا الخلاف الذي لم يتعد حتى الآن حدود الجفاء فقط.

فقد حدث أن بدت زوجتي ذات ليلة وكأنها على استعداد لتجاوز الخلاف لأن هورموناتها كانت قد أجبرتها على تذكر حقيقة كوني الذكر الذي انتقته (الهولي فرم) ليكون قيما على معالجة التأثيرات التي تحدثها تلك الهورمونات عليها، وكنت قد لاحظت منذ بدء زواجنا قبل أكثر من ثلاثين عاما أن الكآبة التي تسيطر عليها أحيانا كانت تختفي دائما عند حدود الفراش في مثل هذه الليالي، ولكني كنت غير مستعد أبدا لمعاودة تلك الطقوس السخيفة التي اضطررت إليها منذ الزواج، بعدما مضت على آخر مرة، سنوات، قبل تلك الليلة، كما أنها يجب أن تعي جيدا من هو الرئيس دائما، فتجاهلتها طويلا، ولكن (ليساء) تمتلك قدرات شيطانية تستطيع أن توظفها للتأثير عندما تواتيها الرغبة، فلم تدخر جهدا لشن هجماتها المغرية على خطوط ممانعتي التي تساقطت تباعا حتى وصلت إلى مقصدها المنتصب الذي تلقفته بلهفة ما بعدها لهفة، ولكن يبدو أن سنوات العفة الأخيرة كانت قد أثرت سلبا على مقدرتي في الاشباع، و الأسوأ من ذلك في التوقيتات المطلوبة، فلم أستطع أن أبلغ بها مرفأ الاشباع المبتغى قبل أن اهدر وقود رغبتي، وعندما انسحبت من فوقها لأرقد إلى جانبها، بقيت تتطلع في السقف وقد أحمر وجهها من شدة الهياج، ولا أدري، لربما الغضب أيضا، ولكني لم أعرها اهتماما، بل أدرت لها ظهري ونمت.

في الصباح التالي كان أول ما لاحظته أنها لم تكن موجودة عندما استيقظت، بل أنها كانت قد باتت ليلتها في مكان آخر! في تلك اللحظة شعرت بما هو أشبه باليقين أن ثمة شيء قد كسر نهائيا في علاقتي بزوجتي، وهو ما يجعلني أشعر ببعض القلق لأني أعرفها جيدا وأدرك أنها قد تكون خصما لا يستهان به فيما لو قررت

أن تكون كذلك، فهي قفارية، أي أنها من آل قفار الذين لم ينسوا يوما حياة أسلافهم القدامى ، كارهي سكنى المدن أساسا ، فكيف يتقبل هؤلاء مدننا المعزولة عن البيئة المميتة الخارجية بهذه العوازل التي يستحيل اختراقها ، لقد تعودت (ليساء) أن تتهم الهولي فرم بما حدث لمليارات البشر الذين ذهبوا ضحايا للحروب الهائلة التي دارت بين شعوب مختلفة ، حتى كانت الحرب الذرية العظمى التي قضت على الغالبية العظمى من سكان الكوكب القديم ، تلك الحرب التي تدعي ليساء أنها كان مخططا لها بدقة لكي يتم التخلص من الأعداد الزائدة من سكان العالم !... لقد تحاربوا هم فيما بينهم فما ذنب هذه الشركة البريئة التي كرست نفسها لخدمة الجنس البشري، فلولاها لما بقي أثر لهذا الجنس على وجه الأرض. ثم حتى اذا ما افترضنا أن ليساء كانت على حق فيما تقوله ، أليس من حق هذه الشركة المقدسة أن تتخلص من تلك الملايين المتخلفة التي لم تكن إلا لتزيد من معدل استهلاك موارد هذا الكوكب المحدودة أساسا ، انا لا أعرف بأي حق يمكن لأولئك الضعفاء المتخلفين أن ينافسوا من يمتلك كل الحق في أن يسيطر على الكوكب لأنه الجنس الأقوى. ..

أنا لا أعرف أي شيطان زين للشركة أن تنتقي لي زوجة من هؤلاء الملاعين، فهم ما يزالون يحافظون على علاقات أسرية سخيفة عفا عليها الزمن منذ عصور سحيقة عكسنا نحن أبناء الشركة التي تتكفل بنا حال ولادتنا وتظل توجهنا في حياتنا حتى نحقق لها ولنا خير النتائج.

ترى ما الذي تفكرين به يا ليساء القفارية ، فأنا أعجز عن إدراك طريقة تفكير هؤلاء القفاريين المختلفين عنا جذريا الذين لم يتأثروا حتى بعملية الـ(دوماستكيشن) الطويلة التي أجرتها (الهولي فرم) لتدجين طباعهم الوحشية المتخلفة.

.....

فجأة وقع اليوم ما ليس بالحسبان، فأثناء إصداري لأمر اعتيادي (للفيرست أوفيسر) في السفينة، بدرت منها ردة فعل عجيبة إذ رفضت تنفيذ الأمر، بل صرخت في وجهي وهو ما لم تفعله من قبل أبدا، وعندما استفسرت منها عن سبب تصرفها هذا قبل أن أعاقبها بما تستحق، قالت "لقد سئمت من تحكمك بي منذ آلاف السنين"... أنا لا أعرف عن أية آلاف تتكلم، فكلانا في العقد السابع من عمره، لقد تحدثت طويلا عن مؤامرة الـ(گلوبالزيشن) التي تعرض لها العالم على يد (الهولي فرم) وكيف كانت تدعي أهدافا مثالية في الوقت الذي كانت فيه تهيء لسيطرتها على العالم وتغيير معالمه نهائيا! وقد جعلني كل هذا، أشكك في قدراتها العقلية، الأمر الذي ساعدني في اتخاذ قرار توجيه تهمة (الريبيليون) إليها رغم أن عقوبة مثل هذه التهمة هي الموت حسب قوانين (الهولي فرم).

وعندما جلست في تلك الليلة في غرفتي وحيدا لتثبيت تقريري عن حالة التمرد، احترت في أمر الجهة التي يمكن أن أقدمه لها، فلا اتصالات لنا بكوكبنا الذي أصبح يبعد عنا الآن بمليارات مليارات الأميال، كما لا يمكنني أن ألجأ إلى مستشاري القانوني الآلي لأن القضايا التي تمس حياة البشر لا يمكن أن يبت فيها إلا بشر! ولذلك كان لابد من تشكيل محكمة من بعض ضباط السفينة للنظر في قضية "ليساء القفاري" (الفيرست

أوفيسر) التي كانت زوجتي وأصبحت منذ اليوم تمثل خطرا على تأريخ البشرية الحديث ولا بد من سجنها الآن، ومن ثم محاكمتها وإعدامها.

.....

يبدو أن قضية ليساء القفاري، الفيرست أوفيسر السابق قد أخذت تنحو منحى خطيرا لأن الضباط الذين تصورت أنهم سيكونون طوع بناني عندما آمرهم بتشكيل المحكمة التي ستحاكمها قد انقسموا إلى فريقين بين مؤيد ومعارض وأنا ورغم صلاحياتي إلا أني لا أستطيع أن أتجاوز القوانين التي وضعت لمعالجة مثل هذه الحالات التي تنص على ضباط معينين بحكم المناصب التي يشغلونها ليكونوا أعضاء في هذه المحكمة. .. نظريا أنا أستطيع أن أتجاوز هذه المحنة بتعيين من أريد، أعضاء ولكن هذا سيكون سابقة خطيرة يمكن أن يكون لها آثارا وخيمة فيما بعد وأنا أحرص الناس على هذه الرحلة التاريخية للجنس البشري أجمع ولذلك يجب أن ألتزم بالتعليمات والقوانين المتعارف عليها، لكني سأبقى أعاني لأنه يبدو أن هذه اللعينة كانت قد اكتسبت مكانة في نفوس الكثير من الضباط خلال الفترة الطويلة التي عملت خلالها معي. لكن في كل الأحوال فإنها ستبقى سجينة في السجن الذي هي فيه حتى أستطيع أن أجد حلا لهذا المأزق.

.....

اليوم الثالث من الشهر العاشر من السنة الأولى

اليوم بدأ الحلم يتحقق، فقد ولد الطفل الأول من الأطفال الذين سيكونون العماد الذي تقوم عليه الحياة في الكوكب الجديد. أواه لكم أنا فرح بهذا الحدث الهائل، هذه الولادة البشارة التي تعلن أن أولادي سيصبحون عن قريب حقيقة واقعة، أولادي، نعم هم أولادي أنا، ولم لا يكونون كذلك وكنت أنا الذي عانى الأمرين وهو يحاول أن ينتقي الطريقة المثلى لاستيلادهم... لقد آمنت منذ البدء أن (الجينز كوم ـپـ اتيبيليتي كونسكوينت) هي الطريقة المثلى التي تلائم (جيرنينا) الفائقة الأهمية، ولذلك حاولت، بل قاتلت، من أجل إختيار هذه الطريقة لاستيلاد الأولاد الذين سيكونون قد بلغوا حوالي الثامنة عشر عندما نصل إلى موطننا الجديد وعندها سيكونون هم بناة عالمنا الجديد هناك... لم أخبر ليساء بمساعي تلك، وحسنا فعلت، فأنا أعرفها جيدا لأنها كانت لتفضل (الراندم ميتن گ كورسپوندنس) لأنها تتلاءم مع فكرتها عن أهمية الأشياء الطبيعية للإنسان وخاصة في هذا المجال، (السكس) المقدس في نظرها، أنا لا أفهم لم يصرون على أن تكون تلك الحركات حيوانية، والانفعالات لاعقلانية، بل هل يمكن أن يتقبل صاحب عقل مثلي أن تسيطر على المنطق عنده، مثل تلك الغيبوبة، فيمارس ما يمكن أن يمارسه كلب أو هر، أو حتى صرصار... كم مرة مارست فيها تلك الطقوس المقرفة، عشر، خمس عشرة أو عشرين، ولولاها

أصلا، لما كان بي حاجة حتى إلى تلك المرات... المهم أن الأمر قد تم، ولم نعد بحاجة إلا إلى إنتقاء (السبيرمات) المتميزة جينيا لنطابقها بصفات الجينات الموجودة في بويضة المرأة الحامل للجنين المفترض، فإذا إتفقتا، سيكون لدينا جيل مثالي، جيل من البناة العباقرة الذين سيؤمنون لـ(الهيومان ريس) مستقبلا زاهرا على الكوكب المتجهين نحوه، وبهذه الطريقة أضمن أيضا أن لا ينغمس افراد الطاقم في تلك الطقوس السخيفة التي قد تؤثر على واجباتهم ومسؤولياتهم تجاه هذه الرحلة ذات الأهمية القصوى... ثم متى كانت العشوائية بديلا جيدا للتوافق والتطابق المسيطر عليهما... آه لو سارت الأمور كما أخطط لها فإني سأصبح عراب الشركة المبجلة التي أنوي إعادة بنائها على هذا الكوكب المجهول بعد أن نستوطنه

.....

اليوم الثامن عشر من الشهر الحادي عشر من السنة الرابعة

يا للسماء، نحن نتعرض لقصف نيوتروني مركز، أنا لا أخاف من تلك النيوترات المنهمرة علينا فـ(سرڤـايڤـل) مزودة بما يقينا أثرها، ولكن، لم يكن يجدر بالـ(مين كوم ـپيوتر) ان يدخلنا في منطقة تأثير (السوپر نوڤـا) هذه... ما الذي حدث له، فالمفروض به أن (يـگودنا) بأمان في مجاهل هذا الكون الفسيح... أيعقل أن تكون ليساء قد فعلت ما كان له أثره السيءفي هذا الـ(كوم ـپيوتر) الفائق... ولكن كيف عن لها أن تحاول التلاعب بـ(پروگراماته)... لا، لا أتصور ذلك، فهي تعرف أن أي تلاعب بأي جزيء من هذا العملاق يمكن أن يكون له نتائج وخيمة، ولا أتصور بالمرة أن

الغباء يمكن أن يبلغ بها هذا المبلغ، وحتى لو كانت غبية، فإن لها من الضمير ما يمنعها من المخاطرة بمستقبل الجنس البشري بأكمله، ولكن، لم هذا التمرد، ولم العناد، والأسوأ من هذا وذاك، هذا القتال الذي يقسم السفينة ويؤثر على كل مقدراتنا... اللعنة على الهولي فرم لم تسمح لنا بحمل الأسلحة الضرورية لحفظ النظام، فلو كانت متوفرة عندنا لأخمدت التمرد بسرعة، ولكن، الشركة كانت على حق بكل تأكيد لأن لا أحد يعرف ما يمكن أن يحدث في سفينة تسير بسرعة الضوء إذا ما أصابت شحنة من الأشعة القادرة، جدارها الداخلي... ليس عدلا، والله ليس عدلا أن يصيب هذه المركبة مكروه ما، لقد كانت ذات يوم حلما مستحيلا للإنسانية، وها هي اليوم أمرا واقعا... يا للهول، ماذا لو أصابها مكروه وهي بإمرتي، سيكون عندها إسمي ملعونا في التأريخ، ولذلك يجب أن أصل بها إلى (هوپ) مهما كان الثمن... ولكن أي تأريخ، ونحن آخر سلالة البشر... لا، من يقول ذلك، لعل (المشنات) الأخرى قد وصلت أهدافها، ترى، هل وصلت، أم أنها ضاعت في الكون الفسيح، هل وصلت (المين گولات) المحددة لها أم أنها نفذت إلى (اليوني-ڤيرسات) الأخرى المفترض وجودها... ولكن، حتى إذا ما وصلوا، وحتى إذا ما بقيت حياة لحد الآن على سطح كوكبنا، فمن الذي يمكنه أن يعرف ما الذي سيحدث لنا... ولكنني أنا أعرف، وشرفي المهني لا يتقبل أن أفشل في هذه المهمة... لا والله ليس عدلا أن تتحطم هذه المركبة الفائقة الروعة بسبب حماقات إمرأة لا عقل لها... يا لله، لو يعرف أعضاء الطاقم أن سمك جدار هذه السفينة العظيمة لا يتعدى جزءا من أجزاء عديدة من الملم، لما إرتضوا أن يستقلونها في مهمتهم الخطيرة هذه... بل، ماذا لو عرفوا أن هذا الجدار ليس معدنا أساسا، بل هو غاز في الأصل... غاز!

يا للهول، ما أعظم العقل البشري، كيف إهتدى إلى هذه التقنية الهائلة، أن يحاط غاز بارد، بغاز ساخن إحاطة تامة، فينضغط حتى يصل إلى (ستيج الـگراڤيتيشنال كوللاپس) فتتداخل ذراته حتى يستحيل إلى جسم هو أقوى من أصلب المعادن التي عرفتها البشرية طوال حياتها... بل العجيب هو كيف يطوع مثل هذا الجسم الفائق الصلابة ويشكل الأشكال التي يبتغيها موجدوه... لا، لا، أنا لا أتصور أنهم كانوا ليرتضوا بأن يسافروا على متن (السر ڤاي ڤل) إذا كانوا يعرفون مم صنعت، ولعل هذا هو السبب في إحتفاظ (الهولي فيرم) بسرية مشروعها هذا، المطلقة، وحمدا لها لأنها جعلتني الوحيد الذي يعرف هذه الحقيقة... ولكن، ما هذا الهذر، أهذا وقته، يجب أن أجد حلا لهذا (الريبيليون) التي زادته هذه العاهرة تأججا بعد أن فرت من سجنها... ولكن كيف فرت، فهذا أمر مستحيل نظريا... لا بد وأن أحدا قد خانني وساعدها على الفرار، هذا مؤكد، فهي لم تعجز يوما عن إيجاد من يحبها، ويعجب بها.

.....

يبدو أننا نعاني من مشكلة لم نحسب لها حسابا، بل لم يحسب لها أحد، حسابا، حجرة الموتى، نعم فقد هيأت الشركة حجرة لحفظ الموتى على السفينة، حتى وصولنا إلى (إيمنا)، وقد قدرت الحد الأقصى عشر جثث، وبالطبع فإنه عمليا من المستحيل أن يصل عدد الموتى، هذا إذا وجدوا أساسا خلال الرحلة، إلى هذا الحد، فأنا أكبر الركاب سنا وأبلغ من العمر سبعة وسبعين عاما، أي أن (اللايف جيرني) عندي لن ينتهي متوسطها قبل

ثلاثةو أربعين عاما أخرى، وفعالياتي البيولوجية تؤكد عدم استعدادي لتقبل أي مرض من الأمراض غير المعروفة بعد أن استبعد تعرضي للأمراض القديمة التي انقرضت منذ قرون... أما الأطفال الذين ولدوا، فإن الفحوص التي أجريت لهم أثبتت أنهم بالفعل من (السو پر جنريشن) الذين خططت الشركة لانتاجهم من خلال انتقاء نخبة من أصحاب أفضل الخرائط الجينية المعدلة ليكونوا آباءهم... فمن كان يتوقع أن يكون لدينا هذا العدد الهائل من القتلى بسبب تمرد هذه العاهرة.

.....

ولكن ذلك لم يعد يهم، فالوضع الصحي على (السرڤـايڤـل) أمسى خطيرا جدا، فبعد توقف (الأوتو فارماسيست دوسجن ـگ سيستم) وضياع كميات الأدوية الهائلة في باطن الآلات التي يستحيل أن يخترق أحد أحشاءها للوصول إليها، وعجز (الميديكال أو پريشنز سيستم) عن الإستمرار في العمل وتوقفه، ها هو إختصاصي (الـپـاراسايكولوجيكال پـلاسيبو) يقتل، ونحن بأمس الحاجة إليه... هذا الطبيب الذي كان يستطيع بقدراته النفسية الهائلة أن يساعد الجرحى حتى على شفاء جروحهم الخطيرة بإقناعهم أن ما يتناولونه من ماء هو البلسم الشافي! ولكنه مات الآن، قتل، ولكن من قتله، ولماذا... رباه، ما الذي يحدث لنا، ولم وصلنا إلى هذا الحال... ألم يحن وقت الهدنة، وقت السلام... ولكن سلام لمن، سلام لهذه المتمردة التي تسببت في كل هذا الدمار بعنادها... أأكافئها على ما فعلت، لا والله بل سأقاتلها حتى ترتد عن غيها وتعود إلى طريق الصواب.

.....

اليوم الأول من الشهر الأول من السنة العاشرة

أشعر بالحزن منذ صباح هذا اليوم، بل منذ الليلة الماضية التي لم أستطع أن أنم خلالها وأنا محاصر في (كابينتي) تحت رحمة حراسي الذين لا أدري متى تشترى ذمة أحدهم، فيسلمني إلى ليساء... عشرة أعوام، عشرة أعوام مض ت ونحن نسبح في ظلمات تبدو وكأنها لا نهاية لها... عشرة أعوام طوال كانت ملآى بأحداث جسام تشيب لها رؤوس الولدان... أواه يا هذا الليل، متى تنجلي... لقد سئمنا ما يحدث، و أصبح نا ره ن تلك الظروف الكئيبة التي كنا نعيش في ظلها، حيث المدن المسقفة والهواء الصناعي الخانق... لم تركنا وطنا نعرفه جيدا وأتينا نبحث في المجهول... الوطن، ترى كيف هم الصحب والأقرباء هناك... ماذا! صحب واقرباء ووطن، ما هذا الهذر، لا بد أنهم ماتوا... بل مات حتى أحفاد أحفاد أحفادهم فقد مضى على مغادرتنا، حسب توقيتهم، أكثر من ثمانية قرون، ومن يدري، لعل الحياة قد إنقرضت نهائيا الآن على ذلك الكوكب الذي حكم عليه بالفناء... إلى أين نحن سائرون.

.....

ولكن هذا مستحيل، كيف يمكن أن يعقل هذا، لا، لا، هذا غير ممكن... زياد! هذا الصبي الذي ظهر فجأة في حياتي وكان لي خير عون، حي ن قدم لي خدمات كبيرة بالمعلومات التي كان يجلبها لي من معسكر ليساء،

أيعقل أن يكون هو إبن ليساء... والأدهى من ذلك أن يكون إبني، إبني أنا... لا، لا، هذا غير ممكن... ولكن ما هو غير الممكن، فها هي الحسابات تؤكد ذلك... تلك الليلة، تلك المرة الأخيرة التي ضاجعت ها فيها، وعمر الفتى، يؤكد ان ذلك... ولكن، ألا يمكن أن تكون قد ضاجعت غيري في الليلة التي تلتها، أو بعدها، أو، أو حتى في نفس الليلة... ولكن هذا مستحيل، فهذه ليساء التي أتحدث عنها، وأنا أعرفها جيدا، لا، لا يمكن أن تفعل ذلك... هي كانت تضطرم في الفراش وتجمح، ولكنها لا يمكن أن تفعلها مع غيري... بل لعل ذلك ممكن، ولكن، لم كل هذا، فالفتى يشبهني، يشبهني كثيرا رغم أني لم الاحظ ذلك من قبل، ألا يكفي ذلك دليلا... يا للهول... أنادي طوال حياتي بنبذ الإتصال الجنسي المباشر بين الرجل والمرأة لعدم الحاجة إليه، ثم أرزق أنا بولد بهذه الطريقة... بل بإثنين، توأم! ولكن، لم يمتنع علاء عن زيارتي، لم لم يسمح لي برؤيته لحد الآن... أيميل لأمه، ولكن زياد يقول إنه إنعزالي بطبعه، وإنه لا يبقى حتى مع أمه طويلا، بل يختفي دوما، ولا يعرف أحد أين... يقول زياد أن أفكاره غريبة نوعا ما... أيكون مجنونا، لا، لا، ولدي أنا مجنون، مستحيل فمن تكون نصف (كروموسوماته) مني أنا، لا يمكن أن يكون مجنونا، أبدا... أبدا... ترى، أيشبهني هو الآخر، ولكنه لا يشبه أخاه، في تصرفاته على الأقل، وهذا يعني أنه شخصية أخرى وهذا يضعف من إحتمالية أن يكونا توأما متشابها، ولكن لم لا أسأل زياد عن هذا... سأساله في المرة القادمة عندما أراه... ولدي! كم يبدو وقع هذه الكلمة غريبا علي.

.....

لقد أصبح الأمر واقعا الآن، نحن تائهون في الفضاء اللانهائي، لقد حكم علينا أن نضيع في ظلمة هذا الكون الهائل... ها قد مر أكثر من سنة على موعد وصولنا إلى (هو پ) وما من أثر له، لقد إنتهينا... (فينيش)... لتفرح "ليساء" فقد حققت ما عجزت عنه الطبيعة طوال آلاف السنين، لقد قضت على (الهيومان ريس)... سنبقى هائمين في أرجاء اللامكان حتى الموت، سنموت معا وعندها، لينفعها (ريبيليونها) وعنادها... أوه، لا أجد في نفسي الرغبة حتى في الكلام... لأسكت الآن فهذا أفضل.

.....

اليوم الـــ... ألا لعنة الله على الأيام، وعلى التأريخ، فمن سيعبأ بهما بعد الآن، إنها النهاية، رباه إنها النهاية، الوداع لـــ(هو پ) بل الوداع لنا جميعا، لقد انقرض الجنس البشري واستؤصلت شأفته، ولكن، من يقول أنه قد انقرض، فهنالك (المشنات) الأخرى التي سبقتنا، لعلها قد وصلت أهدافها الآن وأدامت الحياة هناك... أوه، ألا تستطيع يا رجل أن تتخلص من طريقتك السخيفة هذه في التفكير... الا يمكن أن تكون قد فنيت مثلما سنفنى نحن بعد حين، ثم من قد يهتم اذا ما نجحت في مهماتها أم لا إذا ما كنت سأموت بعد قليل، لتذهب البشرية إلى الجحيم فمن يعبأ بها... ولكن، ولكني أشعر، ورغم كل شئ، بخجل لأني فشلت في (مشنتي) التي كلفت بها، لقد فشلت وخذلت (الهولي فرم) التي وضعت ثقتها بي... اللعنة على تلك الشركة المدنسة فلقدكانت في النهاية سبب بلائنا فهي التي قادتنا إلى هذا المصير المشؤوم. ألم يكن لدينا كوكبنا الخاص، ألم يكن يسعنا جميعا، فلم استهلكته بهذه الطريقة الرهيبة وجعلت كل موارده تنضب حتى ضاق

علينا ولفظنا خارجا، اللعنة، بل ألف ألف لعنة عليك أيتها الـ (لا هولي فرم)... ولكن، لم آبه لهذه الأفكار الآن، لقد تقرر المصير وأصبح الموت محتوما، فقد إنحرفنا عن مسارنا فجأة وهذا يعني أننا قد جذبنا حتما بواسطة (بلاك هول) ما، فلا يستطيع أن يحيد هذه السفينة عن مسارها هكذا شيئا غيره... ولكن، لقد أكدت لنا الشركة أن لا (بلاك هول) في دربنا، فمن أين أتى هذا... ولكن، من يؤكد لي أن هذا (الكوم ـپيوتر) العاجز لم يحد بنا أساسا عن الدرب الرسوم لنا، بل قد فعل بكل تأكيد وإلا لكنا في (هو پ) الآن... ولكننا حدنا، وتهنا، ولن يفيدنا شيئا بعد الآن، فقد حكم الموت وآن لنا أن نستسلم له صاغرين بعدما جذبنا (البلاك هول) ولا محيد لنا عن الفناء بعد الآن فقد عجزت كل أجهزة (الأنتي گرافيتي) عن العمل، ولا عجب، لأنها أساسا لم تصمم لمقاومة تأثير هذه (الفاكيومات) الجهنمية التي لا يتخلص منها حتى الضوء نفسه، كلا، لم يكن لهذه الأجهزة أبدا أن تعمل في مواجهة هذا البلاء الصارم... اللعنة، بل اللعنة على تلك العاهرة ليساء فلولاها لكان (المين كوم ـپيوتر) لم يزل يعمل ولمنع عنا هذا المصير القاتم، ولكنها لم تستطع إلا أن تستجيب لنداءات دمها الملعون، وأن تتسبب بتلك الفتنة التني كانت هي السبب في هذا البلاء العظيم... ألم يكن بامكانها أن تؤجل (ريبيليونها) إلى ما بعد وصولنا إلى (الإيم پـلانيت)... ولكن ما فائدة هذا الكلام إذ لم يبق لدينا سوى سويعات حتى نكون في (الإيـڤينت هوريزون للبلاك هول) لتبدأ عندها تفاصيل الموت الرهيب المعد لنا... ترى، كيف سنموت، هل سنتمدد بفعل (التايدال گراڤيتيشنال فورس) قبل أن ننسحق ونضمحل... كم سيبلغ طولي عندها... اللعنة، اللعنة، أي هراء هذا... أي قدر ظالم قادنا إلى

هنا ... ولكن، لأسكت الآن فهذا أفضل، ولتذهب هذه المذكرات، التي لن أعود إليها ثانية، إلى الجحيم، لأنها لن تنفع أحدا بعد أن تضيع ذرات أجسادنا، نحن آخر البشر، في غياهب ذلك الهول العظيم.

.....

لم أستطع حتى هذه اللحظات، وبرغم مرور كل تلك السنوت أن أستوعب ما حدث، ويبدو أنني لن أستطيع... لقد امتصنا البلاك هول، أنا على يقين من ذلك، ولكن ماذا حدث بعد ذلك، أنا لا أستطيع أن أعرف، بل لا أستطيع أن أذكر... لقد توقفت كل الأجهزة على (السرڤـايڤـل) وحلت الظلمة حتى أن البعض منا كان قد انتحر جزعا، خشية عذاب رهيب... وآخر ما أذكره، لجوئي عاجزا إلى ركن ما من حجرة القيادة، أما بعد ذلك، فلا شئ، لا شئ بالمرة، لا أعرف كم مضى علينا من زمن، ساعة، يوم، شهر، سنة، قرن، لا أدري، ولكن عندما شعرت فجأة أن محركات (السرڤـاي ـڤل) قد عادت إلى العمل، ورأيت النور يغمر الحجرة، شعرت بأجهزة (الأنتي گراڤيتي) المعطلة تعمل فورا، تلك الأجهزة المعطلة تعود إلى العمل هكذا من دون سبب، عرفت حينها أننا قد خضعنا لجاذبية جسم ما، ما هو، وأين هو، لم أستطع أن أعرف، ولم تعني الأجهزة التي نشرت في هذا المجال، ولكني أدركت أننا لم نزل أحياء، ولكن إلى متى، هذا ما لم أعرفه. يا لله ! لم أستطع طوال حياتي (ككاپتن) أن أحقق هبوطا مثاليا مثل ذلك الهبوط الآلي الذي أوصلنا إلى سطح هذا الكوكب الصالح للحياة حسب ما بينته الاجهزة القليلة المتبقية في المركبة، لتمتعه بغلاف جوي ممائل للكوكب المحتضر الذي تركناه قبل سنوات.

أنا لم أستطيع فهم المعجزة المستحيلة التي قادتنا إلى هنا، لم هذا الكوكب بالذات من دون مليارات بل ترليونات الكواكب التي لا تصلح للحياة، ولكن، أين أصبحنا، بل أين نحن، اما زلنا في كوننا الأصلي أم أصبحنا في كون آخر! أنحن في الماضي الآن، أم نحن في المستقبل... رباه ! انا لا استطيع ان اتعامل مع هذا العدد من الألغاز غير القابلة للحل، ثم ما هذا الترديد المستمر لكلمة رباه، رباه، رباه، أأصبحت مؤمنا وأنا أنا هز المائة، ولكن من غير فكرة وجود قوة حافظة لنا يمكن أن تفسر كيف عملت أجهزة (الأنتي گراڤيتي) فجأة لتؤمن لنا هذا الهبوط الرائع على الكوكب بدلا من أن نفجره باصطدامنا به ونحن نسير بتلك السرعة الهائلة وبكتلتنا اللامتناهية نتيجة لذلك، نعم كان يجب أن نفجر الكوكب ونزيله من الوجود بدلا من أن يحتضننا، ولكن هذا ما حدث ويبدو أنه من المستحيل علي حل كل هذه الألغاز، وحتى إذا ما حللتها فما عسى ذلك أن يفيد، أنا وحدي الآن بعد أن انفض من حولي أتباعي، وتلك اللئيمة قد اختفت، اختفت وكأنها لم تكن موجودة، حتى زياد، ابني زياد اختفى ولا أعرف له خبرا... خبر! ومن ذا الذي سيأتيني بخبر في عزلتي هذه... إيه يا زياد كيف اقترفت ما اقترفت، تقتل أخاك، يا للهول... كيف قتلت علاء يا زياد، أما كان بامكانك أن تقتل غيره، فقد كان القتل مباحا ولم يزل، فلم أخوك... علاء يا زياد! ألا شلت يداك يا مجرم، طوال سنوات وأنا أسأل نفسي، لم علاء بالذات، ولكني لم أستطع أن افقه، لقد قيل لي لأن أمكما كانت قد فضلته عليك لأنه أبر بها وأرحم، ولكن، أيمكن أن يكون هذا مبررا لقتل أخيك... يا لله كيف لم أفهم، كيف لم أتوقع ما كان شبه محتوم، فقط لو كنت قد انتبهت قبل أن تقع الكارثة، ولكن الكارثة نفسها كانت

محتومة، فبعد كل ذلك الجنون والقتل كان لابد للأخ أن يقتل أخاه... لا والله لم يكن لمثل علاء أن يقتل أخاه حتى لو عم الجنون كل الكون لا هذا الكوكب اللعين فقط ، لقد حافظ هذا العلاء الرقيق على مسافة متساوية بيني وبين أمه طوال حربنا اللعينة، كان يشغل نفسه كما قيل لي بمخاطبة كائناته التي كان يقول أنها تسكن السماء، ولم يكن يهمه إن صدقه الآخرون أو لم يصدقوا لأنه كان مؤمنا بما يفعل، كان يدعو إلى السلام طوال الوقت فكيف يمكن أن يقتل أخاه، لا، كان شخصا آخر غير زياد، زياد الذي كان يلعب على الحبال، كان يزودني بأخبار أمه وينقل لها أسراري، يستغل قربه مني ليلقى حظوة عند أتباعي، ويستفيد من حب والدته له ليكون قائدا للغوغاء الذين اتبعوها، كيف لم أفهم أن مثل هذا الانسان كان حريا أن يفعل أي شئ من أجل مطامعه... وأنت أيتها المتمردة المختفية، قولي لي، ما الذي استفدته من رعونتك وعنادك، انظري إلى ما جنته يداك، لقد كان من المفروض أن يكون هذا الكوكب الملجأ الآمن لبقايا العنصر البشري، وكان يجب أن تكون لنا قاعدة متقدمة الآن فيما لو كانت الأمور قد سارت كما هو مخطط لها، أشعرت بالغيرة من إحتمال أن أكون شبه اله الآن فيما لو سارت الأمور كما كان مخططا لها، أهذا ما دفعك لفعل ما فعلته، الغيرة، حسنا أنا أعرف أن هذه من صفات صنفك المتدني من أنواع البشر، ولكن أرجوك أن تصدقيني القول، اتستحق الغيرة أن يكون لها مثل هذا الثمن الرهيب، أن تضيعي مستقبل من وضعت أمانة قيادتهم بين يديك... ما هذا، لقد بت أحدث نفسي كالمجانين، ولكن لا، لا أنا أوثق كما إعتدت... توثيق! لمن... ألا سحقا لكل شئ، ولكنك يا ليساء ملامة، أنت السبب في كل ما حدث، ولكن ما الذي حدث، وكيف وصلنا إلى هذا الحال، لقد وثقت بنا

(الهولي فرم) وكلفتنا بمهمة انقاذ الجنس البشري، فما الذي فعلته أنت، فلولاي لما تمكنوا من النجا... آآآآآآآآآه ولكن لم هذا الادعاء وأنا إنما أحدث نفسي فقط، فأنا لم أنقذهم في الحقيقة، بل لم أكن لأستطيع أن أنقذ نفسي، ولكن هذا العجب المستحيل الذي حدث هو الذي أوصلنا إلى هنا، إلى هذا الكوكب العجيب الذي لم أسمه حتى الآن، حسنا يجب أن أسميه فهذا واجبي، أوه يجب أن أتذكر التسلسل الذي كنا قد وصلنا إليه... آه لقد تذكرت، 665 إذا يجب أن يكون رمز هذا الكوكب هو "و666!" ولكن، يا له من كوكب رائع ففيه كل ما لم نعد نستطيع حتى أن نحلم به في كوكبنا الأم، فيه كل أنواع النباتات بالاضافة إلى كل أنواع المخلوقات غير العاقلة التي تبدو وكأنها في انتظار للمخلوق العاقل الذي سيقودها ويحدد مصيرها، ولكن أيعقل أن يكون هؤلاء الذين قدتهم إلى هنا عقلاء، ها هم يسكنون الكهوف ويقاتلون بعضهم مثلما يقاتلون الحيوانات لكسب قوتهم، ولكن في هذا الكوكب من الموارد ما يكفي الجميع ويزيد، فلم هذا التقاتل، أهو قدرنا أن نقاتل أنفسنا، رباه أتكون هذه سنة سيئة سننتها بنفسي، أم أنها كانت حتمية بسبب عناد وتمرد ليساء؟

.....

ولكن متى كان هذا... من يذكر! يا له من خطأ عظيم نسياني أن أثبت تأريخا جديدا منذ أن حططنا على هذا الكوكب، ولكن من كان ليذكر ذلك بعد تلك الأحداث الجسام التي حدثت لنا في تلك الأيام الرهيبة، بل هل كنت لأجرؤ على التفكير بأننا كنا سنصل إلى هنا أحياء... ولكن، اي هنا هو هذا... انا لا أزال لا

أعرف، ولكنه كوكب صالح للحياة على الأقل، وهذا هو الأهم، أما التأريخ، فمن يأبه له، وتأريخ لمن، لهذه الشراذم التي قدتها إلى هنا، لهؤلاء المتفرقين في الكهوف المنعزلة، والمزاحمين الوحوش على أرزاقها... لا لن يفيد التأريخ هؤلاء بشئ، فكل الذي يفيدهم هو لقمة تذهب عنهم جوعهم، وتجعلهم يعيشون يوما آخر، ولكن لم يعيشون، أنا لا أعرف، وطبعا، هم لا يعرفون بكل تأكيد، ولن يعرفوا ما داموا يعيشون كالحيوانات... ولكن، كم مضى علينا ونحن هنا، على هذا الكوكب... أربعون عاما، خمسة وأربعون... لم أعد أذكر... أنا لا أذكر، أنا صاحب الذاكرة الخارقة، لا أذكر... ولكني لا أذكر، هكذا بكل بساطة، لا أذكر، فما فائدة المكابرة.

.....

"ولكن لم كل ذلك، لم هذا الإصرار على القتال من أجل لا شئ" فقالت بهدوء "كلا، لم يكن قتالا من أجل لا شئ، بل كنت أشعر بأني أقاتل من أجل هدف سام جدا، بالنسبة لي طبعا، لقد قاتلت من أجل الحياة في الكوكب الجديد الذي لم أود أن أنقل لعنة كوكبنا القديم إليه، أردت أن يعيش الإنسان فيه إنسانا، لا مجرد آلة، أو ألعوبة بيد (الهولي فيرم)" تفاجأت بما قالته، فقلت معترضا "ولكن أين تلك الشركة منا الآن" حدقت في عيني ثوان ي قبل أن تقول "أنا أعرفك يا جويزع إنسانا مستقيما ورجلا طيبا، ولكنك ومع الأسف كنت مخدوعا طوال عمرك... أنا لا أعرف، لعلي لو عشت بالطريقة التي عشت بها لشابهتك، ولكني لست كذلك، وهذا ما يجعلني أعرف حقيقة هذه الشركة القذرة التي سممت حياتنا كبشر وأستهلكت الكوكب بطريقة فظيعة، تصور، لقد قلصت عمر كوكبنا مليارات السنين ومع ذلك

تدافع عنها... أنسيت يا عزيزي تلك المدن المغلقة، المدن الخانقة، هيا أنظر، أنظر من حولك، اترى الخضرة والجمال في الطبيعة، لقد كان كوكبنا مثل هذا، فما الذي حدث ؟ لم بتنا نفكر ألف مرة قبل أن نتورط في الرحيل إلى مدينة أخرى، أتذكر الإجراءات المعقدة والتجهيزات المتعددة التي نحتاج إليها لأننا نعرف جيدا أن أي خطأ، مهما كان صغيرا أثناء السفر، يعني الموت في تلك البيد الجهنمية الممتدة بين المدن المعزولة" فقلت وأنا اشعر بأعصابي تتململ "ولكن ما ذنب (الهولي فيرم) في ذلك" فقالت وقد علت وجهها إمارات التعجب "كل الذنب يا عزيزي، كل الذنب، فهي التي أوصلتنا إلى ذلك الحال... ألا تعرف أن الطمع والقدرة الفائقة مزيج خطير جدا يجب أن لا يتوفر لإنسان لأنه سيجمح ويبطش بكل تأكيد... كانت كل الدراسات تؤكد أن تعداد سكان الكوكب كان يجب أن يبلغ الثلاثين مليارا الآن، أتعرف كم كان عددهم عندما غادرناه، كانوا ملايينا، لتكن بالمئات، ولكنها مجرد ملايين، فأين المليارات الأخرى" فقلت متحاذقا "بالفعل، أين هي" فردت على الفور "أنا لا أعرف، ولكن إسأل الذي أزال طبقة كاملة من الغلاف الجوي للكوكب وجعلها عرضة لكل أسباب الموت الرهيب، إسال الذي قلص الأراضي الصالحة للزراعة وقتلها بالجوع الأليم، بل إسأل ذلك الذي أطلق الفيروس الذي جلب من الفضاء الخارجي فأقام مذبحة تغور أمامها كل المذابح التي إقترفها البشر طوال حياتهم... أكثر من ثلاثة مليارات إختفوا بسبب مخلوق حقير لا يرى بالعين المجردة، الم تسأل نفسك يوما لم كانت هذه المليارات من الدول الفقيرة، الم يهدك المنطق إلى أنه من الطبيعي أن تكون هذه الضحايا من سكان الدول الغنية التي كانت تحتجز ذلك الفيروس في مختبراتها" قلت "ولكن ذلك كان

قبل أن توجد (الهولي فيرم)" فردت قائلة "بل قل كان في طور ما قبل ا لإعلان عن وجودها" قلت متجاهلا ما قالته "ثم إن هذا بعض إفرازات التقدم العلمي الذي حصل" وعندها بان الغضب واضحا في نبرات صوتها وهي تقول "بل قل إفرازات العقد الذي قامت به تلك الشركة مع الشيطان، فهذا من أعمال الشيطان لا من إفرازات التقدم، التقدم يا جويزع هو أن يكون العلم في خدمة البشر، أن يكون وسيلة لرفاهيتهم، أما أن يكون غاية بحد ذاته ولو على حساب البشر، فلا، وألف ألف لا" فقلت محاولا أن أدير الموضوع الذي بدأ يزعجني، بإتجاه آخر "على ذكر التقدم العلمي، أتعرفين شيئا عما حدث (للمين كوم ـپيوتر) على المركبة" بهتت فجأة وبدا عليها وكأنها تعاني من صراع، بل أكاد أجزم أن الدموع قد ترقرقت في مآقيها للحيظات، قبل أن تقول بصوت منكسر "هذا هو الخطأ الذي جعلني اشعر بندم ما بعده ندم، ولكن ما حدث قد حدث" فقلت "ماذا، ما الذي فعلته" فقالت "لقد كلفت أحد أتباعي أن يدخل (ڤايروسا) به" فصحت من دون وعي تقريبا "ماذا، (ڤايروس)، ولكن لماذا فعلت ذلك، بل كيف فكرت أساسا به، (الكوم ـپيوتر)، (المين كوم ـپيوتر)، ولكن لماذا، ألم تتوقعي ما حدث، كيف، كيف غامرت بمصائر الجميع هكذا" فبان الانزعاج الشديد على وجهها وقالت "ولكني لم اكن أقصد إلا ذلك (ال ـپروگرام) المخصص لتربية الأطفال وتعليمهم" فقلت معاتبا "ولكن لماذا، لم هذا (ال ـپروگرام) بالذات" فقالت "لأنه يبدأ بتدريب الأطفال وهم في الثالثة في العمر، وفي هذا العمر يكون الأطفال بحاجة إلى العناية والإهتمام واللعب، لا التعليم والتدريب، ولكي أقطع الطريق عليك قررت أن أطيح به خارج (ميموري) الكومبيوتر" فقلت "ولكنه كان عصارة خبرة أجيال وأجيال من التقدم العلمي والتطور"

فقالت "لقد قلت لك أن ذلك (ال ـپروگرام) كان يمثل بالنسبة لي كل ما أكرهه في (الهولي فيرم) ولذلك كان لا بد من إفنائه" فقلت وأنا أحاول أن لا أكون قاسيا عليها رغم إستغرابي الشديد من تصرفها "ولكن كيف توقعت أنك تستطيعين أن توقفي هذا (ال ـپروگرام) من دون التأثير على (المين كوم ـپيوتر)، ألا تعرفين إنه بنيان مرصوص فإذا ما عبثت بأي جزء منه فإنه يمكن أن ينهار" فقالت بعد تفكير قصير "لقد قيل لي أن ذلك (الـڤـايروس) لا يؤثر إلا في ملفات (الآر إس إس) وأن ذلك (ال ـپروگرام) كان الوحيد الذي يحتوي على مثل هذه الملفات" فتساءلت قائلا "ولكن ما هو نوع هذا (الـڤـايروس)" فقالت "دعني أتذكر... آه، هو (كروسيدر نايت ڤـايروس)" عندها، لم أتمالك نفسي فصحت "رباه، (الهولي هيت)" فقالت مستغربة "لقد قلت لك (كروسيدر نايت) فلم تقول (هولي هيت)" فرددت قائلا "ألا تعرفين أنه نفسه، ألا تعرفين أن هذا (الـڤـايروس) يمتلك القدرة على تطوير نفسه، فبعدما يؤدي مهمته الرئيسة وهي القضاء على ملفات (الآر إس إس) فإنه يتحول أحيانا إلى وحش قاتل يجتاح كل ما في طريقه من ملفات، الآن فقط فهمت" ثم صمت لحظات قبل أن أواصل قائلا "والله ثم والله لولا فعالية (الأنتي ڤـايروس) الذي يحرس (ال ـگـايدنـگ سيستمز) في (المين كوم ـپيوتر) لما كنا هنا الآن"

.....

مددت يدا مرتجفة، وأنا أغالب دموعي الشخصية، لأمسح الدمعات التي سالت على وجنتيها وقلت "ولكني لا أفهم، كيف لم ألاحظ عليك علامات الحمل عندما كنت في السجن طوال أشهر" فقالت على الفور "أوه، لا تذكرني بتلك الأيام، فقد كانت قاسية جدا علي وأنا أعاني من

أعراض الحمل، ومحاولاتي المستديمة لإخفاء الأمر عن أعين الآخرين" فقلت مستغربا "ولكن لماذا" عندها قالت وعلى شفتيها شبه ابتسامة "لأني... أرجوك لا تغضب، لأني لم أكن أريدك في حينها أبا لولدي".

.....

وأخيرا، أكملت الدفن... الوداع يا ليساء، الوداع يا حبيبـــ... رباه، أيعقل هذا، أن أدفنها بنفسي أخيرا، بعد كل ما حدث، تسلم الروح في حضني، وفوق ذاك، أحزن عليها كل هذا الحزن! كيف حدث هذا بل، لم حدثت كل تلك الأحداث... عجيب... آه، لكم أتعبني هذا الدفن... في السابق، كنت أقوم بهذا العمل خلال ساعة واحدة، ولكني لم أتمه الآن إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة... يا للشيخوخة... بل يا للتخلف، فلو كنت هناك، على كوكبنا، لما كنت لأصل إلى هذه الدرجة من الضعف و، لكن ما فائدة هذا الحديث، وما فائدة الإفتراضات بعد الآن، فأنا هنا، وهذه حقيقة... آه يا ليساء، كيف حدث بيننا ما حدث... بل كيف لم أعرف أني... لقد مضى على زواجنا، سبعون عاما، ماذا، سبعون عاما، ولكننا كنا قد غادرنا كوكبنا الأصلي قبل أكثر من سبعين عاما، وكنا متزوجين قبلها، فكم مضى، تسعون عاما، مائة، بل أكثر... رباه، أكثر من مائة، يا لها من فترة طويلة لتتعرف خلالها على شخص واحد... أكثر من قرن ولم أعرف أني أحبها بهذا القدر إلا بعد أن ماتت! مائة عام، الف ومائتا شهر، أكثر من ستة وثلاثين ألف يوم... مئات الآلاف من الساعات، ولم أدرك مدى حاجتي إليها إلا الآن... يا للسخف، بل يا للمأساة، كيف أمكنني أن أمضي العمر وأنا عاجز عن إدراك حاجاتي الحقيقية... كيف يخدع الإنسان، كيف

يجعلونه ينسى نفسه وحياته الخاصة وينغمس في كل ما ليس له به شأن، أو له شأن ولكن ليس هو الأهم، كيف يخدع الإنسان، كيف خدعت، انا جويزع، العالم، المفكر، البارع الذي يعرف كل شئ، كيف لم أعرف أني كنت أحب هذه المرأة طوال الوقت، والأسوأ أني لم أرغب فيها إلا بعد فوات الأوان... لن أنسى ما حييت ذلك اليوم الذي ظهرت فيه فجأة، رأيتها مقبلة علي وهي تسحب رجلها اليمنى سحبا بعد أن توقف مفصل (البايو سورب أند پولي كاريون ميكس ـچر) فيها عن العمل لعدم إدامته، ذلك المفصل الذي وضع لها بعد تعرضها لذلك الحادث الرهيب عندما كانت في الثلاثين من عمرها، والذي لم يكن ليتوقف ولو بعد ألف عام في الظروف الطبيعية... تحفز جسدي عندما رأيتها مقبلة علي، وتنادت خلاياي للجلاد، تصورت إنها قد جاءت أخيرا لتصفية الحسابات، شعرت بالإنزعاج لأني كنت قد فقدت حينها أي رغبة في القتال، ولكن ما دامت قد أتت لذلك، فليكن، ولكني عندما لمحت الإبتسامة التي كانت تحملها كراية بيضاء على شفتيها، فقدت قدرة السيطرة على إنفعالاتي، فقد كان قد مر علي أكثر من ثلاثين عاما لم أتبادل فيها كلمة مع بشر... تقدمت خطوات، ثم لم تعد لساقاي القدرة على حملي، فأنهرت جالسا على ركبتي... إقتربت هي مني حتى توقفت وهي ترنو إلي جالسا بين يديها، إنحنت علي بصعوبة، ثم طبعت قبلة على خدي... والله كانت عذوبة ذلك اليوم تعادل حياة، بل حيوات مضاعفة من حياة بائس مثلي... في تلك الليلة، إعتذرت منها، لا لأني نويت أن أعدمها ذات يوم، بل لعجزي، فقد قلت لها وأنا ألوذ بدفء جسدها في المركبة "يا للسخرية، للمرة الأولى في حياتي أرغب فعلا في أن، أن، تعرفين ما أعني، ولكني لا أستطيع لأني لم أعد فعالا في هذا المجال، بل الحقيقة هي أني قد نسيت أساسا كيفية

القيام بالأمر" وكانت تلك المرة الوحيدة في حياتي التي أردت فيها أن أمازحها، خلال أكثر من مائة عام عشتها معها، كانت تلك المرة الوحيدة التي مازحتها فيها، ومع ذلك، فعندما لاح ظل إبتسامة متفهمة على شفتيها، شعرت بامتعاض خفيف إنتصارا لفحولتي التي شعرت بها مهانة في تلك اللحظات! قلت "لا أدري أي شيطان زين لي أن أرفض زرع تلك الأشياء (النانو الكترونية) التي تساعد على إثارة الشهوات الجنسية في جسدي، وإلا لكان بإمكاني ذلك الآن" لم تعلق هي بشئ، بل إحتفظت بابتسامتها نفسها وهي تلامس شعري برقة، بأناملها، تذكرت المرات القليلة التي أفصحت فيها عن قدراتها في هذا المجال معي، فقلت "ترى، هل زرعتها أنت" فأجابتني على الفور "كلا" فتساءلت "لماذا" قالت "لأني لم أكن بحاجة إليها، فأنا لم أتعود كبت إنفعالاتي ولا أخشى أن تخذلني استجاباتي" أردت أن أسألها عن قصدها، ولكني كنت متعبا جدا، فأغمضت عيني وهي تحتضنني، ونمت... يا لها من أشهر مجيدة تلك التي أمضيناها معا، مؤخرا... أوه، يا لهذا التعب الذي يكاد يهد جسدي، انا بحاجة إلى الراحة... وهذا الجهاز، لم تعد بي حاجة إليه، لأدفنه هو الآخر، هنا، لأذهب وأنام طويلا.

في الدجى

بنبرات أرجفها الحزن المقيم، وناحت من خلالها لوعات و هموم، قال العم إبراهيم السرمد:

ـ ألم تفهم بعد، أنا أنعي لكم ديرتنا، فقد ضاعت إلى الأبد.

ثم سكت ليضيف بعد قليل وقد بدا صوته وكأنه يأتي من غور عميق:

ـ لقد رأينا الكثير، وسمعنا الكثير جدا، أكثر مما يتوجب علينا، بكثير.

ثم هز رأسه لحظات وهو يغالب العبرات اللجوج التي كانت تطرق أبواب جفونه المثقلة بآثار العمر، ليقول:

ـ وليتنا لم نفعل.

اشرأبت إليه عيون، ووافقته رؤوس بهزاتها، وهو يضيف قائلا:

ـ عجبا لهذه الأقدار، كيف تقدر لشخص أن يعايش السقوط بكل تفاصيله خلال حياته من دون رحمة، في الوقت الذي تداري فيه آخرا بجعله رفيقا لسنوات السمو في تأريخ الشعوب، آه، ليتنا متنا قبل هذا.

قال مازن المازني في لحظة تجل نادرة من لحظات الفهم لديه، كما يقول ابراهيم السرمد كلما سمع منه رأيا، يوافقه أو يستهجنه:

ـ ولم نموت في الوقت الذي سيأتي به الخير، بعد كل تلك السنوات العجاف.

التفت العم إبراهيم وقد سبقته الحدة التي أطلت من عيونه، ولكنه تدارك نفسه ليقول:

ـ عذرا يا مازني، ولكني لم أقصدك عندما تكلمت بصيغة الجمع.

سمعت كركرات مكبوتة، وتصاعدت همسات، لكن مازن تجاهلها ليعود إلى الحديث مع صاحبه الذي كان قد قاطعه ليسجل اعتراضه على العم إبراهيم، هذا الكهل المزعج الذي لم تزده الأحداث الأخيرة إلا صلفا وغلظة لسان.

تطلع السرمد إلى مازن، فكر بصمت "يا لهذا التافه المسكين، هو يجاهد ليظهر أنه الذكي العارف على نفسه، ولكن من دون جدوى... لقد أردت أن أبعده عن مجلسنا هذا، ولكن خجلي منعني، حاولت أن أعود نفسي على وجوده، ولكني فشلت"

ناور لكي يبعد هذا المازني عن تفكيره، فأغمض عينيه، وهو ما لم يكن قد فعله منذ ليلتين، أو من يدري؟ لعلها كانت ثلاث، أو أكثر. ارتفعت في ذاكرته غلالات الدخان الأسود الكثيف، وحاصرته الوجوه الكالحة التي شوهها الطمع، فقال بصوت مسموع:

ـ إيه يا ديرتي، لصوص الدائحة ينتظرون حلكة الليل ليتستروا بها، ولصوصك لا يشعرون بالأمان إلا إذا سرقوا تحت أنظار شمسك.

لم يفتح عينيه ليستطلع وقع كلماته على وجوه رفاقه كما هي عادته، بل أصر على مصادرة نظرها بقيود أجفانه ليعود إلى صوره ورؤاه، ذبح الأعور القذر أمامه، لم يعرف في حينه إن كان ذلك تصفية لحساب قديم، أو فض لشراكة لصوص، ولكنه رأى وهو مغمض العينين الدم الفائر يدنس الرصيف المثقل بطبقات التراب المتراكم، مرة أخرى، كاد أن يشعر بالغثيان لولا أنه تذكر الطفل الممدد على الأرض وهو يودع حياته

القصيرة بانتفاضات جسده الغض التي بدت كرقص الطير الذبيح، بسبب تلك الرصاصة التي أتت من اللامكان، لم يحتمل هذه الذكرى المرعبة ففتح عينيه بسرعة في اللحظة التي كان سلام المرهون يقول فيها:

ـ وأكداس الأسلحة المهانة تلك، يا لهول ركـ.

فصرخ به بغضب زادته رؤاه البغيضة حدة:

ـ دع الأسلحة وشأنها يا مرهون فهي لا يمكن أن تهان لأنها مجرد أسلحة.

ثم بصوت أرق نسبيا:

ـ هيا، فأنت تعرف من هو المهان فعلا.

لم يجبه سلام بل هز رأسه بحزن، وبقي صامتا فيما صاح بهلول المدلول من مكانه:

ـ اللعنة، ولكنها كثيرة جدا، فلم أصر عنترة على اقتنائها.

قال العم إبراهيم ومرارة ما يشعر به تقطر من بسمته:

ـ إنها لأبناء الأعمام والخالات، أما العدو، فليس أمامنا معه إلا التسليم والـ،

ثم استدرك فجأة ليقول بصوت حزين:

ـ أستغفر الله، ولا حول ولا قوة إلا به.

أغمض عينيه مرة أخرى، تناسى وجود الرفاق وتجاهل لغطهم الذي ظل يقتحم عليه أسماعه، فقد عاد في تلك اللحظات إلى حديقة المرحوم فاخر العتيق، وها هو يتحلق مع أترابه حول تلك الأعجوبة التي لم يستطيعوا أن يحلوا لغز معجزاتها في حينها، تحت الكرمة، شجرته

الأثيرة، كان مذياعا صغيرا، بل صغيرا جدا، ولكنه في ذلك اليوم كان يتفوه بعبارات وكلمات كبيرة، فقد كان يزف لهم بشرى الانتقام من " مختار الأبرش" وهزيمة جيشه اللعين، في كل حين كان يزيد من عدد الطائرات المختارية التي تتهاوى والدبابات التي تحترق أو تؤسر بعدما تتركها طوائفها وتفر مذعورة، أما الجنود فقد عجزوا عن معرفة عددهم الحقيقي بعد يومين لأنهم كانوا ينفقون ويؤسرون على مدار الساعة، حتى أن إبراهيم السرمد شعر وهو في قمم الفرح التي كان فيها، ببعض الشفقة عليهم، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عما شعر به لأترابه ورفاق لعبه لأنه كان يعرف أن ذلك كان محرما! وفجأة، وبعد اليوم السادس أو السابع، لم يعد يذكر، سكت اللعين ولم يعد يذكر شيئا عن المعارك، سكت، ولكنه لم يصمت لأنه عاد إلى عادته القديمة (يا حبيبي كل شيء بقضاء) ولكن، أي حبيب وأي قضاء، وماذا عن الحرب، وأبطال العمورية الأشاوس، ماذا عن هزيمة المختاريين وتلقينهم الدروس، لم يعد الخبيث يذكر عن هذه الأمور شيئا حتى شك إبراهيم في أن تكون قد حدثت، أكانت حلما أم خيالا، ولكن رفاق حارته كانوا يشاركونه تساؤلاته الحائرة، هي حقيقة إذا، ولكن، ما الذي حدث، لم يجرؤ على سؤال أبيه لخجل كان يسكن نفسه الصغيرة، ولأنه يخاف من العقاب إذا حشر أنفه في شؤون الكبار. وعندما لم يعد يستطيع الاحتمال وقرر المجازفة ليشبع فضوله ويبعد مخاوفه الغامضة، زجره الحزن الذي سكن أعين الكبار في تلك الأيام، ولجوء أخيه الأكبر إلى زجاجته السحرية مرة أخرى ليعود إلى نوبات البكاء المعهودة في أعماق الليل.

قال بنفاد صبر وألم:

ـ تبا ، إن كانوا قد أدمنوا الهزيمة ، فلم هذا الإصرار على دغدغة آمالنا بأحلام النصر الموهوم .

قال المرهون :

ـ هذا لأنهم ليسوا برجال أصلا.

فصاح السرمد بنزق :

ـ ومن هم الرجال إذا ، نحن.

كان الحر الخانق وملل انتظار عودة التيار الكهربائي الذي تأخر كثيرا يزيدان من شعوره بالانزعاج وهو ما يزيد من عدوانيته ، كان رفاق مجلسه هذا قد تعودوا على تقلبات مزاجه وتقبلوها كما هي فبقوا صامتين ما عدا المازني الذي قال :

ـ طبعا نحن الرجال.

فقال السرمد بحدة :

ـ أنظروا من الذي يتكلم عن الرجولة .

فقال المازني بانزعاج :

ـ ولم لا أتكلم عن الرجولة ، ألست رجلا؟

رد السرمد بهدوء قائلا :

ـ إذا كانت الرجولة تعني ذلك النائم بين ساقيك، فنعم ، ولكن معناها يا ولدي أوسع من ذلك بكثير.

فقال المازني بهدوء مماثل :

ـ فمن هو الرجل ، أنت؟

ـ لا أنا لست برجل ، ألم تفهم ما عنيته حين تكلمت عن الرجولة ، للاختصار أقول أنا لا أرى ظلا لرجل في هذا المجلس، أفهمت؟

سمع مازن ضحكات الآخرين عندما سمعوا قول العم إبراهيم الأخير لكنه كان مصرا على محاولة دحر هذا الكهل المغرور فقال:

ـ ولكني لا أفهم، لم لا نكون رجالا في نظرك، ألمجرد أننا لم ندافع عن عنترة.

ـ كلا، بل لأنكم لم تدافعوا عن أنفسكم، عن ديرتكم، بل عن مستقبل أطفالكم.

ـ وما به مستقبل أطفالنا، أؤكد لك بأنه سيكون زاهرا بعد رحيل عنترة الذي بوجوده كان مستقبلهم سيكون حالكا.

ـ ولكن، أما كان بامكانكم أن تزيحوه عن سمائكم بأنفسكم.

ـ وكيف يكون بامكاننا هذا ووراءه كل قوى الشر في هذه المقاطعة.

عندها انتفض إبراهيم وقال:

ـ أتقصد أنه كان عميلا؟.

ـ طبعا، والكل يعرف هذا.

ـ عميل من؟ هيا اخبرني بسرعة!.

نظر مازن باستغراب إليه وقال:

ـ عميل لمالك طبعا، أو حتى لمختار، إبنه.

ـ أي أنك تتوقع الخير من الأصيل بعدما رحل الوكيل، أليس كذلك.

تنحنح مازن قبل أن يقول باضطراب:

ـ طبعا، ولم لا؟.

ـ ولكن كيف يكون هذا؟ هل من المعقول أن تكون جادا فيما تقول.

ـ طبعا.

ـ ولكن كيف؟.

ـ لا أدري، بطريقة ما، وما أدراني، سحقا لهذا الدعبسي، وليذهب إلى الجحيم هو والدعابسة جميعا.

قال العم إبراهيم وهو يحاول ضبط أعصابه بالمتبقي من إرادته المتداعية:

ـ أولا، ليس من حقك أن تقول هذا عن الدعابسة،

فقاطعه مازن قائلا:

ـ ولكنهم كانوا الذراع الذي يضرب به.

ـ ليس جميعهم، ومع ذلك، لو أرسلنا كل جماعة يظهر منهم شرير إلى الجحيم لما تبقى في هذه الديرة أحد، ولكن ليس عن هذا أريد أن أتحدث، بل عن عقدة عنترة التي أصابتكم وجعلتكم لا ترون حقيقة حالكم، يا لهذه الحشرات اللعينة.

قال هذا وراح يطرد المخلوقات الطائرة الصغيرة التي تجمعت عليه، بحركة عصبية من يديه، ليتابع بعدها قائلا:

ـ وليتني أشعر بأن حقدكم عليه هو لأجل المباديء التي داسها.

فقال مازن باستغراب:

ـ فلم نحقد عليه إذا؟!.

ـ بسبب الحسد والغيرة.

ـ ولكن هذا تجن على الحقيقة.

ـ بل هو الحقيقة بعينها.

عندها قال المدلول:

ـ لا يا إبراهيم، في هذا، أنت على خطأ.

فقال السرمد:

ـ صبرا علي يا مدلول فأنا لا أقصد الجميع، ولكن الأغلبية.

فاعترض المدلول مرة أخرى:

ـ و لا الأغلبية.

فقال العم إبراهيم مرة أخرى بصبر:

ـ و لا الأغلبية، إذا الكثيرين، وأصمت الآن يا بهلول ودعني أكمل، فقد آن لهذا أن ينتهي لأن عنترة قد ذهب ويجب أن نحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه، و لا أخفيك، فأنا متشائم جدا في هذا.

عندها قال كريم التقي:

ـ هيا يا سرمدي، تفاءلوا بالخير، تجدوه.

فقال السرمد على الفور:

ـ هذا عندما يكون للتفاؤل أساس منطقي، أما في حالتنا هذه فلا أمل لنا بالمرة.

فقال سلام المرهون بخجل والبسمة مرسومة على شفتيه:

ـ لا أخفيك يا عم إبراهيم بأني أتوقع أن تكون السنوات المقبلة أعوام خير.

نظر العم إبراهيم إليه وزفر زفرة حرى وقال:

ـ نعم، ستكون كذلك، أنا أيضا أتوقع ذلك، ولكن إلى متى، حتى ينتهي الذهب في مناجمنا، لتكون بعدها المأساة، يا ويح نفسي، أمن أجل أن أعيش المتبقي من حياتي برفاهية، أبيع مستقبل أطفالي؟

فصاح مازن بنزق:

ـ فلم لم تحارب المالكيين عندما أتوا.

لم يستطع العم إبراهيم أن يتمالك نفسه هذه المرة فصاح:

ـ لأني جبنت أيها التافه، جبنت، نعم جبنت، أنا جبان، جبان، جبان.

ثم انخرط في نوبة بكاء أذهلت الجميع في البداية، ولكن بعد حين، سالت عبرات من آخرين، بصمت.

عندما أضاءت مصابيح الشارع الكهربائية، المكان، فجأة، كان العم إبراهيم لا يزال يبكي بصمت. امتدت كفه بسرعة لتمسح الدموع الذليلة وكأنه خجل من أن يراها الآخرون، ثم أسند ظهره إلى الجدار وأغمض عينيه، فيما قال مازن المازني:

ـ اللعنة، ما لهم لا يستطيعون أن يصلحوا المحطات الكهربائية، لو كان عنترة موجودا لكانت قد أصلحت الآن.

نظر سلام المرهون إليه، مط شفتيه وقال:

ـ أنت تعرف أنهم يستطيعون ذلك ولكنهم لا يريدون.

ـ ولكن لماذا.

ـ لا أعرف، اسألهم هم.

لم يعلق العم إبراهيم هذه المرة بشيء، بل بقى مغمض العينين صامتا يتمنى لو يستطيع النوم ما دامت الكهرباء متوفرة ولو لبعض الوقت، ولكنه كان يعلم أن محاولته النوم ستبوء بالفشل ما دامت تلك الصور البغيضة قد استوطنت ذاكرته نهائيا ، أزيز طائرات، نيران محركات الصواريخ، انفجارات هائلة، الخوف المرسوم على وجوه الأطفال والنساء، الوجوه المصفرة من الخشية والتعب، واللعنات تنهال على مالك وجيوشه، ثم دباباته تجوب شوارع "المزاغة" المستباحة على أيدي أبنائها التي ترتفع مرحبة وقد ظهر البشر على وجوه، والذهول والغضب المحبط على أخرى. مات عنترة، عاش عنترة، ولكن عنترة لم يمت، بل دحر، وهذا الآخر بألف عنترة. رجال يستنجدون بجنود مالك ليكفوا أيدي الظالمين عن عرض مدينتهم ، وهؤلاء يطوحون أيديهم في الفراغ للتعبير عن عجزهم عن فعل ذلك. البنادق التي اختفت ليلة سقوط المزاغة تظهر الآن لتوقف المساومات وتحسم المنازعات تحت أنظار المالكيين المندهشة. يا لبؤس هذه الاطلاقات اللئيمة ويا لفحش مطلقيها. ولكن الأزيز لا يريد أن يتوقف، بل يزداد لؤما.

صاح بغضب:

ـ خسئتم أيها الأنذال.

لاحظ أن صوته بدا وكأنه يأتي من أعماق غور عميق. فتح عينيه، فصدمه ألم شديد في رأسه، وشعر بحرقة في عينيه، وعندها فقط تنبه إلى أنه كان قد غفا بعض الوقت من دون أن يدري. تطلع في الوجوه المحيطة به فلم ير غير الذهول الذي كان قد أوشك على الاعتياد عليه في الأسابيع الأخيرة. كان سقم النقاش ولا جدوى الاتفاق أو الخلاف قد برح بهم، فآثروا الصمت. قال له كريم التقي بصوت بدا فيه التعاطف واضحا :

ـ أما آن لك يا إبراهيم أن تذهب لتنال قسطا من الراحة إذ يبدو وكأنك لم تنم منذ دهور، هيا ارحم نفسك فحديثنا هذا لن ينتهي أبدا.

فقال السرمد:

ـ أنام، ومن الذي يستطيع النوم، بل من الذي يجرؤ على مواجهة شياطين الأفكار وغيلان الصور التي تنهال عليه ما أن يغمض عينيه عندما يصبح تحت رحمة فراشه، وحيدا.

قال التقي:

ـ هيا أيها المتصابي، فقد بلغت من الكبر عتيا، ولن تستطيع أن تحتمل عناء السهر كما كنت تفعل من قبل، ثم، يجب عليك أن تحافظ على صحتك لكي تكون جاهزا عندما يحين الأوان.

ـ أوان ماذا.

ـ أوان الجهاد بالطبع، و إلا، ألا تعتقد مثلي بأن هؤلاء الكفار يجب أن يقتلوا لأنهم تجرؤا على تدنيس أرضنا بعدما ناصبوا ديننا العداء جهارا.

كان هذا السؤال هو آخر ما يريد إبراهيم سماعه من كريم التقي فشعر بانزعاج لكنه عرف بأنه يجب أن يجيب فقال:

ـ أولا الأمر ليس صراع أديان كما تتصور، بل هو بكل بساطة تحقيق مصالح لأن الإقتصاد هو محرك كل شيء في هذه الدنيا العجيبة.

فقال التقي معترضا:

ـ ولكن عداءهم لديننا كان واضحا منذ قرون وهذا شيء لا يمكن إنكاره.

ـ نعم ، ولكنهم انتصروا منذ زمن بعيد .

انتفض كريم بعنف وقال :

ـ ما هذا الكلام يا سرمدي، هم لم ولن ينتصروا على ديننا ، هذا شيء مستحيل.

عرف إبراهيم أنه قد أخطأ التعبير فقال :

ـ عذرا يا تقي ولكني قصدت أنهم هزموا الموحدين لا دينهم نفسه ، ألا ترى معي أننا يجب أن نفرق بين التوحيد نفسه والموحدين.

تجاهل كريم التقي السؤال وقال وقد احمر وجهه من الغضب والضيق:

ـ بل سنهزم هذا الحلف الظالم الذي قام ضدنا ، في النهاية .

فصاح السرمد :

ـ ولكن متى، ألم تفهموا بعد ، سقوط المزاغة إنما كان سقوطا للديرة وللقبيلة العمورية والموحدين، بل للدائحة برمتها ، فمتى نحقق هذا النصر المزعوم .

تطلع كريم التقي إلى وجه إبراهيم بدهشة في حين قال سلام المرهون:

ـ ما هذا يا عم ، أشم رائحة تخاذل غريبة منك، هل هزمك مالك.

ابتسم له السرمد بحزن وقال :

ـ لا يا سلام ، فلا أحد يستطيع فرض الهزيمة على أحد ، بل هي تفرض نفسها من الداخل، ونحن لم يهزمنا مالك، ولكننا فرضنا الهزيمة على أنفسنا . أما الذي فرضه علي مالك فهو أزمة أخلاقية .

قال سلام المرهون:

ـ أزمة أخلاقية؟!

في نفس الوقت الذي قال فيه المازني:

ـ ولكن كيف كان بامكاننا الصمود أمام قوة مالك الهائلة وأسلحته الجبارة.

فألتفت السرمد إلى المازني أولا ليقول له:

ـ كنت خائفا من الموت إذا يا مسكين، ولكن الموت أهون من الذي سيحدث بعد حين.

ثم التفت إلى المرهون من دون أن يكترث لتهيؤ مازن للرد عليه وقال:

ـ نعم أزمة أخلاقية، فأنا لا أؤمن أبدا بوجود فكرة أو مبدأ يمكن أن يقتل إنسان من أجلها لأن حياة الإنسان نفسه هي أسمى المبادئ فالرب خلقه ليعيش وليس من حق أحد أن يحرمه منها.

فقال بهلول المدلول:

ـ ولكن هناك قيم في حياة الإنسان يجب أن يكون عنده الاستعداد،

فقاطعه السرمد قائلا:

ـ دعني أكمل ما أريد قوله أولا ثم اعترض يا بهلول، أنا قلت لا أؤمن، ولم أقل بأن هذا هو ما يجب أن يكون حال الجميع عليه، ثم قبل أن أسترسل يجب أن نتفق على الفصل ما بين مالك والمالكيين،

فقال كريم التقي:

ـ ولكنهم كفرة جميعا.

فيما قال المازني:

ـ ونساءهم خليعات العذار ودانيات الأوطار.

فصاح السرمد بغضب:

ـ تبا لك، هلا سكت قليلا.

فاجأ القول المازني الذي لم يتوقع هذا التهجم من خصمه فألجم لسانه، في حين ارتبك السرمد وقال بعد قليل فيما يشبه الاعتذار:

ـ لم تثير غضبي بتدخلاتك هذه، ثم أنا لا أرى أنهم كفرة، بل لديهم دينهم الذي به يؤمنون، أما عن خلع العذار فمتى كان هذا موجبا للقتل، ثم، ألم تكن ممتنا قبل قليل لمالك لأنه أنقذك من عنترة، فمالي أراك توافق الآن على قتل جنده. وعلى كل حال فبالنسبة لي، المالكيون هم غير مالك نفسه، ولن أفرض هذا عليكم أبدا فهلا تركتموني لأكمل ما أريد قوله.

في تلك اللحظة انقطع التيار الكهربائي مرة أخرى فصاح المازني:

ـ تبا للعواهر اللواتي أنجبتكم، أبهذه السرعة؟!

فقال السرمد على الفور معقبا:

- لا فض فوك يا مازني، فقد حرمونا حتى من لذة الإستماع إلى الموسيقا التي لا تحلو إلا مع سكون الليل.

فقال المازني وقد بان التعجب على وجهه"

- موسيقا، أنت تستمع إلى الموسيقا!

فرد السرمد وهو يبتسم:

- ولم لا أستمع إليها.. ثم أني لا أستمع إليها لكي أرقص كما قد تفعل أنت وأمثالك.

فسارع المازني للقول:

- فلم تستمع إليها، يا..

ولكنه لم يجرؤ على إكمال عبارته، فقال السرمد:

- يا ماذا؟ يا مازني، هيا قل.

فتضاحك المازني وقال:

- كلا يا عم، لم أقصد شيئا سيئا، ولكن قل لي، لم تستمع إلى الموسيقا؟

فقال السرمد بجد:

- الموسيقا عالم رائع، ومجرد الإستماع إليها يكفي، ومع ذلك فقد بدأت مؤخرا تتداعى بي إلى آفاق لم أعهدها من قبل، بدأت تكشف أمامي الكثير من الحقائق التي كانت خافية عني، هدتني إلى خيوط إذا ما جمعتها فإني..

ولكن المازني قاطعه ممازحا:

- الله، هيا زدنا من علمك يا فيلسوف.

فأدرك السرمد في حينها أن الحديث عن الموسيقا لا يتلاءم مع هذا المازني.. قرر أن يبدل الموضوع فقال محاولا اللحاق بخيوط حديثه السابق التي كادت أن تفلت منه:

ـ إن كنتم لا تعرفون فأنا أعتبر أن القتل... ولكن ما هذا؟ فقد قلت لكم رأيي في القتل.

ثم سكت ليعيد ترتيب أفكاره قبل أن يتابع فطافت في ذاكرته صور أبت إلا أن تفرض نفسها عليه، استغرقه التفكير بها بعض الوقت ثم قال:

ـ لقد كان ذلك... كانوا قد حاصرونا خلال معركة من المعارك، وكان الخناق يزداد ضيقا علينا في كل حين وكانت قوانا تخور بالتدريج ورفاقنا يتساقطون على مدار الساعة فيما أخذت ذخيرتنا تنفد، في ذلك الظرف العصيب نصب الأعداء رشاشاتهم على بعد ما يقرب من

المائة متر وراحت تصلينا بوابل من الرصاص يجعل من محاولة تسلق أي منا للساتر الترابي المحيط بنا انتحارا، وعندها شعرت بغضب شديد، عندما اختلط مع خوفي من الفناء الذي كان يزداد يقينا بالتدريج انقلب إلى نزق واستهتار جعلاني أقرر أن أصعد العجلة التي تحمل مدفعي إلى أعلى الساتر، وأن أمتطي صهوته بدون وجل لأسدده نحو وميض الرصاصات المنهالة علينا، وبعدما ضغطت، وانقشعت غلالة التراب التي خلفها الانفجار، لاحظت أن الوميض لم يعاود الظهور هناك فشعرت بفرح وحشي لأن القنبلة كانت مصممة ضد الدبابات، ولكم أن تتصوروا ما الذي فعلته بجسد الشخص الذي كان ممددا خلف الرشاشة لحظة انفجارها لأن الإصابة كانت في الصميم، أدرت المدفع بسرعة باتجاه الرشاشة الثانية وكررت ما فعلته في المرة الأولى لأني كنت راميا ماهرا لعينا. أدرت المدفع مرة أخرى وأنا أزداد كراهية لهؤلاء الذين كانوا يستهدفونني من دون ذنب أقترفه، إصابة ثالثة موفقة إلى درجة لعينة، كنت أشعر في حينها وكأني في سباق مع الزمن لأني كنت أريد أن أتخلص من هذه الرشاشات الكائنة أمامي بأقصى سرعة لكي أنتقل إلى جهة أخرى وأطهرها من رجس هؤلاء المجرمين. ولكني، ومع إنطلاق القنبلة الرابعة، سمعت صرخة هائلة... صرخة أتت من خلفي، جمد الدم في عروقي، فقد كانت كصرخة امرأة تعاني الطلق، أقسم لكم أنها كانت كذلك. نسيت القنبلة التي كنت قد أطلقتها للتو فلم أتبين مدى دقة إصابتها بل أدرت رأسي ببطء وأنا أتمنى أن تكون تلك الصرخة مجرد وهم سمعي، ولكن، كان ثمة وجه تفور منه الدماء، نعم، تفور منه الدماء وكانت العيون المرعوبة حد الموت تتطلع إلي بألم وحنق، أدركت ما حدث على الفور لأنه كان واحدا من مخاوفي طوال الوقت فقد كانت للمدفع هبة خلفية

محرقة تجعل من الخطر أن يكون هناك أحد خلفه لحظة إطلاق القنبلة، كان التنبه لخلو تلك المنطقة من الأفراد مهمة بقية أفراد مفرزتي، ولكني بتعجلي وأوامري الغاضبة نقلت توتري وهيجاني إليهم فجعلهم هذا لا ينتبهون إلى هذا المسكين الذي شاء حظه العاثر أن يمر من خلف المدفع في تلك اللحظة بالذات، صرخت بصوت بح من ألم وإنفعال بصحبي أن يأخذوه إلى المفرزة الطبية على الفور، وما أن امتدت إليه الأيادي حتى انهالت دموعي مدرارا فرحت أبكي كما لم أبك من قبل قط، بعدها لم ألمس المدفع مرة ثانية، أخذت بندقية وارتميت على الساتر الترابي لأصد المهاجمين، لاحظت أن حقدي عليهم كان قد اختفى تقريبا، كنت أرمي للإخافة، لا للإصابة، وساعدني على ذلك أني لم أكن أراهم في تلك اللحظات لأنهم كانوا قد كمنوا هم أيضا في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض علينا الانقضاضة الأخيرة.

سكت إبراهيم وتطلع في الوجوه المحيطة به فرأى فيها ما يدل على اهتمام بما يقول، فقال متابعا:

ـ خسرنا تلك المعركة لكني نجوت منها بأعجوبة لمجرد أن الوقت لم يكن قد حان، أقصد وقتي أنا، ولكن التناقض المعيب الذي عبرت عنه بمشاعري المتناقضة حول موت الناس لمجرد انتمائهم المكاني أو السياسي أقض مضجعي وقتا طويلا وكان هذا هو السبب في التداعيات الفكرية التي لم تتوقف فيما بعد حتى آمنت نهائيا أن البشر يجب أن لا يقتل من أجل فكرة يؤمن بها أو عقيدة يأمل منها خيرا.

صاح كريم التقي بتعجب واعتراض:

ـ مه يا ابن السرمدي أتريد القول أنه يجب أن لا نقاوم الاحتلال.

ضحك إبراهيم وقال رغم شعوره بالضيق والإحراج:

ـ كلا يا تقي بل أنا أصرح ببعض ما أؤمن به وهذا لا يحجر حرية الآخرين في اختيار ما يريدون من مواقف، فالأمر كله متعلق بالشخصيات التي هي حقيقتنا كأفراد ولكل شخصية اختيار ما تريد. هيا يا تقي، فأنا أعرفك جيدا، وأعرف طيبة قلبك ومقدار الرحمة التي تسكن فيه، قل لي، هل دنا منك جنود مالك؟ هل وجهوا لك كلاما. ألاحظت تلعثمهم وارتباكهم. أرأيت وجوههم البيض التي اختلط فيها الخجل بالخوف. هلا قارنت هذا بما سمعناه من قصص مرعبة لما فعله بعض السفهاء منا عندما دخل جيشنا " الحصينية "، بل دعك من هذا وقل لي أتستطيع أن توجه سلاحك إلى هذا الذي يكاد يكون ابنا لك بعمره الصغير وتقتله وأنت تتطلع إلى وجهه، أنا أتحداك أن تفعل لأنك لن تستطيع.

سكت وراح يتابع بقلق ما قد يبدو على وجه كريم الذي كان يحبه كثيرا، من انفعالات، ولكنه تذكر شيئا فجأة فقال:

ـ ثم إذا كنتم تريدون المقاومة، فلم تركتموهم يدخلون أساسا.

لم يجب كريم التقي، ولكن مازن قال باعتراض:

ـ أكنت تريد منا أن ندافع عن عنترة المجنون إذا، بعدما فعله بنا؟

فقال السرمد بضجر:

ـ عجبا يا مازن، ألا تشعر بالضيق من تكرار الكلمات، أم أنت لا تسمع أساسا.

ـ بل أسمع،

ـ لا والله لا تسمع، بل معظمنا لا يفعل لأننا عندما نتناقش لا نصغي للآخر، بل ننتظره حتى يكمل كلامه، هذا إذا فعلنا ذلك، لكي نصر بعدها على آرائنا التي لا يمكن أن تكون خاطئة.

ـ إذا كانت صحيحة، فلم لا نصر عليها.

- هذا إذا كانت صحيحة.
- ولكن من يمتلك الحكمة يعرف.

ـ وهل ترى يا مسكين أننا نمتلكها، لو كنا كذلك لما وصلنا إلى الدرك الذي نجد أنفسنا الآن فيه.

فقال المدلول بتعجب:

ـ ولكني أراك مجحفا بحق أبناء جلدتك يا عم إبراهيم.

فقال إبراهيم بحزن:

ـ أنا أتكلم بأقصى ما أستطيع من صدق ولك أن تأخذ بكلامي أو لا تأخذ به.

ـ ولكنك يمكن أن تكون على خطأ فيما تذهب إليه من آراء، هل أخذت هذا بعين الاعتبار.

ـ أنا لا أريد أن أجيب، ولكن هل فعلت أنت، قبل أن تجيب أريد أن أقول أني أشك بأنك قد فعلت والسبب بسيط،لأننا لم نتعود ذلك فنحن متطرفون، والأسوأ من ذلك متخلفون.

- ولكن هذا رأيك أنت.
- نعم.
- ولكن هنالك آراء أخرى.
- فهل يعني هذا أني على خطأ.

لم يحر المدلول هذه المرة جوابا ، فقال السرمد :
- يجب ان تعرف يا بهلول أني قد أخالفك في الرأي، ولكن هذا لا يعني أبدا أني على حق، بل هو يعني، أنك يمكن، وأكرر، يمكن، أن تكون على خطأ .
سكت السرمد بعد ذلك قليلا، قبل أن يقول متابعا :

- أتعرف يا مدلول ما قد يحدث إذا تطرف المتخلف. صدقني إذا ما قلت أنه لن يكون هناك غير الكوارث، وها أنتذا ترى هذا الزلزال الذي قلب حياتنا رأسا على عقب.

كان سعد الجريو قد دنا منهم خلال انغماسهم في النقاش فلم يشعروا به إلا وهو يقول:

ـ ولكن هذا الزلزال كان بسبب عنترة الملعون.

فرد الحالم على الفور قائلا:

ـ ألا بئس هذا العنترة الذي لا يريد أن يتركنا لشأننا ، لقد رحل عنترة فما لكم لا تستطيعون امتلاك أمركم من بعده، ولكن، مهلا، مهلا، من هذا الذي يتكلم ؟ سعد الجريو، هيا اذهب فأنت بحاجة للمشاركة في نقاش اقتصادي لكي تعرف ثمن الأشياء التي لا بد أن تكون تريد بيعها الآن.

ألجم لسان الجريو ولم يعرف بم يجيب للرد على هذا الهجوم غير المتوقع من ابن السرمد ، ولكنه حينما سمع كريم التقي يقول بغضب وانفعال:

ـ لا مكان لدينا للصوص.

صاح بغضب هو الآخر:

ـ من هو اللص يا كريم .

فقال إبراهيم بخبث:

ـ كان يقصدني أنا يا جريو.

ولكن الجريو قال بلا وعي منه:

ـ بل يقصدني أنا،

فقاطعه إبراهيم قائلا:

ـ وكيف عرفت أنه يقصدك أنت.

ومرة اخرى لم يحر سعد الجريو جوابا، فقال إبراهيم بهدوء:

ـ هيا يا جريو فأنت تعرف بأننا نعرف و لا داعي للأقنعة.

فقال سعد:

ـ ولكني لم أسرق بل كان ما أخذته حصتي.

فصاح التقي وهو لا يستطيع إخفاء غضبه:

ـ حصتك من ماذا يا سارق.

ـ حصتي من الذهب الذي كان يسرقه عنترة وأبناؤه، ألست أنا أيضا ابنا لهذه الديرة.

فقال إبراهيم بنفاد صبر:

ـ لقد سئمنا هذا الحديث، هيا يا ابن الجريو، فارقنا بسلام لأنك لن تسمع منا ما يسرك، بكل تأكيد.

غادر سعد الجريو المكان غاضبا مودعا بالنظرات المستهجنة فيما قال ابراهيم السرمد متسائلا":

- أنا لم أعد أعرف، أهي المزاغة أم المزاغة؟

فرد عليه كريم التقي قائلا"

- ما بك يا رجل؟ لقد كانت مزاغة طوال عمرها.

فضحك السرمد للتورية الواضحة التي قصدها التقي، ثم قال وهو يشير إلى الإتجاه الذي ذهب إليه الجريو:

- أنا أعرف، ولكني أتساءل فقط من أين أتتنا هذه الزيغان كلها.

فضج الجميع بالضحك هذه المرة، قبل أن يعقب ذلك فترة صمت قصيرة قطعها سلام المرهون بالقول:

ـ ولكني لم أفهم يا عم إبراهيم، إذا كنت ترى أننا يجب أن لا نقاوم الاحتلال فكيف سنسترد حريتنا.

بوغت إبراهيم بهذا السؤال لأنه كان غارقا في أفكاره الخاصة لحظتها فقال:

ـ ماذا، احتلال وحرية.

ثم سكت بعض الوقت قبل أن يقول بعد أن زفر زفرة حرى:

ـ أواه يا ابن المرهون، لقد تعودنا منذ قرون على ترك أخطائنا حتى تستفحل فتتعقد وتستحيل إلى مشاكل تستعصي على الحل وعندها فقط نبدأ بالبحث عن الحلول وليتنا نبحث في المكان الصحيح، فعم تريدني أن أحدثك الآن. المهم أني أعرف الآن مبدأ لا مجال للبس فيه، العنف لا يولد غير العنف، والذي يكسب جولات العنف هو الطرف الأقوى دائما، فهل ترانا الطرف الأقوى الآن.

فقال سلام باعتراض:

ـ ولكن مالك كان قد ركل خارج بلاد ابن الأصفر رغم قوته.

ـ نعم، ولكن ذلك كان قبل أن يحتل ويتمكن فلم لم تقاوموا، و لا تنسى أن ستار حديد كان موجودا وقويا

آنذاك ودعم ابن الأصفر، فأين منا حديد الآن، والأسوأ من ذلك، أتتصور أننا بضعفنا وفرقتنا وانشغالنا بأنانيتنا المقرفة نستطيع أن نصمد لقوة مالك ومكره.

قال سلام والارتباك ظاهر على وجهه:

ـ فما العمل إذا، أنرتضي الذل ونسكت.

ـ كلا ولكن نعمل بالممكن، فمثلا نستطيع أن نرفض التعاون مع الاحتلال وأن نحول الأمر بمرور الوقت إلى إضراب شامل يشل البلاد ويربك مخططات مالك من دون سفك دماء، فندحره مرتين، مرة لأنه سيتأكد من عجزه عن إدارة الديرة، وأخرى لأننا سنسقط بذلك مظهر الإرهاب الذي رسخه في بال الآخرين عنا.

فبان التعجب على وجه سلام وهو يقول:

ـ ولكننا نكون قد متنا جوعا حتى ذلك الوقت.

فصاح إبراهيم السرمد بغضب قائلا:

ـ عجبا لكم بني سودة، تريدون كل شيء من دون مقابل.

ولكنه سرعان ما تمالك نفسه لأنه كان قد ضجر من عصبيته التي كانت تفسد عليه مراميه دائما وتبعد عنه مستمعيه في الوقت الذي كان يريد أن يمتلك فيه أسماعهم وألبابهم عسى أن تفيد الكلمة، فقال وهو يحاول أن يسيطر على نفسه:

ـ أولا، أنا تحدثت عما أرتئيه من حلول، ولكن اطمئن لأن هذا لن يحدث ما دام كل منا ينوء بأنانيته وتغشى بصيرته ضيق مصالحه ومع ذلك نطالب بكل ما يحق لنا أو حتى ما لا يحق.

فقال المرهون:

ـ ولكن أليس من حقنا أن نعيش بسلام آمنين و أن ننعم بخيرات ديرتنا .

ـ ومن الذي سيدعك تفعل ذلك، مالك الجامح؟ أم مختار الخبيث؟ ألا ترى أن كل من حولك طامعون و هم يلعبون بالأوراق التي يمتلكون، تصور، حتى مبارك أبو الليل، الحصيني الصغير، طامع بك، أبعد كل هذا تريد أن تعيش بسلام .

قال مازن فجأة بعد أن لم يعد بامكانه السكوت:

ـ ولكننا كنا نحن من اعتدى على الحصيني و الحصينية .

ـ نعم، ولكن ألم يكفه ما حدث لنا طوال السنين التي مضت، أكان يجب أن ينتقم بتلك الطريقة الحقيرة. لم لم يفكر أنه ورغم مرارة ما حدث لهم على أيدي أبنائها فإن سودة تبقى أختا للحصينية وخالة لأبنائه؟ ولكنه لم يستطع أن ينسى قط شعوره بالمهانة لأنه نسى سرواله الداخلي و هو في غمرة عجلته للبس ملابسه بعد أن أنذر باجتياح قوات عنترة لديرته و هو في غمرة لقاء عاطفي حار، فوصل ديرة "الخالة سعدية" بلا سروال، فأصر على الانتقام الذي وقع به على قرار ضياع ديرته التي وهبها له مالك زورا وبهتانا .

فقال سلام باستغراب:

ـ ولكن عنترة قد ذهب إلى غير رجعة، فمن الذي سيقوم بالأمر مرة أخرى.

ـ ألا تعرف أن في هذه الديرة آلاف العناترة الذين سيزيدهم الطمع و الحقد إصرارا على الانتقام .

ـ ولكن، هل سيقبل مالك بتكرار ما حدث.

ـ بل سيكون هو من يقدم هذه الهدية البسيطة إلى سودة عربون صداقة لأنها ستعود لتكون الأخت الأكبر لجاراتها الضعيفات كما كانت دائما قبل أن يغضب عليها مالك.

كان كريم التقي يتابع الحديث طوال الدقائق الأخيرة صامتا وهو يتمعن في وجه السرمد، وعندما صمت هذا، قال التقي بحزن:

ـ لا أراك فيما تقول إلا مسوغا لما تحسه من ضعف، وعجز عن مقارعة مالك وجنوده.

التفت إبراهيم بغضب إلى التقي وفتح فمه ليقول شيئا لولا أنه استدرك في اللحظة الأخيرة وبقى صامتا وهو يهز رأسه بأسى، انتظر الآخرون جوابه بترقب صامتين لأنهم شعروا أنه قد جرح، ولكن انتظارهم طال ولم يقل هو شيئا حتى بدأوا يتململون من الضيق والانزعاج، وفجأة، أدركوا من خلال الأصوات التي بدأ يصدرها من أنفه بسبب الدموع التي تسللت إليه، أنه كان يبكي بصمت، زاد شعورهم بالانزعاج، ولكن السرمد أنساهم شعورهم هذا عندما قال بهدوء بعدما استطاع أن يوقف فيض دموعه:

ـ يوميا، وفي ساعة متأخرة من الليل، يتسلل جنود مالك إلى شارعنا هذا في دوريات راجلة وقد تعودت أن أنتظرهم قريبا من الباب لكي أراهم من خلال ثقب فيه، لكي أشعر بوجودهم وأتأكد من واقعيته، أتمعن في وجوههم الحلوة وقد نفر الدم الذي إعتاد وجناتهم مقرا له، منها.

عندها قال المازني مقاطعا ومازحا:

ـ ما هذا يا عم إبراهيم؟ لم نعرفك من قبل شاذا.

فرد السرمدي بلا تردد :

ـ بل أبوك هو الشاذ و إني لأستغرب كيف أتيت أنت.

ضج الآخرون في الضحك في حين لم يجد المازني بدا من المشاركة بابتسامة مغتصبة لكي لا يبدو عليه الاقرار بالهزيمة، لم يعره الكهل اهتماما بل تابع قائلا:

ـ عندما لا أراهم، أوهم نفسي بأنهم غير موجودين في شوارع المزاغة، ولكني في كل ليلة أفجع بمرآهم، أفاجأ، فأشعر بمرارة الذل و الهوان، تتسارع أنفاسي ويؤلمني قلبي، بل اشعر وكأن مثقبا ما يغوص بنصله في أعماق صدري... هؤلاء الصبية ليسوا بقساة قط، ولكنهم موجودون بكل قسوة، أنا لا أخافهم، بل أشعر بخوفهم وارتباكهم، وهذا هو الفرق بيننا، فنحن لا نخاف الموت لأننا نشعر به وكأنه جزء من الحياة، بل نحن نطلبه لتوهب لنا الحياة، أو حياة من نوع آخر على الأقل، أو هكذا صور الأمر لنا، وسواء إن كان هذا صحيحا أم لا، لأننا بتنا نؤمن به، أما بالنسبة لهم، فالموت فناء، نهاية، ولذلك هو مخيف جدا، والأسوأ من ذلك أنه يأتي على أرض بعيدة وغريبة عنهم، ومن دون مبررات مقنعة لهم كأفراد، وعلى هذا كنت أراهن في بداية الحرب، أنا أدرك مدى تطور أسلحتهم وتفوقها على ما كان متاحا لنا، ولكني لم أزل متأكدا من أننا لو كنا قد قاتلنا كما يجب لما استطاعوا أن يهزمونا، ولكننا كنا مهزومين قبل أن تبدأ الحرب.

سكت فجأة لأن هدير محرك كان يتصاعد من حولهم حتى طغى على كل ما عداه من أصوات، بعد أن خف قال المدلول:

ـ ها هي يعاسيبهم الكريهة تنتهك سكينة لياليناوتذل صفوها ، ألا سحقا لهم .

قال السرمد وكأنه لم يسمع ما قاله المدلول للتو:

ـ ماذا لو كان ولدي فردا في جيش احتلال، وهذا أمر وارد مثلما تعرفون فنحن كنا كذلك في السابق، ماذا لو قتل ولدي، هل سأقول أن من قتله كان على حق لأنه كان محتلا. أنا أحتاج إلى وقت طويل للرد على الكثير من الأسئلة التي تطرق أبواب عقلي وأتبين موقفي من كل ما يحدث حولي من أحداث جسام ، ولكن حتى ذلك الوقت سأظل أعيش في خضم تناقضات كبيرة. تمنيت خلال الفترة المنصرمة لو كنت قد مت قبل أن أرى هذا ، وسأظل أتمناه أكثر لكني أعرف بأني لن أنتحر ، و ،

فجأة قاطعه مازن قائلا بتعاطف غير متوقع منه:

ـ هيا يا عم إبراهيم ، لا تجعل منها مأساة ، فوضعنا سيتحسـ،

فقاطعه إبراهيم قائلا بحزم:

ـ أسكت يا مازن، فأنت لا تعرف عم أتحدث، أنا أتحدث عن مشاعر وأنت تتحدث عن محسوسات ولذلك نحن لا نستطيع أن نتفاهم .

لكن مازن قال بغضب هذه المرة:

ـ إذا كنت على هذه الدرجة من الديروية فلم لم تقاتلهم قبل أن يدخلوا .

قال إبراهيم بهدوء:

ـ لأني جبنت كما قلت لك، لا لأني خفت الموت، ولكن لأني خفت الغدر بسبب تخاذل الآخرين، أتدري، لقد لاحظت أكثر من مرة خلال الحروب التي خضتها ، أن الكثيرين من

الجنود كانوا لا يقاتلون، بل كان جل همهم أن يبتعدوا عن القتال الحقيقي عندما تدور المعارك، وعندما تسألهم عن السبب، لم تكن الحيلة تنقصهم في تسويغ ما فعلوا... ولك فيما حدث في الحصينية مثلا.

قال مازن:

ـ أو لم يكونوا على حق فيما فعلوا، أم أنك صدقت أن طريق "المريمية" يمر بالحصينية.

ـ كلا لم أصدق لأني أعرف أفضل منك الفرق بين الغرب والجنوب رغم أن هذا الشعار لم يكن يقصد به الجهات، أما عن قول هؤلاء فلم يكن إلا كلام حق أريد به باطل تخاذلهم المعروف عنهم في معظم المنعطفات الرئيسية التي تعترض مسارهم التاريخي لأنهم عندما أتى مالك إلى عقر دارهم كانوا قد تهيأوا له بالأعذار التي تبرر تخاذلهم.

ـ ولكنها ليست بأعذار، بل أن سنوات العذاب التي عانوا منها على يد عنترة كانت حقيقة واقعة.

ـ نعم، ولكن هذه السنوات لم تكن مبررا لتسليم الديرة لقمة سائغة لمالك.

ـ بل كان من حقنا أن نتحالف مع الشيطان نفسه لإسقاط عنترة.

ـ وهو بالضبط ما فعلتموه، فكيف ستستردون ديرتكم من هذا الشيطان؟

ـ ومن قال لك أنه سيبقى.

فقال إبراهيم بحدة:

ـ هيا أيها السخيف، لا داعي للمراوغة فأنت تعرف جيدا أنه أتى ليبقى.

ـ في، في، هذه الحالة، نقاتله.

ـ مرحى، مرحى، عجزتم عن إزاحة نير عنترة القزم مثلما وصفتموه، عن أعناقكم، وها أنتم تهددون مالك العملاق.

فقال مازن بنفاد صبر:

ـ ثم لم نقاتله ما دام سينصفنا باعطائنا بعض واردات الذهب وهو ما لم يكن يفعله عنترة.

ـ ها قد بدأت تتحدث من دون ادعاءات وهذا أفضل بكثير، ولكن على ذكر العطاء، ألم تسأل نفسك لم يعطيك مالك، هذا إذا أعطاك بالفعل.

ـ ولكنه لا يعطينا إلا من أموالنا.

ـ ومتى كانت أموالكم يا مسكين، ألمجرد أن عروق الذهب وجدت في هذه الأرض، يصبح الذهب ملكا لكم؟ كلا لقد كان الذهب طوال الوقت ملكا لمالك وسيبقى كذلك حتى نفاده وإذا ما أعطاكم جزءا يسيرا منه فلتمرير ما لا يعلمه إلا الله من خطط ومشاريع رهيبة تجتث أصولكم من هذه الأرض التي لم تستطعوا أن تكونوا أبناء بارين لسودة، مالكتها.

فقال المدلول باستغراب:

ـ هيا يا عم إبراهيم فلا داعي لهذه السوداوية في النظرة للأمور.

ـ بل الأمر أسوأ مما أستطيع بيانه بكثير، ولكني الآن فقط أريد أن أعرف إن كان هذا المتحذلق المتفائل يعرف لم يعطيه مالك بعض ما يتصوره هو حقا له.

فقال مازن بتردد واضح:

ـ لأنه أحسن من عنترة بكثير.

ـ آه السبب إنساني إذا، أتريد أن أحدثك عن إنسانية مالك الحقيقية. أتريد أن أحدثك بما فعله بأبناء الصفراء والحمراء. أتريد أن أذكرك بإصراره على تجاهل ما يحدث لأبناء خالتنا مريم في المريمية كل يوم، ويسارع إلى إعلان الحرب على عنترة الذي لا يمتلك ولو عشر ما يمتلكه ابنه مختار، من سلاح ممنوع على الصغار، أتريد،

ـ هيا دع عنك هذا الحديث الذي لم نر منه إلا الحروب والمزيد من الهزائم.

ـ نعم، أنت على حق، دعنا منه ولنحاول أن نتفق على العموم من دون الدخول في التفاصيل التي قد نضيع فيها، يجب أن تعرفوا بأننا سنبقى نعاني من الهزيمة ما دامت تستقر في أعماقنا راسخة متينة بسبب الدرك الذي وصلنا إليه، تريدون أن تنتصروا ولو لمرة واحدة قبل أن يطويكم الفناء، انتصروا على أنفسكم أولا، ادحروا التخاذل الذي عشش فيها وحاربوا الضعف بالقضاء على أنانيتكم وقصر نظركم.

فقال بهلول المدلول وهو يبتسم:

ـ ما هذا يا عم إبراهيم، بدأت تتحدث مثلما كان المذياع في زمن عنترة يتحدث.

فقال إبراهيم من دون تردد:

ـ أتدري، لا أعرف إن كانوا صادقين فيما ادعوه وحشوا رؤوسنا به بواسطة إعلامهم طوال سنوات، ولكني أعرف أنه قد رسخ هناك وأصبح أفكارا ومبادئا لا يمكن أن نتنازل عنها بسهولة، لأن الباطل الذي هدفوا له لا ينتقص من الحق الذي تحمله هذه الإدعاءات، أفبعد تغير

الظروف فجأة وانقلاب القيم رأسا على عقب تصبح العمورية، تهمة، والعمالة، ديروية حقة، كلا، هذا أصعب من أن أستطيع هضمه بسهولة.

قال مازن:

ـ ولكن عنترة كان هو أول من أضر بالعمورية باحتلاله لديرة الخالة "حصينية".

فقال إبراهيم بنفاد صبر واضح:

ـ ألا تبا لعنترة هذا، ألم تفهم بعد أني أتكلم هنا عن قيم اعتبارية لا دخل للأشخاص فيها، أنا أتكلم عن القيم الغريبة التي ستهطل على رؤوسنا، وأحتسب لما سيفرض علينا من تغيير للقناعات، فما كان صحيحا حتى الآن سيكون خطأ بعد حين والعكس صحيح. أنا أعرف بأننا لسنا معنيين بهذا التغيير، ولكننا سنضطر لمعايشته فكيف سنمضي ما تبقى من حياتنا. هل المطلوب مني أن اقتنع بأن مالك قد ضحى بجنوده من أجل حريتنا وسعادتنا وأن مختار هو صديقنا الحقيقي الذي سيبعد عنا أذى أبناء خالاتنا العموريون الذين لا يريدون بنا إلا شرا.

سكت ابراهيم السرمد، وتطلع في وجه مازن مستطلعا تأثيرات حديثه فيه، ولكن ذلك الوجه لم يفصح عما يدور في وجدان صاحبه، فقال السرمد:

- قل لي يا مازن، اتصدق مالكا؟

- ولم لا أصدقه إذا كان قد صدق وعده لي.
- وبم وعدك.
- أن ينقذني من عنترة.
- ولكن لم ينقذك منه، أتتصور أنه فعل ذلك لمصلحتك.

-طبعا ، و إلا ما الذي يريده مني... الذهب، ولكنه يمتلكه بالفعل.

رنا إليه العم ابراهيم وقد بان الهلع و الحزن في عينيه ، ثم قال:

-لو كنت تعرفه على حقيقته لكان حريا بك أن تخاف منه خوفك من الموت نفسه.

فبان الاستغراب على وجه مازن و هو يقول:

-لكن، ما الذي يؤكد لك أني لا أعرفه.

-أتعرفه ، هه... حسنا ، قل لي، أتعرف شيئا عن اللنرية.

تحركت عينا مازن في محجريهما بسرعة فاضحة وبدا اضطرابه الناجم عن جهله بما سمع، ولكنه قال:

-اللنرية! ما هذه، أهي لعبة أخرى من ألاعيبك اللفظية.

ابتسم ابراهيم برقة قبل أن يقول مجيبا:

-كلا، بل هي فلسفة يؤمن بها مالك، ويطبقها منذ زمن طويل.

- ولكن، ما هي.

-حسنا ، بكل بساطة هي أن نؤمن بفكرة جديدة، ولكننا لا نعرف مدياتها التطبيقية، ولذلك نجربها على الأرض لنعرف افرازاتها وندرك اشكالاتها التطبيقية ومحاسنها ، اي "لنجربها ، ولنر ما سيحدث"

فقال مازن وقد ارتسمت بسمة الواثق على شفتيه:

-ياللروعة ، ولكن، أليست هذه هي الطريقة الصحيحة لمعرفة الأشياء... التجريب.

-نعم ، صحيحة بالمبدأ ، ولكن أتعرف، عندما تكون اللنرية وسيلة لفيلسوف فإنه سيحرص على تجريب أية فكرة جديدة على نفسه ليجنب الناس شرور افرازاتها المحتملة ، ثم يعممها بعد ذلك على الآخرين ، أما عندما تكون مبدأ سياسيا فإن هؤلاء يحرصون على تطبيقها على الآخرين ، قبل أن يستثمروا افرازاتها الايجابية لصالح أنفسهم .

حل صمت ثقيل بينهم فبدوا وكأنهم قد إكتفوا بنقاشات لم تجدهم نفعا يوما ما ... حاول سلام المرهون ، الذي كان قد لاحظ حديث ابراهيم السرمد عن مشاركة ولد له ، لم يوجد أصلا ، في القتال ! أن يدير دفة الحديث باتجاه مواضيع أخرى ، فقال متسائلا :

ـ لكن لماذا لم تتزوج يا عم إبراهيم ؟!

رنا إليه إبراهيم لوهلة قبل أن يقول بلهجة لم يحاول أن يخفي نبرة السخرية فيها :

ـ لم أفعل لأني لم أود أن أقضي بقية عمري وأنا أتساءل عن عفة زوجتي وإن كانت قد حصنت فرجها من أجلي .

فصاح التقي مرتاعا :

ـ إتق الله يا رجل !

فرد إبراهيم على الفور وبحدة :

ـ بل إتق الله أنت في نفسك ، أليس هذا هو ما يزعجكم طوال الوقت؟ أتستطيع أن تنكر إن هذا السؤال هو الذي يقض مضجعك كلما أسلمت رأسك إلى الوسادة إلى جانب...

ولكنه سرعان ما سكت بعد أن تمالك نفسه ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطب فيها التقي بهذه

اللهجة الجارحة، اضطرب لحظات ولم يعد يعرف ما يريد قوله، أراد أن يعتذر ولكنه شعر و كأن أوان الاعتذار قد فات، ولذلك التفت بوجهه إلى المرهون ليوجه له الكلام قائلا:

ـ تلك هي مأساتكم فأنتم تؤكدون لأنفسكم وللآخرين عفة نسائكم طوال الوقت ولكنكم في قرارة أنفسكم لستم متأكدين من صحة إدعاءاتكم، والعجيب في الأمر أن الطرف المرشح للخيانة عمليا هم الرجال دائما، وإن زنت المرأة فيكون لها مسوغاتها التي تلقي بالذنب على الرجل في معظم الحالات، فهلا، هلا،

سكت فجأة لأنه أدرك أنه قد نسى ما أراد أن يقوله، لكن عقله الذي كان يدور بسرعة عجيبة في تلك اللحظات أسعفه بما يمكن أن يواصل به كلامه، أو هجومه بالأحرى، فقال:

ـ ثم كيف تريدني أن أربي أطفالي في مثل هذا المجتمع الذي سيعجز بكل تأكيد عن توفير ما يحتاجونه منه لأنه مجتمع متخلف، وحتى اذا ما استطعت أن أنشئهم النشأة التي ابتغي، فإنه بقيمه البالية سيظل يسحبهم، ورغما عني إلى درك بغيض.

لم يتأكد في حينها إذا ما كان محقا فيما قال، أم لا، فتابع وهو متأرجح ما بين الجد والهزل ليتخلص من الموضوع:

ـ ثم لم الزواج وأنا عقيم.

فصاح المازني وهو لا يكاد يصدق أذنيه:

ـ لكن كيف عرفت أنك عقيم وأنت لم تتزوج.

فقال السرمدي من دون تردد:

- لو لم أكن كذلك، لكنت أنت تشبهني الآن.

فضج الجمع بالضحك إلا المازني الذي دارى غضبه بابتسامة مغتصبة، لاحظها السرمد فأردف قائلا:

- عذرا يا مازني، ولكني لم أقصد بالعقم هنا المعنى المتداول.

فبش وجه المازني للطف السرمد غير المتوقع، وقال:

- ومع ذلك، فانا لا أعرف كيف تدمغ نفسك بتهمة العقم.

فرد ابراهيم مستغربا:

- ولكن لم جعلتها تهمة، فهي حتى بمعناها الفعلي لا تعد سبة ولا تهمة، بل هي أمر طبيعي قد يحدث لأي شخص.

ثم سكت قبل أن يتابع قائلا:

- إن الأمر يتعلق بشخصية الإنسان وفكره، لا بقدرته على الإنجاب، هذه هي سودة وقد أنجبت كل أولئك الأبناء، ما الذي قدمته لهم، ولنفسها.

فتساءل عندها بهلول المدلول قائلا:

ـ لكن أين هي سودة الآن.

فقال ابراهيم بحزن:

ـ هي موجودة ولكنكم لا ترونها.

فرد المرهون ضاحكا:

ـ أتعني أنها أصبحت غير مرئية بعدما حدث لها.

ـ بل كانت دائما غير مرئية لأنها تستمد وجودها من أحضان عشاقها لا من كينونتها هي، فإن كان زوجها قويا

بدت لكم وكأنها ملء الأعين، أما إذا لم يكن كذلك، أو عجزت هي ولو لبعض الوقت عن إيجاد زوج أو عشيق فإنها تصبح شبح سودة، لا سودة نفسها.

تطلعت إليه الأعين بدهشة ولكن أحدا لم يجرؤ على الاستفسار عن هذه الأحجية التي يسمعها لأنهم كانوا يعرفون بنوبات العم ابراهيم التي لا يعرفون إن كانت مزاحا أو رقصا من ألم. ولكن المدلول قال بعد حين ممازحا:

ـ لكن، ألم تحبها يوما أنت يا عم ابراهيم، فهي في النهاية غادة فاتنة، وأنت تحب النساء.

إلتفت إليه إبراهيم ليتمعن قليلا في وجهه قبل أن يقول مبتسما:

ـ أكذب لو أنكرت أنها كانت رفيقة لبعض أحلامي عندما كنت شابا، ولكن لم المكابرة فأنا لا قبل لي بشبقها فهي كثيرة المتطلبات في، في، أنتم تعرفون.

ثم سكت لوهلة قبل أن يقول موجها كلامه إلى المدلول:

ـ ثم من أين أتيت بفكرة حبي للنساء هذه.

فأجاب المرهون قائلا:

- هيا أيها الشيخ المخادع، أتعتقد أننا لم نلاحظ الجوع الذي يطل من عينيك كلما مرت بك إمرأة جميلة.

فأغرق السرمد في الضحك، ولكنه لم يرد هذه المرة.

كان كريم التقي قد إلتزم جانب الصمت منذ أن خاطبه السرمد بتلك اللهجة الجارحة، رغم أنه بقي

يتواصل مع الحديث بهزات آلية من رأسه... لاحظ إبراهيم ذلك، فقال بصوت هذبته الرغبة في الإعتذار:

- هيا يا تقي، هل من المعقول أن يغضب مثلك من سفيه مثلي... هيا يا رجل، أنا أحبك أكثر مما تتصور والله.

فقال كريم التقي وقد إنفرجت أساريره:

- وأنا أعرف ذلك، ولولاه لكنت مسحت بك الأرض أيها اللعين.

فعم الضحك الجمع، وتقافزت التعليقات اللاذعة لفترة من الوقت، قبل أن يتابع التقي كلامه وقد بانت على وجهه علامات الجدية، قائلا:

- أنا فقط أحزن لأنك لم تهتد بعد إلى نعمة الإيمان.

فقال السرمد على الفور:

- لا يا تقي، دعنا من حديث الدين وشجونه الآن.

فقال التقي مصرا على موقفه:

- بل الآن هو وقته، وفي كل أوان. متى تتوب يا رجل، بل متى يتوب عليك الله وتبدأ بتأدية واجبات مذهبك. أنا أعرفك جيدا، وأدرك أنك صنف ممتاز من الرجال، ولكني لا أستطيع إلا أن اتوجع لك بسبب ضلالك عن طريق الدين. يا لله يا رجل لو ذهبت إلى الوادي المقدس، ودخلت النفق الذي حفره ابونا جويزع بيده في تلك الأرض الطاهرة. والله سترى هناك عالما، كل ذرة فيه تعتبر شاهدة على وجود ذلك الخالق الذي تنكر وجوده. تصور أنه في ذلك الزمن الموغل في القدم إستخدم معدنا من نوع غريب عن الدائحة. أنا لا يهمني معرفة نوعيته، ولكن الذي

يهمني هو كيف طوعه جويزع وكيف إعطاه تلك الأشكال الهندسية المتسقة التي لا بد أن تعني شيئا حتى إذا ما عجزنا عن فهم ماهيته. تصور، معدن مطوع أشكالا، كيف كان يمكن لجويزع أن يتصرف به لو لم يكن يمتلك علما إلهيا من نوع ما، أليس هذا دليل على عظمة الخالق. أليس هو درس لنا، أن يعطي عبده الذي نفاه عن جنته بسبب ألاعيب أمنا ليساء، ومع ذلك يتعهده برحمته ويعطيه علما نعجز لحد الآن عن إدراك حدوده، لا يجعله يتيه بل يأويه خير إيواء. وذلك الهمس، يا لله، يقولون أن الذي يسببه هو حركة الريح، أو حركة المياه الجوفية. والله لو لم أكن متأكدا أنهم لم يكونوا يمتلكون في ذلك الوقت أجهزة تسجيل، لأقسمت أنه صوت أبينا جويزع.

فقال السرمد وهو يبتسم:

- ومن قال لك أنهم لم يكونوا يمتلكونها.

فقال التقي متابعا كلامه:

- هيا يا رجل، دع عنك المزاح الآن، والله لو أنصت ثواني لذلك الصوت المهيب لشعرت أن شخصا ما يحدثك، أو لعله يحكي قصة ما. آه، لقد إقشعر شعر جسدي وأنا أستعيد الآن ذكرى تلك الأيام العظيمة التي قضيتها في تلك الربوع المباركة، و أنا،

ولكن بهلول المدلول قاطعه فجأة وهو يتساءل:

- من هذا.

فإلتفت الجميع إلى حيث كان يتطلع، فرأوا رجلا يبدو وكأنه عملاق يتسلل من خلال حجب الظلام، متجها نحوهم.

الإبل

ما هذا؟ أين أنا... ما الذي حدث، ومن هذا الممدد على الأرض، ما له يبدو وكأنه يقبل الأرض وقد كشف عن مؤخرته، أمر عجيب، ولكن ما هذا الشئ الذي يبرز من... إف، مابه هذا المأفون، امريض هو، أم أنه فقد الوعي فجأة وهو يقضي حاجته، فهو في الحمام كما يبدو... و هذا الحمام يشبه... يا للشيطان، بل هو حمامي، حمامي أنا، وهذا الملقي على الأرض يلبس قميصي، قميصي أنا، وذاك هو سروالي الأزرق العالق عند ركبتيه، كاشفا عن مؤخرته... ما هذا، أهو حلم، ولكن هذا مستحيل فهو لا يبدو كذلك... هذا ليس حلما بكل تأكيد... رباه كيف يمكن أن افهم هذا... أهو أنا، إن كان كذلك، فمن أكون، إذ لا يعقل أن يرى أحد نفسه إلا في المرآة، ولا مرآة هنا... أنا أراه كما أرى الآخرين... بل أنا أرى إسته وتلك القاذورات فيه، إذا هو ليس أنا... ولكن ماذا يفعل في حمامي وقد لبس ملابسي... على كل حال هو لا يتحرك... اهو ميت، أم فاقد للوعي... بل هو ميت، هذا واضح... ولكن كيف يكون ميتا إذا ما كان هو... أنا! ... أنا... هو... الميت! مستحيل، إذا كنت ميتا، فمن هو الذي يتساءل، أيتساءل الموتى، ويفكرون... وأنت... مالك تقف هكذا صامتا، الا ترى حيرتي، فهلا ساعدتني... اجعلني أفهم هذا الذي أراه... ما لك تصر على الصمت وكأنك فقدت لسانك... وما هذه الابتسامة المرتسمة على شفتيك... يا لها من ابتسامة عذبة... رباه، أي وجه هذا... أيعقل أن تكون بشرا، أنا لم أر وجها بهذا الجمال من قبل... هل أنت رجل أم امرأة، أنا لا أستطيع أن أعرف ما تكون... من أنت، ما الذي حدث... لعنك الله لم تصر على الصمت... قل شيئا... ساعدني... آه، ذلك واحد آخر... ولكن، لكم يشبه هذا الأخرس... وذاك آخر...

وآخر... وآخر... من أين تظهرون يا ترى، والعجيب أنهم جميعا... متشابهون! أوه لا، هذا حلم، مستحيل أن يكون حقيقة، ولكن اي نوع من الأحلام هو هذا... وهذا الوعي، والطريقة التي يشتغل بها عقلي في هذه اللحظات تجعل من احتمال أن يكون هذا حلما، أمرا بعيد الاحتمال... ولكن كيف يمكن أن أفهم هذا الذي أمامي... ذلك الممدد نصف عار على أرض حمامي، نعم حمامي، فتلك المنشفة المعلقة هي منشفتي، فأنا أعرفها... وتلك المخلوقات الجميلة تحيط بي وقد ارتسمت على شفاهها ابتسامات رائعة... إنها، ابتسامات تعاطف كما يبدو... بل هو تعاطف وموجه لي بالذات فهم جميعا ينظرون باتجاهي، ولكن، لم التعاطف... لم التعاطف؟! أليس ذلك واضح... حمامي... منشفتي... قميصي، سروالي... وذلك الغارق في خرائه، وهؤلاء من حولي، والتعاطف... ماذا، أيعقل هذا... رباه، أهو كابوس، ولكن أي كابوس هذا أبطاله مخلوقات بهذه الروعة... ايعقل هذا، أيمكن أن أكون قد... لا، هذا مستحيل، فما بعد الموت غير العدم... أهذا عدم... لا هو ليس بعدم فكل هذه الصور من حولي لا يمكن تجاوزها، هي موجودة وهذا يعني أني موجود... ولكن هذا الخراء، هو يلبس ملابسي وقد سكنت حركته، همد، لا بد وأن يكون قد فطس... واذا ما كان هو أ... أيعقل هذا... أيمكن أن أكون قد... مت! كيف، ومتى، ولماذا؟!

آآآآه لقد تذكرت، كان الأطباء قد حذروني من ذلك، حذروني من أن أستعجل امعائي إذا ما قررت أن تتريث في الجود بعصارتها! أمروني أن لا أعتصر نفسي وأن أكون صبورا عند قضاء حاجتي، حذروني من ذلك بعد أن أصاب المرض قلبي و شرايييني لأول مرة... لقد تذكرت الآن، في هذا الصباح عندما دخلت الحمام، كنت متوترا

جدا فاضجرني انتظار أن تجود أمعائي بنفاياتها... فعصرت! نعم، نعم، لقد تذكرت أكثر الآن، تذكرت ذلك الألم الهائل الذي شعرت به في صدري، في منتصف صدري بالضبط، وبعدها... ما الذي حدث بعدها؟ أنا لا أذكر! ولكن، ايعقل أن يتم الأمر بهذه السرعة، بهذه السهولة... أية سهولة أيها المأفون، اتسمي هذه الكارثة سهولة... ألا ترى نفسك وأنت في وضع لا تستطيع أن تتمناه لعدوك... رباه، أية ميتة هذه، هل أردت أن تفضحني في ميتتي بعد أن كنت تستر علي حتى عندما كنت أخطأ أحيانا وأستحق الفضيحة، فأية حكمة هذه، وما مغزى هذا الذي قضيت؟! ترى، ما الذي سيقوله الرفاق... آه يا تقي، أنا أعرف أنك ستبكيني بحرقة ما بعدها حرقة، ليس فقط لأني مفارقك، بل لأني مت كافرا أيضا، وسيكون دليلك على كفري، هذه الميتة التي لا يمكن أن تشهدوا مثيلا لها يوميا... ستتأكد يا عبد الكريم، ولكن لا بأس يا كريم فأنا أعرفك وأحبك أنا الآخر وأعرف أنك تحبني رغم ضيقك بافكاري، أنا على يقين من أنك ستحزن علي بصدق، وسيزيد ألمك بسبب هذه الطريقة اللعينة للموت، أنا أعرف بانكم جميعا ستحزنون لأجلي... ما عدا ذلك المازني بالطبع... خسئت أيها السخيف، بل سيحزن هو الآخر، سيحزن كثيرا لأني أعرف أنه يحبني بطريقته الخاصة مثلما أحبه أنا، ورغم كل شئ... ولكن، مالي اتحدث هكذا وكأني مت فعلا، فهذا امر لا يتقبله عقل... أن يموت المرء، ثم يتصور كيف سيحزن عليه أصدقائه... ولكنك ميت أيها الغبي... ألم تفهم بعد، أما عرفت من هؤلاء المجتمعين من حولك، ومن يكونون.

إيه، هذا هو الموت اذا، ايعقل أن يكون بهذه السهولة... ولكن، أما كان بامكاني أن أرفع السروال على الأقل، قبل أن، أن... أكان يجب أن يتم الأمر بهذه

السرعة ويترك تلك... القاذورات، في مؤخرتي... يا للسخرية، اية طريقة للموت هي هذه، ولكن لا بأس يا سرمد لعل في هذه الغرابة ما قد يخفف عليك وقع الموت... الموت، لا، لا يمكن أن تكون هذه حقيقة... لعلي سأستيقظ بعد حين مثلما كان يحدث لي كلما عانيت من حلم ثقيل أو كابوس... آه يا لتلك اللحظات التي يمتزج فيها الحلم بالواقع، لكم تكون حلوة أحيانا عندما تنقذك من خطر محدق بك، أو موقف محرج يكاد يميتك من خجل، ولكن، ولكنها تكون أليمة في أحيان أخرى أيضا، فلكم حرمتك ممن تحب بعد طول فراق، أو... أو، هيا دع هذه الرؤى الفاسقة الآن وفكر بما أنت فيه، هل أنت... ولكن أي سؤال هو هذا، ألم تتيقن بعد من أنك قد مت، فكل شئ من حولك يشي بذلك، حتى هذا الوعي المتدفق والتركيز الهائل الذي تتمتع به في هذه اللحيظات يؤكد لك أنك لا تحلم، ولكن... موت و، وعي! أي خليط غريب هذا... عدم وتركيز! اي منطق هذا، وكيف تكون على يقين من أمر... ولكن، ها أنت مرمي على وجهك امام نفسك، وتلك هي مؤخرتك... أهكذا تبدو مؤخرتي، حسنا، لا بأس بها آه، يبدو أن الموت امر سهل، وأنتم يا سادة، أنزعوا عن شفاهكم بسمات التعاطف هذه فأنا لا أحتاج إلى تعاطفكم لأني لم أخش الموت يوما، وما أنا بحزين الآن... بل الحقيقة هي أني كنت قد فكرت بالانتحار أكثر من مرة، آه، أنا على يقين من أنكم ستمتعضون مني لأني ذكرت الانتحار أمامكم فأنتم تعتبرون الانتحار حراما بكل تأكيد، ولكن، اللعنة، اتمتعضون أنتم... بل هل تمتلكون أية مشاعر على الاطلاق، حتى إذا ما فعلتم فأنتم لستم من الصنف الذي تظهر مشاعره على وجهه، لا، أنا لا أعتقد أنكم تمتلكون مشاعرا فهذا حصر على الانسان... تصوروا، مخلوق مثقل بكل أنواع الشرور ومع ذلك يمتلك

مشاعرا... اي مخلوق غريب هو... ولكن على أي حال، وحتى اذا ما امتعضتم فإنكم لن تستطيعوا أن تقدروا حال من طال الزمان بألمه حتى جزع، لا، لا، أنا لا أقصد بالألم هنا الألم الجسدي، فذلك النوع من الآلام محتمل في النهاية، بل أني طورت في الحقيقة تقنية تجعلني أستطيع أن أحتمل الكثير من الآلام التي يمكن أن أشعر بها، هي بالحقيقة لعبة نفسية تساعدني في تحمل تلك الالام، اما الأقوى منها، فالطبيعة كفيلة بها لأننا معشر البشر مهيئون لتحمل مقدار معين من الألم، إذا ما تجاوز حده فإننا لن نشعر به وهو ما ينقذنا من ذلك الشعور المقرف، الشعور بالألم، الذي لا يستسيغه إلا المصاب بعاهات نفسية، ومع ذلك فأنا أعتقد أن أمرا مثل هذا الألم يهون، أما الذي لا يهون، فهو ألم النفس الذي لن يستطيع أن يتجاوزه الانسان وان يتصرف وكأنه غير موجود، وخاصة إذا ما جاء نتيجة خيبة أمل، بعد، طول، رجاء... نعم، فقد كان الأمل هو الذي يحدوني طوال السنوات التي انصرمت من عمري، كانت الأمور، أموري، بل وأمورنا جميعا، تسير من سيئ إلى أسوا، ولكني كنت أتأسى لأنني اعرف أنه في النهاية ثمة أمل... وفجأة، تبين أن ذلك الأمل ما هو إلا سراب... لقد فكرت بالانتحار مرات عديدة ولولا حيرتي وعدم معرفتي ان كان الانتحار جبن أو شجاعة لكنت قد انتحرت منذ زمن بعيد، أنا لا أريد أن أثقل عليكم بحديث الانتحار، ولكني أردت أن تعرفوا ان الموت لا يعني لي شيئا، ، بل لعله يكون الحل الأفضل بالنسبة لي... ثم على كل حال، أية فائدة يمكن أن ترتجى من عيش انسان مثلي لا يكاد يجد لنفسه أو لأفكاره مكانا في هذا العالم العجيب الذي ينحني للقوة، وأنا، أنا ضعيف، ضعيف إلى درجة بت أرى معها، أني لا أستحق الحياة... كانوا يسألونني دوما، في تلك الحياة

طبعا، لم لم أتزوج، وكنت أكذب دوما عندما أجيبهم، لأني لم أستطع أن أخبرهم بحقيقة موقفي، فأنا كنت قد قررت أن لا أتزوج أبدا لأن الزواج قد يعني فيما يعنيه، الانجاب، سواء أردنا ذلك أم لم نرد، فإنه يمكن أن يثمر انجابا... الاولاد، الابناء، ومثلي لا يستحق عقبا لأني لم أكن لأخرجهم إلا ضعافا مثلي... وكأن هذا العالم لا يكفيه من فيه من ضعاف يتسلى أقوياؤه بقتلهم، أو باستعبادهم... اسمعوها مني، فهذا لمصلحتكم، لا ترتضوا أبدا أن تكونوا ضعافا، فإما أن تكونوا أقوياء، أو فلتموتوا لأن ذلك أكرم لكم وأجدى... ولكن، ما هذا الهذر... فأنتم لستم بشرا، أنتم... أنتم... على كل حال، لا وجود لقوي وضعيف بينكم، فكلكم مخلوقات خنوعة، لا تمتلكون أمر أنفسكم، ولذلك لن تغير أقوالي من أمركم شيئا... يا لله، لكم تبدون متشابهين، حتى تلك الابتسامة اللعينة، تبدو وكأنها نحتت نحتا على شفاهكم... ولكن، لم اجعل هذا الأمر وكأنه مثلبة عليكم، فوالله أنتم تبدون رائعين هكذا، فشئ جميل أن لا تكون بينكم أطماع ومصالح، أن تكونوا هكذا سواسية، أن تكونوا سعداء... سعداء لأن قويكم لا يأكل ضعيفكم... ولكن كيف تكونون سعداء وأنتم لا تشعرون بالحزن! ألا يبدو ذلك مضجرا شيئا ما، الا يبدو الأمر وكأن شيئا ما ينقصه... مسحة انسانية من حزن أو حقد أو حسد أو، أو ظلم، ألا تحتاجون إلى ذلك، فإذا لم تعانوا ظلما، كيف تقيمون العدل، و، و، و... الا تبدو حياتكم مملة بعض الشيء، كيف يمكنكم أن تعيشوا حياتكم بوتيرة واحدة، لا تتغير... والأسوأ، أن يدوم ذلك إلى الأبد... ولكنكم تبتسمون طوال الوقت، ألا تملون، ألا تشعرون بضجر... بل أتشعرون بشئ أصلا؟! أوه، دعونا منكم الآن، فأنتم مجتمعون هنا من أجلي... ما هذا، أنت هناك، مالك

تتطلع إلى جسدي، ألا تخجل، ألا تعرف أن مؤخرة الانسان من خصوصياته، ولا يسمح لأحد أن يتطلع إليها هكذا... لا تهتم يا صديقي، أنا أمزح معك فقط، أمزح معك لأبين لك أني لست حزينا لموتي، فأنا... ولكن، أصحيح أنا لست بحزين... اليس من المفروض أن أحزن... عذرا يا أصدقائي فأنا فقط لا أستطيع أن أحدد مشاعري بالضبط وأنا أعاني من هذا الدفق الهائل من الوعي المركز الذي لم أشهد مثله طوال حياتي، أقصد حياتي السابقة... السابقة، ألا يبدو ذلك حزينا بعض الشئ، الحياة السابقة التي كان لي فيها لحظات عظيمة رغم ما عمها من بلاء... فرغم كل المصائب تبقى هنالك أشياء رائعة تستحق أن يعيش المرء من اجلها... ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله إذا ما قرر الموت أن يضرب ضربته فجأة، ولكني عرفت أن تلك الليلة لن تمر بسلام، كنت أعرف، بالحقيقة، لقد شعرت منذ أن رأيته، أن أمرا جللا سيحدث، فقد كنت جالسا، كما هي عادتي في كل ليلة، مع رفاقي نتبادل أطراف الحديث، أو نتخاصم، لا فرق، عندما برز من خلال الظلام فجأة، رجل بدا لي عملاقا عندما رأيته أول مرة... اقترب منا باصرار، وقال بعد أن ألقى التحية "من منكم ابراهيم السرمد" أجفلت عندما سمعته يذكر اسمي، وكدت أن أصرخ به "اتمزح معي يا هذا" ولكن لم يبد عليه أنه من النوع الذي يمزح، أو يستسيغ المزاح، ترددت في التعريف بنفسي في البداية، ولكن الوجوه، وجوه رفاقي التي التفتت إلي لا شعوريا، أجبرتني على القول مجيبا "أنا هو، تفضل" في نفس اللحظة التي انبرى فيها كريم التقي قائلا "ما الذي تريده منه" ولكن الرجل التفت إلي وقال "لقد أرسلني إليك صالح السامر" فعجبت لقوله لأن سنين كانت قد مرت منذ آخر مرة رأيت فيها السامر هذا، صحيح أنه كان صديقا مقربا بالفعل،

ولكنه كان قد اختفى نهائيا من حياتي منذ فترة طويلة...؟ قلت "صالح السامر؟ وأين هو الآن" قال "موجود" ولم يزد على ذلك شيئا، تطلعت في وجهه فلم أفهم كيف يمكن لرجل يمتلك مثل هذا الوجه الوحشي، أن يبدو هادئا هكذا، قلت بعد قليل لكي أبعد عن نفسي تهمة الخوف الذي شعرت به بالفعل! "على كل حال تفضل، ما هي حاجتك" قال بأدب بدا متناقضا مع مظهره بكل وضوح "أرجوك يا عم ابراهيم أن تأتي معي" فاجأني طلبه بشدة، إلتفت إلى رفاقي أنشد العون هذه المرة، ولكني رأيت في وجوههم الدهشة والحيرة، ما عدا وجه كريم التقي الذي بدا لي غاضبا وهو يتساءل للمرة الثانية "لقد سألتك، ما الذي تريده منه" التفت إليه العملاق وقال "كل خير، فأنا محتاج لعونه" هنا تشجعت، فتساءلت "وما هي حاجتك يا ولدي" التفت إلي وقال "أرجوك يا عم، تعال معي، لا تقلق" عرفت عندها أني ذاهب معه لا محالة لأن المزيد من التردد كان يشي بخوفي الذي كنت حريصا جدا على إخفائه عن رفاقي لأنه لم يكن جديرا بـــ "ابراهيم السرمد" الذي عملت طوال الوقت أن أريهم إياه! قفز كريم التقي من مجلسه وقال "أنا آت معكم" وكذلك قال سلام المرهون، فالتفت العملاق إلي وقال بحزم واضح "أرجوك يا عم ابراهيم، لقد قلت أنه أمر خاص" فقلت موجها كلامي إلى التقي "لا بأس، سأكون بخير" وليلعنني الله إذا ما كنت واثقا بكلامي ذاك في حينها... آه لقد نسيت أن أمثالكم لا يمكن أن يستسيغوا طريقتي الفجة في الكلام، ولكن أرجو أن تتذكروا أني لست ملا... أقصد أني لست مثلكم، ولذلك آمل أن تتحملوني حتى أتخلص من تركات بشريتي... المهم، سرت مع العملاق الذي بدت خطاه وكأنها محاولة مستديمة لدك الأرض.

عندما ابتعدنا قليلا، سالته "والآن، ما هي حاجتك يا ولدي؟" أجاب "صبرا يا عم وستعرف كل شئ بعد قليل، فقط ثق بي، ام أنك لا تثق بصالح السامر، صديقك" لم أعرف ما علاقة ثقتي بالسامر بثقتي بهذا الوحش المتجهم، ومع ذلك قلت "بل أثق به، و... و أثق بك، ولكنك لم تقل لي كيف تعرفه" قال "شرح هذا يطول وما نحن فيه أهم" ثم صمت، فعرفت أنه لن يفصح عن أكثر مما قال، فصمت أنا الآخر وتبعته وقلبي يكاد يثب فرقا.

بعد مرور وقت قصير آخر، لاحظت أنه يسير بي باتجاه بيتي فشعرت ببعض ارتياح، وبالحقيقة، أنا لم أبعد فكرة أنه يمكن أن يفكر بسرقة بيتي، فقد كان هذا أمرا معتادا في المزاغة في الفترة الأخيرة، ولكني سرعان ما أبعدت هذه الفكرة عن بالي... فما عندي ليسرقه؟!... عندما اقتربنا من زقاقنا أخيرا، لمحت شخصا واقفا، متسترا بالظلام، عندما التفت إلينا، بدا عليه أنه كان ينتظرنا لأنه عدل من وقفته... عندها، شلني الرعب فتوقفت، همست وأنا أسيطر على رعشة صوتي بالكاد "من هذا؟" قال العملاق "هو من أرسلني إليك، لا تخف" قلت وصوتي يتحشرج "هو، ولكن من هو" قال اللئيم بهدوء "ستعرف بعد قليل، فقط واصل المسير، أرجوك" لا أعرف لم جعلني رجاؤه الأخير، أتجاوز خوفي قليلا، فتقدمت بضعة خطوات قبل أن أسمع صوت الواقف المنتظر، يقول "أهلا أستاذ ابراهيم"... عندما لامس صوته اذني، بل إخترقها إختراقا، شعرت وكأن قلبي قد وثب من مكانه ليسقط في أعماق بطني... انتابني دوار فمادت بي الأرض واضطربت خطواتي، بل توقفت قبل أن أخطو متعثرا لأصافح اليد التي كانت قد امتدت إلي... ايعقل أن يكون هو؟! ولكن ذلك كان صوته الذي لا يمكن أن أخطئ في تمييزه لكثرة ما سمعته في التلفاز... ولكن،

لا بد من وجود خطأ، ما الذي أتى به، وأين كان، وكيف يمكن أن يظهر لي هكذا من دون سابق انذار... لا، لا يمكن أن يكون هو، صافحت يده فقال "لقد عرفتني، هة" ثم أعقب ذلك بضحكة خافتة بددت كل الشكوك، اللعنة، إنه هو، شعرت بساقي ترتجفان من رهبة الموقف، إنه هو لا محالة... ولكن ما الذي يريده مني عنترة؟! اللعنة، ومن أين له أن يعرف بوجودي حتى، ولكن، ألم يخبرني ذلك المارد أن صالح السرمد قد أرسله، أي أنهم عرفوا بي من خلاله، ولكن أين صالح، وما علاقته بهم، كانت الأسئلة تتقافز في رأسي، ولكني لم أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة خوفا من أن يفضح تهدج صوتي، رعبي... قال عنترة بصوت حاول أن يكون ودودا "لقد فرضت نفسي ضيفا عليك هذه الليلة، لقد كنت أقول دوما أن كل بيوت أهل الديرة بيوتي، أفلا تستقبلني في بيتك" عندها عرفت أني يجب أن أقول شيئا، فبذلت جهدا مضنيا لأقول "بل أهلا بك وسهلا... ولكن" قال "بلا ولكن، كل الذي نحتاجه هو بضعة سويعات نرتاح خلالها، ثم نغادر" قلت وأنا أعاني من تشتت وعدم قدرة على التركيز "أهلا وسهلا، ولكن بيتي يكاد يخلو من" فقال مقاطعا للمرة الثانية "لا نحتاج شيئا، فقط أن نرتاح... ما لك يا رجل، اين أخلاقك العمورية، ألا تعرف أن سؤال الضيف عن حاجته أمر معيب" ثم أتبع قوله ذاك بضحكة يخفف بها من وقع لهجته الآمرة نوعا ما... لم أكن قد سألته عن حاجته لأني كنت أعرف بالطبع بحث رجال مالك وجهودهم الحثيثة في القبض عليه، كنت أعرف حاجته إلى ملاجئ باستمرار ليظل مختفيا عن أنظارهم، ومع ذلك لم أعلق على ما قاله بغير "أهلا وسهلا" ثم سرت بضعة خطوات قبل أن أقول مرة أخرى "فقط دعني أذهب لإحضار بعض الطعام" فصاح المارد وكأنما أصابه مس "لا" الأمر الذي فاجأني وأجفلني، فيما قال عنترة بهدوء "لا داعي يا ابراهيم،

فقد أصبنا شيئا من طعام قبل أن نأتيك، وكل ما نحتاجه الآن هو النوم قليلا" كنت عندها واقفا أتطلع بذهول إليهما بسبب ذلك العملاق الجلف، ولكني لم أنبس ببنت شفة لأني كنت قد فهمت الموقف جيدا، فضيفي، وكما بات واضحا لدي، كانو سجاني بقدر ما هما ضيفي! لم أعلق بشئ بعدها، بل سرت أمامهما بصمت باتجاه بيتي، ليتبعني عنترة ووحشه الخاص!

فتحت الباب ودعوتهما للدخول، ولكنهما رفضا الدخول قبلي فدخلت ليتبعاني، مددت يدي لأشعل شمعة أحتفظ بها دائما قريبة من الباب الذي أغلقه المارد فور دخوله... ظللت ممسكا بالشمعة التي كانت شعلتها تكافح لقهر الظلام فيما أردد بلا شعور "أهلا وسهلا" وأنا أدور حول نفسي ولا أعرف بالضبط ما أريد فعله... قال عنترة بعد أن تعودت عيناه على الضوء الشاحب "نحتاج فقط إلى ما ننام عليه... اي شئ" عندها ثبتت الشمعة على المنضدة وأسرعت إلى حيث أحتفظ بالفانوس الذي لا أستخدمه إلا في حالات الطوارئ لأني كنت أفتقد دائما إلى الكيروسين اللازم له، اشعلته وذهبت مسرعا إلى حيث مخزوني الفقير من فرش الطوارئ، ولكن المارد الذي كان قد تبعني، سبقني إلى رفعها بعد أن تفحصها جيدا، فمد فراشا في جانب من الغرفة، ثم مد ثان يا على الجانب الآخر، ثم أغلق باب الغرفة ليمد الثالث بحيث يسد الباب به!

كان توتري يزداد بمضي الوقت وأنا محاصر في تلك الغرفة، كان عقلي يدور بسرعة، ولكن بلا طائل، فقد أرهقته الحيرة وأزرى به التوتر، قلت "دعوني على الأقل أحضر لكم بعض الشاي" فقال عنترة على الفور "لا داعي فقد شربناه قبل أن نأتيك" فعرفت عندها أنني في ورطة حقيقية، اللعنة، فهما لم يسألاني حتى إذا ما

كنت قد تناولت عشائي أم لا، أو إذا ما كنت بحاجة إلى بعض الشاي، وهو ما كنت في أشد الحاجة إليه بالفعل... جلس عنترة على الفراش الممدود في أحد طرفي الغرفة، فيما جلس العملاق اللعين على فراش الباب، فبدا في نظري سجانا أكثر منه ضيفا! عرفت عندها الفراش المخصص لي، ذهبت باتجاهه، ولكني لم أجلس، بل رحت أدور حول نفسي والأفكار تضطرم في بالي من دون التمكن من ايقافها... كانت فكرة اللقاء بعنترة ايام كان ينعم بفراش سودة ولو صدفة تقض مضجعي، ولم أفهم يوما كيف كانت تجرؤ تلك الحشود الهائلة على الاسراع إليه عندما يحل بمكان... بل بالاحرى، كنت أفهم، ولكني لم أكن أستسغ ذلك لأن أمر كيفية مخاطبته هو الذي كان يحيرني، هذا بالاضافة إلى أني كنت قد سمعت بيوم نعيمه ويوم بؤسه، ولأني لم أكن أثق بحظي، كنت على يقين من أني لن ألتقي به إلا في يوم بؤس، وهو ما قد يطيح برأسي من دون ذنب اقترفته، أو على الأقل يجعلني أواجه ما أكره وفقير مثلي لا يبقى عنده بعد كل ذلك العمر أعز من كرامته، أما الآن وبعد أن ضاعت منه سودة لم يعد عندي أدنى فكرة عن كيفية التعامل معه ولا كيف أناديه عندما أخاطبه، فأنا أستطيع نظريا أن أناديه بـ "أبي عبل" كما هي كنيته، ولكن ماذا لو لم يعجبه ذلك وأنا محاصر بينه وبين ذلك السجان المتحفز... كانت عينا عنترة الذئبيتان طوال ذلك الوقت تتفحصاني بإمعان، قال "هلا تجلس يا ابراهيم لنتبادل أطراف الحديث قليلا قبل النوم" فصدعت بالأمر فورا، ومن دون نقاش.

قبل أن ينبس ببنت شفة، سمعنا قرعا على الباب الخارجي، قفز الغوريلا من مكانه وقد أشهر مسدسا أخرجه من حيث لا أدري، وكذلك فعل عنترة بلمح البصر، إلتفتا إلي متسائلين، قلت "أنا لا أنتظر أحدا" سارع

الغوريلا القبيح إلى إطفاء الفانوس بنفخة بدت وكأنها زوبعة صغيرة لم تعط الشعلة المسكينة حتى أدنى فرصة لتبقى متقدة، فبقينا في الظلمة صامتين، متحفزين... أعقب قرع الباب مرة أخرى صوت يصيح "يا عم ابراهيم" تعرفت فيه على صوت المدلول، فعرفت أنهم قد أتوا للإطمئنان علي، همس الوحش بصوت بدا لي كالفحيح "من هؤلاء" قلت "هؤلاء أصدقائي" فقال آمرا "لا ترد عليهم" فقلت موجها كلامي إلى حيث تصورت أن عنترة موجود في الظلمة "إنهم أصدقائي وأنا اعرفهم، فهم لن يذهبوا حتى أرد عليهم" فأتاني صوته هامسا وهادئا رغم الموقف العصيب "حسنا، تحدث معهم وطمئنهم، ولكن من وراء الباب" قلت "ولكنهم أصدقائي ولطالما قضوا معي ليالي طوالا هنا، ألا ترى أنهم سيشكون إذا ما لم أسمح لهم بالدخول" قال "لا يهمني شكهم المهم هو أن لا يروني أو أن يعرفوا بوجودي هنا".

أشعلت الشمعة التي كنت قد أطفأتها بعد إيقاد الفانوس... تحركت ببطء نحو الباب يتبعني العملاق وقد تحفزت يده الممسكة بالمسدس... توقفت أمام الباب، في حين أسند هو ظهره إلى الجدار المجاور له، أمامي، صحت "من" فأتاني صوت كريم التقي يتساءل ساخرا "ما هذا يا ابراهيم، أتريد أن تخاطبنا من خلف الأبواب المغلقة، أين أخلاقك أيها العجوز" قلت "عذرا يا تقي، ولكن عندي ضيوف وهم نائمون الآن، هيا اذهبوا الآن وسنلتقي في الغد" قال التقي "ولكن" قلت مقاطعا "هيا يا رجل لا تكن لجوجا، اذهب ونلتقي في الغد" فأتاني صوت المدلول وقد بدت واضحة فيه محاولة كبته لضحكه "ولكن ألم تقل يا عم أنك قد زهدت في النساء" فهمت على الفور مقصده، فقلت "ولكن المرء يبقى يشتهي، فأرجوك أن لا تخبر مازن عن هذا" فضجوا بالضحك قبل أن أسمع صوت المدلول ثانية متسائلا "ولكن ألا تحتاج

شيئا " فقلت على الفور "نعم، أحتاج أن تعفوني من رؤية وجوهكم القبيحة الآن" فسمعت عندها ضحكاتهم وصوت التقي يقول "لعنك الله يا رجل ولعن لسانك الجامح، هيا تصبح على خير".

جلست على فراشي صامتا وأنا لا أستطيع أن أركز على شئ، فها أنذا وجها لوجه مع هذا الذي كنت بحاجة فيما لو أردت مقابلته، أن أجتاز ما قد لا يخطر على بال من اجراءات مشددة ومن تدابير أمنية صارمة... ها هو أمامي جالسا على الأرض أسفل ظله العملاق الملتصق على الجدار وهو يتراقص في عرض يأبى إلا أن يزيد من غرائبية هذه الليلة العجيبة! كانت ثمة العشرات، بل المئات من الأسئلة التي تتزاحم في بالي... ولكن أيجدر بي أن أسأله وهو على ما هو عليه من تعب وارهاق بديا واضحين على محياه فما الذي يمكن أن أقوله الآن، لقد أتى لبيتي ليرتاح، أفلا يجدر بي أن... اللعنة، ولكنه كان هو من قلب عالمي رأسا على عقب... كان هو من جعلني أخوض حروبا سأكون كاذبا لو ادعيت أني سررت بالمشاركة بها... هو من يتحمل مسؤولية موت عشرات، بل مئات آلاف البشر.

كان الصراع محتدما في داخلي ، وهو ما ساعدني على تجاوز حالة القلق والارتباك بصورة تدريجية، ومع كل الغضب الذي بدأ يتسرب إلى داخلي بقي الصمت هو المسيطر علينا حتى قطعه هو قائلا "إيه يا سرمد، لديك الكثير مما تريد قوله، بل أنت تكاد تنوء بالأسئلة التي تحاصر عقلك في هذه اللحظات... أليس كذلك" فاجأني فقلت من دون تفكير "أوه، لا، بل" ولكنه قاطعني قائلا "كلا يا ابراهيم فالأمر واضح ولكن الوقت لا يسمح، فهنالك الكثير جدا مما يمكن أن يقال، والكثير من الحقائق التي يمكن أن تكون قد خفيت

عليك، وأنت تعرف أن أنصاف الحقائق لا يمكن أن تمثل الحقيقة، بل هي تزيفها أحيانا" عندها كنت قد استعدت رباطة جأشي قليلا، فقلت "لا، انا لا أريد تفاصيل، أنا فقط أتساءل، أكان الأمر يستحق" تمعن في وجهي لحظات قبل أن يقول بهدوء "طبعا، وإلا لما خضته، لقد خسرت معركة، لا بأس، ولكني سأبقى زوج سودة الشرعي" هالني ما سمعت إذ لم يكن من المعقول أن يصر على التكلم معي بهذه الطريقة التي تعود عليها عندما كان يتحدث لوسائل الاعلام وهو يحاول رسم صورة معينة لنفسه، بالكلمات، أردت أن أصرخ به إن كان أساسا زوجا شرعيا... ولكن وجودي وحيدا معه وهو بصحبة ذلك الوغد في غرفة واحدة جعل من فكرة تجاوز تلك الرغبة، أمرا معقولا... قلت "ولكن أما كان بالامكان تفادي كل هذه المآسي والحروب" بدت نظرة انزعاج في عينيه هذه المرة، ولكنه سرعان ما تجاوزها ليقول بهدوء أيضا "لقد قلت لك أن الوقت لا يتسع لشرح كل التفاصيل" ثم صمت قبل أن يقول مسترسلا "يتصور الفرد منكم أنه يعرف الكثير ولكن أتدري، انتم لا تعرفون شيئا بالمرة، أنتم تسمعون ما يريد البعض منكم أن تسمعوه وهو ليس الحقيقة، أنتم تسمعون الاعلام الذي تتصورون أنه يتحدث عن السياسة، لا يا صديقي، فالسياسة الحقيقية لا تصلح للحديث عنها أو اعلانها قبل أن تحقق أهدافها" وهكذا بدأ معي طريقته المفضلة في الحوم حول الموضوع من دون الدخول في تفاصيله كما كان شأنه طوال عمره! اللعنة، ألا يستطيع أن يكون صريحا ولو مرة واحدة في حياته... مرة أخرى تملكتني الرغبة في أن أصرخ به، ولكنها، ولحسن حظي، كانت رغبة جبان... قلت "أنا عندي تصورات عما تتكلم عنه" فابتسم وقال "كلكم عندكم تصورات، ولكن ما أتحدث عنه الآن لا يمكن لأي تصورات أن تقترب منه" قلت "فلم لا تحاول أن تشرح لي

قليلا" أطلت نظرة ضجر من عينيه وقال "ما هذا يا سرمد، أين أخلاقك العمورية، أهكذا تعامل ضيفك الذي يفترض بك أن تكون مسؤولا عن راحته طوال فترة إقامته عندك"... رباه، ما الذي كان يمكنني أن أقوله لهذا الرجل الذي يأبى إلا أن تكون أخلاقه العمورية هي الفيصل في كل أمور حياته، ألم يعرف أن مثلي لا علاقة له بهذه الأخلاق التي لم توردنا إلا المهالك... أنا أريد أن أحدثه عن مئات الآلاف من البشر الذين قتلوا على مذبح أطماعه وأطماع أشباهه، وهو يحدثني عن أخلاق بالية لا وزن لها... والأسوأ انها كانت باعثا له على تسليط كل من لا يستحق على رقاب أهل الديرة، هكذا لمجرد أنهم أقاربه.. قلت بالحاح "ولكني أريد أن أعرف" فتساءل "ما الذي تريد أن تعرفه يا رجل" قلت وقد تخلصت من ترددي وخوفي أكثر وأكثر "أريد أن أعرف ما الذي حدث بالضبط، لماذا فعلت ما فعلته في ديرة الخالة حصينية، ولم رزحت الديرة بعد كل تلك العقود التي مضت تحت نير مالك مرة أخرى"... لم يجبني هذه المرة على الفور، بل غاب في لجة من التفكير، أجبرتني على أن أعالج سيل الأسئلة ال متلاطم في رأسي، بصمت ثقيل... قال بعد مرور فترة من الوقت "لقد أردت لكم أن تقفوا الوقفة التي كانت لتجعل الديرة في مكانها الطبيعي، أردت أن أنقذكم من غد لئيم كان قد أعد لكم باتقان لا مثيل له، ولكنكم غدرتم بي وغدرتم بأنفسكم، بل غدرتم بالعمورية والدائحة بأكملها، أنا يا ابراهيم أحملك مسؤولية أن تخبر الآخرين أن الديرة لم تكن هي الخاسرة في هذه المعركة البطولية التي خضناها، بل كانت الدائحة نفسها هي أبرز الخاسرين، يجب أن تعرف أنها، وأقصد هذه الدائحة، بتخليها عن الديرة قد أتاحت لمالك أن ينفذ خطته التي سيحولها بها إلى شركة في النهاية يديرها بنفسه ليوردها بعد

ذلك موارد الهلاك" يا للشيطان، ها هو يتحدث عن النصر في معركة كان قد خسرها خسرانا مبينا... هو لم يتغير إذا... ثم ما هذا الحديث عن شركة، ومدير، ومالك، والدائحة... أيريد أن يجنني، أيريد أن يفقدني ما تبقى لي من نزر يسير من عقل، هذا إذا كان عندي عقل أساسا، ما له يتحدث عن الأمر وكأنه أراد أن يضحي بنفسه من أجل أهل الديرة... لا، لن يخدعني هذا الادعاء، فانا أعرف أنه كان يريد أن تكون الديرة قوية ومتقدمة لكي يخلد اسمه كواحد من أعظم الأزواج... فهو يعشق ستار حديد، غريم مالك القديم، ويعتبره معلمه الأول، عجبا لعشاق قراءة التأريخ هؤلاء، أنا لا أعرف كيف يمكنهم أن يقرؤوه بهذه الانتقائية، أن يروا فيه ما يعجبهم، ويتجاهلون ما يمكن أن يكون عبرة لهم، أين هو ستار الآن، وما الذي استفاده من كل تلك المجهودات الهائلة غير تلطيخ سمعته كانسان بسبب الملايين التي تحمل وزر ترحيلهم عن هذه الحياة الدنيا! ثم، أين هذه الديرة الصغيرة من ديرة ستار الكبيرة... لا، لا بل هو يحلم أن يعود ارث كليب بن حي بن يقظان العموري، كل ارثه، إلى سودة فقط ليكون هو الزوج الأوحد... وكأن مالكا كان ليسمح له بذلك، فما بالكم بأزواج الخالات المعنيين بهذا الحلم المستحيل... قلت وأنا أحاول أن أبين وجهة نظري فيما حدث "ولكن، الثمن، كان غاليا... من الناحية الانسانية طبعا" بدا الانزعاج الشديد على وجهه عندما سمعني هذه المرة، فتسلل الخوف عائدا إلى نفسي، ولكني كنت قد تورطت ولم يعد بالامكان التراجع، قال "ألم تفهم بعد يا ابراهيم، ألا تعرف ما تعانيه أنت وأمثالك"... وقعت كلمة "أمثالك" وقعا عنيفا على نفسي، فقلت وأنا بالكاد أخفي اعتراضي الذي لجمه ولحسن الحظ طبعا، خوفي، "وما بهم، أمثالي" من دون

أن أسأله عما يعنيه بالضبط، بـ "أمثالي" قال "يحرص أمثالك على تسميم عقول أهل الديرة بكلمات لا معنى لها عندهم، وهم يتصورون أنهم يخدمونهم بذلك، أهل الديرة يا عزيزي يحتاجون إلى قائد... قائد حقيقي، لا إلى مثقف يسري بهم إلى عوالم خيالية لا وجود لها في هذه الدائحة" قلت معترضا "ولكن.." ولكنه قاطعني قائلا "هيا يا سرمد، قل لي، هل سمعت طوال حياتك بأحد أزواج بنات طيرة كان يعمل موظفا عند مثقف أو كاتب، ألم تلاحظ أن هؤلاء كانوا دوما موظفين عند أولئك، وأتباعا لهم، أما من يرفض ذلك منهم فيبقى مختفيا في الظلال لا يكاد يذكر له اسم" قلت منفعلا "ولكن هنالك الكثير من الكتاب والمثقفين الذين خلدت أسماؤهم من دون أن يعملوا في ظل أصحاب الشأن كما تقول" فقال "رغم أني أشك في صحة ما قلت، فإني أريد أن أفترض أنه صحيح ولكن أتستطيع أن تقول لي، إذا ما أتيحت الفرصة لعامة الناس فبمن تراهم سيقتدون، بالذي يمتلك الخيوط في يديه، أم بذلك الذي لا يكاد يجد ما يسد رمقه، رغم غزارة علمه وسعة أفقه" لم أستطع هذه المرة أن أجيب بشئ فقد أفحمني لأنه كان محقا، اللعنة، كان محقا فيما ذهب إليه، صمت فلاحظ ذلك ليقول مبتسما بانتشاء "يا ابراهيم، الناس تحب من يسوق لها الأفكار الجميلة، ولكنها لا تقتدي إلا بمن يمتلك مصيره، ومصائر الآخرين" تمددت مدحورا ولم أعرف كم مضى علي من وقت قبل أن ينجح الكرى بصولته على جفوني المثقلة... عندما استيقظت مبكرا في الصباح، كانا قد رحلا، كانا قد تركا فرشهما على الأرض كما هي، ولكني لاحظت وجود شئ ما على فراش عنترة، فنهضت لأتبين ماهيته، كانت رزمة من النقود المالكية يبدو أنه قد تركها لي فشعرت بفرح غامر لأنها ستتيح لي بعض الرفاهية التي أتوق إليها أحيانا، كانت تعني جولات

من الكرم الذي أستطيع أن أغمر بها أصدقائي الذين أحبهم ، كانت تعني وتعني... ولكني سرعان ما تذكرت حديثه عن المثقف وأزواج طيرة ، والعلاقة غير المتوازنة بينهما ، فشعرت بغضب شديد ، غضب هائل لا أعتقد أني شعرت بمثله من قبل، يا له من سافل، أتصور أنه يستطيع أن يشتريني مثلما تعود على شراء غيري، أنا ابراهيم ، ابراهيم السرمد ، أيستطيع مثل هذا المتشرد أن يشتريني، أن يجعلني أقول ما لا أؤمن به... تمنيت لو كان موجودا لأرد إليه نقوده، بل جمح بي الخيال حتى تصورت نفسي ألقي بالنقود عليه ، أردت أن أقول له أني لست بحاجة إلى نقود ملوثة ، مدنسة ، أن، أن، ولكنه كان قد رحل... رحل وكنت أريد ان أحدثه عما فعل، أن أحاججه بحجته ...ألقيت برزمة النقود بقرف على الأرض وغادرت الغرفة وأنا أعاني من انزعاج شديد ، بل غضب متفجر... في الصالة شبه الفارغة جلست لأسترد أنفاسي قليلا، حاولت أن أبعده عن أفكاري علي أرتاح من تلك الانفعالات المنهكة ، فتذكرت كريم التقي وبقية الرفاق، فكرت في ردود فعلهم عندما يسمعوني وأنا أحدثهم عما حصل معي في هذه الليلة العجيبة ، بدأ الارتياح يطرد تلك الأحاسيس المقرفة من أماكنها في نفسي تباعا... كنت قد قررت أن احدث أصدقائي عن كل التفاصيل، ولكني، لم أستطع فعل ذلك لأني دخلت بعد ذلك الحمام الذي لم أغادره، وأنتم تعرفون بأني لن أفعل ذلك أبدا...

لما (♫مي♪) أنا (♫صول♪)خو (♫فا مي♪)قبـ(♫فا♪)ـيل (♫مي♪)

الصبح (♫صول♪) عيـ(♫صول♪)ـهم (♫لا♪)

وحمل(♫صول♪)ـو ها (♫سي♪)و (♫دو♪)سا (♫سي♪)رت(♫لا♪)

في(♫صول♪) الهوى(♫سي♪) الـ(♫سي♪) إ (♫لا♪)بـ(♫ري♪)ـل (♫دو♪)

آآآه ما أحلى الغناء، لا تأبهوا لصوتي فأنا أعرف أنه لا يعجب، ولكن انتبهوا، انتبهوا للألحان فقط، أتعرفون، من دون كل الأوهام التي صنعتها الانسانية لنفسها، تبقى الموسيقا هي الوهم الأبدع، الوهم الأرق، والأسمى... ولكن، أتعرفون ما هي الموسيقا... لا تعرفونها، عجيب، مع أن الأسطورة تقول أن فكرتها سرقت منكم أساسا، نعم الأسطورة، أسطورة ذلك الشيطان الذي كان قرين واحد من سكان الديرة القدامى... كان الشيطان يحاول تأدية واجبه التقليدي في الوسوسة لقرينه، ولكن هذا كان مبتلى بشئ إسمه الأصوات... أنتم تعرفون، أو قد لا تعرفون، أن الشخصيات الإنسانية هي نفسها سواء كانت في العصور الغابرة أو الحالية، قد تختلف الظروف الحياتية، ولكن تلك الشخصيات بقيت هي نفسها، وكذلك أهواؤها وتأثرها بمحيطها، فمن الناس من يتأثر بكلمة، ومنهم من يستجيب بإنفعال للمناظر من حوله، أما صاحبنا هذا فكان مهووسا بالأصوات، فكان الشيطان المسكين يوسوس، ولكن هذا يتلفت من حوله طوال الوقت مستجيبا لأية همسة أو صفير أو حفيف أو هديل، يعلو دوما على صوت الوسوسة فتحبطها، حتى أسقط في يد الشيطان وقرر أخيرا أن يهجره إلى غيره، ولكنه أراد أن ينتقم منه قبل أن يفعل ذلك، أسمعه بعضا من أصوات السماء ليتركه في حيرة ما بعدها حيرة، إذ من أين لساكن الأرض أن يستمع

إلى ما يدور في السماء، وبالفعل، فقد اصاب الرجل الهوس بما سمع، وأصبح ممسوسا، ولكن ذلك الشيطان الساذج لم يدر أنه هداه بما فعل إلى واحد من أهم مكتشفاته، وأقصد الموسيقا... فقد راح ذلك الممسوس يبحث، ويستمع إلى الأصوات، من صوت الأحجار وهي تتراطم فيما بينها إلى حفيف الأوراق على الشجر، إنتبه إلى هسيس نفسه وهساس الجن في القفار، أنصت إلى تغريد الطيور، وصوت الأشياء وهي ترتطم بسطح الماء... هل سمعتم يوما صوت إرتطام السمكة وهي تخترق مجال رؤيتنا فجأة، لتعب قليلا من الهواء، قبل أن تعود ملهوفة، لتصطدم بصفحة الماء... (طرب)... يا لله، لقد فعل الإنسان الأعاجيب بموسيقاه، ولكنه لم يصل بإتقانه إلى مستوى (طرب) هذه... لا، لا تهرعوا إلى البركات لتحاولوا أن تلقوا بالأشياء فيها لتسمعوا تلك النغمة، فقد تلقون شيئا كبيرا فتسمعون (طش) أو صغيرا فيكون الصوت (بق) فشتان ما بين (طش وبق)، و (طرب) تلك... طرب حقيقي هي (طرب)... أتلاحظون، هذه هي الموسيقا، فثمة أصوات كثيرة من حولنا، ولكنها لا تصلح جميعا وحيا لموسيقا جميلة، فالأمر كله يتعلق هنا بالحجم والشكل والزاوية، و، والسرعة طبعا... نعم السرعة، ولكن ليس السرعة بمفهومها الفيزيائي، المسافة في الزمن، إحتفظوا بهذا القانون لأنفسكم، أو لإمتحاناتكم في مدارسكم، أما السرعة التي أقصدها هنا، فهي الإحساس بالزمن، فهذا هو الأهم... الإحساس بالزمن، يجب أن تنتبهوا، أين أنتم الآن، يجب أن تحددوا مكانكم زمنيا، وأن تعاملو الزمن بإحترام، والأهم أن تفقهوا الأشياء فالموسيقا قد تلعب بنا، فهي قد تتداعى بنا إلى المستقبل، أو تندفع بنا إلى الماضي ولكننا يجب أن نعرف مكاننا بالضبط لنحدد من نكون، وما سنصيره... يجب أن تفهموا أن الصوت الذي

يمكن أن تصدره سمكة بجسدها الإنسيابي الرائع، وحجمه، وزاوية إختراقها لسطح الماء، لا يمكن أن يشابه صوت فيل إلقي به من علو في الماء، وكل ما ستجنونه من ذلك إذا ما فعلتموه، سيكون موت الفيل المسكين... موته فقط... تذكروا الانسيابية والحجم والزاوية، ولا تنسوا الزمن... تاك، تك، تيكي، تيكي، تك، تك، أو كما يسميها الموسيقيون، نوار وبلانش وكروش ودبل كروش وترپل كروش... وحدات محسوبة تداعب الزمن فتساهم في خلق الموسيقا... الزمن، الزمن... ولكن ما الذي أردت قوله إذ بدأت أتحدث عن الموسيقا... لقد أردت قول شيء، ما هو... لم أعد أذكر... نسيت، ولكن، أيمكن للموتى أن ينسوا... هم في عالم النسيان، وينسون... أعدل هذا... هيا لا تعذبوني... إفقهوا، فأنا أريد أن أقول شيئا قبل أن أموت... ولكن ما هذا، أنا ميت بالفعل، ميت كما يجدر بالموتى أن يكونوا... يا للحيرة... ميت أنا إذا، فما قد أصنع، كيف أزجي الوقت المتاح... المتاح! بل الفائض، الفائض بدرجة لعينة، كيف... ولكن ما ذنبكم أنتم، أريد أن أخاطب قومي فانزل اللعنات بكم من دون ذنب اقترفتموه... حسنا، أتريدون أن أحدثكم عن الدنيا التي أتيت منها، أنتم لا تعرفون شيئا عنها بكل تأكيد... هذا إذا كنتم تعرفون شيئا أساسا، حسنا، حسنا سأحدثكم فأنا أمتلك الأبدية لفعل ذلك، وأنتم، لا يبدو عليكم أنكم مستعجلون للذهاب إلى مكان ما، فهلا سمعتموني، سأحدثكم وأحدثكم، ولن توقفني حاجة إلى مشرب أو مطعم، ولن أضطر للذهاب إلى الحمام... آه، انا لن أذهب للحمام مرة أخرى حيث يمكن أن يموت المرء... طرفة حلوة هة... يا لملامحكم التي لا تتبدل ولا تنبئ عن شئ، يبدو أني لن أحتملكم كثيرا، ولكنكم الآن كل ما أمتلك من مستمعين وأنا بي حاجة للحديث... بل

للهذر، فأنا لم أتعود على حياة الموتى بعد ولذلك سأحدثكم قليلا، أو حتى طويلا لأن ذلك لن يفرق من الأمر شيئا..."الدائحة" اسم لحقيقة لا تدل على حال، لأن الشرذمة التي كانت هي أول الحياة العاقلة على كوكبنا هذا تكاثرت حتى كانت أشبه بالنبتة الصغيرة التي كبرت لتكون أيكة عظيمة، ولكنها مع ذلك لا تستحق أن تسمى بالدائحة لأنه لا يعقل أن تحارب أوراق الشجرة أغصانها، هذا إذا لم تتحارب فيما بينها، أو أن يأكل اللحاء نفسه، أو يقاتل القلب فيها، أو أن يطمع الساق بالنسغ المتصاعد من جذورها فيحتكره لنفسه لكي تكون بقية الأعضاء ضعيفة، ذليلة في احتياجها له ومسحوقة بمساعداته الهزيلة التي لا تغني عن جوع! ولكن هذا هو ما يحدث بالضبط، وهو ما يجعلني متشائما عندما أفكر بمستقبل هذا الكوكب العجيب. فقد حبته الطبيعة بكل ما يجعله مكتفيا بذاته ، ومتكاملا في أجزائه، ولكنه ابتلي بإنسانه الغريب الذي لا يستطيع إلا أن يكون جزوعا، حسودا، ملولا، والأدهى من كل ذلك أن يكون ظالما، فيشتت بدلا من أن يجمع، ويقتل ويظلم بدلا من أن يكون رحيما، عادلا ومتعاونا، ترى، أي قدر يتحكم في مصير هذا الكوكب المجنون؟! لكن ما لنا نتهم الاقدار بما هي بريئة منه؟ فالعلة، كل العلة تكمن في أعماق هذا المخلوق المسمى بالإنسان، أو ابن جويزع كما يسمى أيضا! وسواء إن كانت أسطورة الإنسان الأول الذي هو أبو البشر جميعا، حقيقية أم لا فإن حقيقة كون اسمه هو " جويزع " لا يمكن أن تكون بلا دلالة أبدا... عندما وجد الإنسان على أديم هذا الكوكب، حسب معظم الدراسات العلمية التي تميل إلى ترجيح هذا الاحتمال، شاءت الصدفة أن يكون تواجده هذا على شكل مجموعات صغيرة ضعيفة الأواصر، مهلهلة الوشائج، الأمر الذي حتم الفراق ما بين الأفراد فيما

بعد، فراح كل منهم يهيم في البراري والقفار الموحشة ممتطيا صهوة فرديته ومتمسكا بكل أنانية بأسس حريته المطلقة التي لا يحدها عرف أو قانون ولكن إلى حين...

إن الإنسان مخلوق وليس بخالق، أي أنه محدد بحدود نفسه المخلوقة وعقله القاصر، أما القوة الخالقة فأن العقل فيها مطلق وهو ما لا يحتاج إلى إثبات لأن فكرة الخلق نفسه، الخلق الحقيقي، لا الاختلاق، تحتاج إلى عقل لا تحده حدود لتولد فيه. والمنطق يفرض أن تكون الرحمة متلازمة مع العقل في مثل هذه الحالة لأنه ليس من المعقول أن يفكر عقل مطلق في الخلق لكي يتعذب المخلوق في وجوده بخاصة أنه يعرف أن هذا المخلوق سيكون ظالما قاسيا بدون رحمة أو رأفة على الغالب، أي أنه سيكون هناك مظلومون من البشر من دون وجه حق بكل تأكيد، فإن لم تكن الرحمة مسوغة في حال الظالمين من البشر، رغم أني أؤمن أن رحمة الخالق هي مطلقة وبغض النظر عن كون المخلوق ظالما أو مظلوما، فإنها ستكون مسوغة جدا عندما تتعلق بالمظلومين أو غير الظالمين على الأقل، وآية رحمة الخالق بهذا المخلوق هي منحه العقل، الذي إن لم يكن كاملا فهو على الأقل يكفي لرسم الدروب التي يجب أن تنتقى بوضوح، أنا أدرك أن تناولي لهذا الموضوع هنا لن يكون متكاملا بالمرة لأني إنما أحاول أن أناقش طريقة تفكير الخالق عندما خلقنا وهو ما أتصور أنه غير ممكن لي أبدا ولكني أحاول فقط أن أحسم مسألة الثواب والعقاب اللذين يستحقهما البشر لاختياراتهم الخاصة بكل تأكيد، ولذلك أعتقد أن العقل السليم يوصل صاحبه إلى بر الثواب الأمين ويترك العقل العليل صاحبه في عرض بحر العقاب المتلاطم، وكل ذلك لأن رحمة الخالق شاءت ذلك ولا أشك لحظة واحدة في أن هذا الخالق يتمنى لو استطاع الإنسان المخطيء أن يجتاز اللجة التي وضع

نفسه فيها ليصل إلى بر الأمان، ولكننا نعرف جيدا أن هذا لن يكون ما دام هذا الإنسان لم يمتلك الإرادة التي تجعله أهلا لذلك!. .. وجد الإنسان الأول نفسه وحيدا بإرادته التي تسيرها أنانيته فشعر بالخوف لأن الوحدة تعني الخوف، الخوف من المجهول وعدم القدرة على اجتياز المخاطر والمصاعب، ولذلك بادر بالعودة إلى نظام التجمعات التي فر منها لكي يستطيع التغلب على خوفه المقيم، ولكنه حينما عاد لم يحاول أن يتخلص من أنانيته بل حملها معه وراح يوليها العناية والإهتمام لأنه شعر بأنها أصبحت في خطر ما دام أصبح عضوا في مجتمعات تربطه بغيره من البشر مصالح وحاجات، فكان هذا التناقض الغريب هو السبب في ولادة أولى العقد التي تنامت في داخله... أنا لا أستطيع أن أحدثكم عن كل تفاصيل عصور الانسان السحيقة، فأنتم بكل الأحوال لن تفقهوا ما قد أقول وسيغيب عنكم هدفي من ذكر كل تلك التفاصيل المملة، ولكني أستطيع أن احدثكم عن العلاقة بين الرجل والمرأة، فهي تفي بغرضي في أن ابين لكم أن هذا الانسان الذي يعيش حياته كاملة قصرت أم طالت، وهو يمارس حقه في الاختيار كاملا، ولكنه يموت غير راض وهو يوزع سخطه على الجميع، ابتداء من الاله الذي خلقه وانتهاء بابسط التفاصيل التي خذلته، وينسى عدوه الحقيقي، نفسه! كان الرجل والمرأة في تلك العصور الغابرة، يؤلفان ويا للعجب المثال الصارخ لبشرية الانسان، فقد كانا ورغم وحشيتهما، يتشاركان في عملية صنع الانسان لتستمر مهمة حفظ النوع المكلفان بها، أنا لا أعرف كيف كانا يفعلان ذلك من دون كلمات أو توجيهات، أو حتى مجلات أو أفلام اباحية، أو تعليمية، ولكن لعل الخالق كان يهديهما إليها، أقصد تلك العملية، بحكم الغريزة التي زرعها في أعماقهما، فيلتقيان لممارسة

تلك الطقوس عندما تدعوهما الطبيعة إلى ذلك... في البدء كانا متساويان بكل تأكيد لأنهما على فطرتهما الأولى وهو ما يجعلهما يتكاملان، آه، التكامل، التكامل، كيف أوصل الفكرة إليكم، حسنا، يجب علي أن أحدثكم عن العملية أولا، ولكن لم أكلمكم عنها وأنتم لن تفقهوها لأنكم لا تتناسلون... عجبا، ولكن كيف تتكاثرون، آه لقد فهمت، أنتم تتكاثرون، بالانقسام، الانقسام ماذا، كيف كانوا يسمون... آه لقد تذكرت، الانقسام الخضري، كالنباتات بالضبط... ولم لا فأنتم لا تصلحون إلا للزينة، انتم عقيمون كما هو حال كل من لا يمتلك نفعا لنفسه أو ضرا، ولذلك آثر الإله أن لا تتكاثروا، أما من يستحق العيش والتكاثر، فهو الانسان نفسه، لأنه بقدر ما يحقق في حياته، يدفع ثمنا لذلك، هو يستحق الحياة لأنه... ولكن ما هذا، أبدأ بمزحة لأنتهي إلى أن أحملكم تبعة ما لا ذنب لكم به... حسنا دعونا نعود إلى تلك العملية التي تأسر الانسان عندما يحين وقت استحقاقها، تمتلك عليه عقله، والغريب انها تغير حتى طباعه التي تعود عليها، وإن كان ذلك وقتيا... هي احساس جارف يدفع الانسان دفعا إلى فعل ما يجب عليه فعله، هي حاجة هائلة، هي تفاعلات تجري داخل جسده فتغير اتجاهات الدم فيه إلى وجهات معينة، فيضطرم ويلتهب، ويجب على الانسان العاقل أن يستجيب لتلك النداءات بكل جوارحه، وأن يمارس ما يجب عليه ممارسته بكل حواسه، حواسه الخمسة، أو حتى العشرة إذا ما كان هنالك عشر منها، يمارسها بحواسه كلها، لا بمعناها الميكانيكي فقط، يظل يهيم في مساحات سحرية لا علاقة لها بالزمان ولا المكان الحقيقيين، حتى يكاد يلامس عالما رائعا، عالما روحانيا صرفا، وفي لحظة... يهوي، ليرجع إلى حيث كان قبل أن تخدعه الغريزة، إلى واقعه الذي يسبب وذلك العالم السحري، واحدة من أكبر

أزمات الانسان، أزمة حقيقية، أن يعيش في عالم لا يستطيع أن يرضيه، ويتوق إلى عالم لن يكون له إليه سبيلا أبدا... حسنا، كان هذا السحر الذي يلف هذه العملية التي اعتبرها أعظم ما اخترعه الإله، يدفع بالرجل والمرأة إلى أن يتكاملان... هكذا بكل بساطة لا يختلفان، لا يتنافران، بل يتكاملان، ولذلك كانا هما سوية، الانسان الأول... اتعرفون، أنا لا أستطيع أن أتصور أن إلها يمكن أن يخلق مخلوقاته ويحكم عليهم أن يحكم أحدهما الآخر، انظروا، حتى الجملة نفسها تفتقد المنطق، يحكم أن يحكم! لا، لا يمكن للإله أن يقدر ذلك ولأي سبب كان، وخاصة اذا ما كان قد زودهما بالعقل الذي يعرف المنطق ويمتلك القدرة على التحليل... لقد كان الدافع الأول للبشر لطرق ابواب الانسانية، كقيم ومثل، هو حاجتهم وخوفهم، هو بحثهم المستمر عن الأمان الذي لم يكونوا ليجدوه في ظل العالم القاسي الذي كانوا يعيشون فيه، إلا من خلال التواصل مع الآخرين وتشكيل التجمعات المصلحية الكفيلة بالتخفيف من مخاوفهم من بيئتهم المحيطة... ولكن، ما كانت الماهية الأولى التي واجهت أنا الانسان الأول... كانت هي بكل تأكيد نصفه الآخر، النصف الذي لا يمكن ان تكتمل انانيته من دونه... أنا لا أريد أن ألقي عليكم محاضرة في التحليل النفسي، ولذلك لن اغوص عميقا في التفاصيل، ولكني أرى أنه من الطبيعي أن لا يستطيع انسان ناقص أن يبحث عن الكمال، على أساس أن الانسانية كانت هي كمال الانسان، المثالي والمبدئي، رغم أنها قامت أساسا على حساب ما تنازل عنه من أنانيته من أجلها! ولذلك كان يجب ان يبحث عن التكامل الذي يحقق انسانيته الأولى، فاتصل بنصفه الآخر، اي أن الجنس كان العمل الأول الذي قام به الانسان وهو في سعيه الحثيث لايجاد السبل لإقامة صرح

الانسانية التي ميزته عن بقية الحيوانات... نعم، العمل الأول، وليس الخطيئة الأولى كما يدعي بعض هم، فهذا ادعاء سخيف جدا... أتدرون، لأن عقل الانسان كمخلوق، لا يستطيع أن يجاري الكون باتساعه اللامتناهي، يضطر دوما للتطوير بعد كل اكتشاف جديد، فكان هذا وجها آخر من أوجه ازماته الخطيرة، فقد كان يبذل جهودا عظيمة لاستنباط اكمل الأفكار، ويبذل جهودا أكبر لإيجاد الوسائل لبلوغها، ولكن مع استمرار التطور تندثر الكثير من الأفكار بشكلها ألأولي، فتتحول الوسائل التي كانت نبراس الانسانية للوصول إلى غاياتها النبيلة، بفعل عاملي النسيان والتقديس الأعمى للماضي، إلى غايات بذاتها، وهكذا بدأت الانسانية تضيع دروبها، لتحفر بذلك الخندق الذي سيوصلها حتما إلى نهايتها الأليمة! على كل حال، أنا اقول، وعلى مسؤوليتي، أنه كان العمل الأول، وليس الخطيئة الأولى، لأن مثل هذا العمل لا يمكن أن يكون خطيئة ما دام قد وجد داخل الانسان، بل داخل جميع الحيوانات، بأمر إلهي... ولا يمكن لإله أن يعبر عن تناقض كهذا في اعماله التي يفترض أن تكون أقرب إلى الكمال دائما... العمل الأول، لا تنسوا ذلك، أما الخطيئة الأولى، فأنا ادلكم عليها... تلك الخطيئة، كانت المرأة هي من اقترفها، ولكنها لم تكن اغواء الرجل مثلما يقولون، فالاغواء هو مهمتها التي وجدت من أجلها، مثلما وجد الرجل لاغوائها، فقد كان هذا الاغواء هو الوسيلة لتحقيق الغاية الأهم، وأقصد استمرار الأنواع التي أوجدها الإله على ظهر الدائحة لتستمر. بل كانت الخطيئة هي محاولة فرض سيطرتها على الرجل رغم انهما كان يجب أن يبقيا سواسية كما وجدا أصلا، وأنا لا أريد أن أدين المرأة بقولي هذا، فهي

كانت محكومة بهذا بطبع الانسان الأزلي، الميل للسيطرة على الظروف من حوله للسيطرة على مخاوفه الغريزية...

حسنا، أنا أؤمن بأنهما كانا سواسية في البدء، ولكن بعد ذلك اختلق الانسان وبسبب حاجاته ومخاوفه، وبهدي من عقله المتميز، فكرة العائلة، أي ان يجتمع الرجل والمرأة معا، فيستأجران كهفا في مكان منعزل... لا عليكم بكلمة "يستأجران" هذه، فهي لتلطيف الجو، ولكن اللعنة، من أين لكم أن تعرفوا معنى الايجار... ولكن، يا لحسن حظكم لأنكم لا تعانون من كابوس اسمه الايجار... المهم كان الرجل والمرأة يعتزلان في كهف، لأن العزلة كانت مزاج الانسان في تلك المرحلة، حيث يؤلفان عائلتهما الخاصة، فالأسرة سبقت ظهور القرية والمدينة بكل تأكيد، بل هي سبقت حتى حياة البداوة التي كانت الخطوة الأولى للبشرية في طريق التقدم الحقيقي.

يقال أن المرأة في تلك الأيام السحيقة في القدم أصبحت هي القائدة، وأنا أصدق ذلك، لأنها هي المستودع لتلك الحياة الثمينة التي تحتاجها الأسرة وأقصد الأطفال طبعا، هذا بالاضافة إلى الاعتناء بشؤون الكهف، أن تضع كل صخرة في مكانها بالضبط، وأن ترتب الأحجار طوال الوقت، فتقضي نهاراتها واقفة على ساقيها التي تتحول إلى الأعلى طوال لياليها، وبعد ذلك تأتي مشاكل الحمل وغثيانه، ومن ثم تجربة الاقتراب من الموت قبل أن تمنح الحياة مولودا جديدا، ومن يدري، لعلها كانت مواليد عديدة لا مولود واحد في العادة كما هي الحال في أيامنا هذه، كالقطط مثلا، فهذه الطريقة تكفل أيضا للنوع الاستمرار لأن الأطفال في تلك الأيام لم يكونوا مشمولين بحملات التلقيح ضد الأمراض السارية... الأمر الذي كان يعني أن الوفيات للمواليد كانت كبيرة جدا،

خاصة إذا ما أضفنا إلى هذا، المخاطر الهائلة التي كان يتعرض إليها الانسان الأول، ولكن المرأة في تلك الأيام كانت محظوظة لأنها لم تكن تضطر للطبخ، فقد كانوا يلتهمون الأشياء نيئة، أولا باول، من دون الاضطرار لمعاناة ملل انتظار نضوج الطبخ... المهم هو أنه يبدو أن المرأة قد أحست بأهميتها القصوى للعائلة الناشئة فاصطفت لنفسها مركز القائدة وطاوعها الرجل المهموم بمصارعة الديناصورات لتحصيل لقمة العيش له ولعائلته... انا أمزح معكم طبعا لأن الديناصورات كانت قد انقرضت قبل ظهور الانسان على وجه الدائحة بكثير، ومع ذلك لم تكن الوحوش التي كان يصارعها الانسان بيديه العاريتين، أقل ضراوة... قررت المرأة، وكان لها ما أرادت، وليتها لم تقرر ذلك القرار الذي كلفها غاليا... ولكن... لقد انتبهت طوال عمري للظلم الذي كان يحيق بالمرأة، ورفضته، وها أنذا أكتشف وأنا أحدثكم، أنها كانت هي من بدأ بالظلم... ولكن، اللعنة أي بدء للظلم هذا الذي يبرر هذا التأريخ الكامل له، فهي أصبحت القائدة في عصر الظلام، ثم عانت الظلم طوال العصور التي مرت بعده... لا، لا، لا، لن يسوغ هذا أبدا ما فعله بها الرجل بعد أن استلم هو القيادة... اترون، هذا هو بالضبط ما أريد أن أحدثكم عنه، محنة الانسان مع نفسه، واستعداده الدائم لانزال الظلم بالآخرين فيما يملأ الدنيا صراخا إذا ما حاق به ظلم، حتى إذا ما كان يستحقه! وفي هذا يتساوى الجميع إلا بقدر ما يتعلق الأمر بمستوى الوعي، والذكاء.

مع تطور الحياة وانتشار الأوهام بفعل حاجة الانسان إلى مثل يثبت بها انسانيته الوليدة، تحولت تلك العملية، وكأثر جانبي محتوم للتطور، إلى مصدر لإطفاء الرغبات، والبحث عن المزيد من اللذة التي

كانت دائما على حساب المهمة الأساسية للعملية، كانت شهوات الانسان تزداد تنوعا، واضطراما أيضا، مع تطور مخيلة الانسان واتساع آفاقه.

عندما يكون الرجل منتشيا، سكران بلذته العارمة، وهو ..يتطلع في وجهها، فيراها تحته وهي مغمضة العين، أو يكاد الرجاء يقفز من عينيها متوسلتين، المزيد، المزيد، هيا المزيد، عندها يتوهم نفسه إلها وكأنه الوحيد الذي يمتلك ذلك الشئ، وكأنه لا يوجد غيره من يمكن أن يعطيها ذلك الإشباع، وربما أكثر منه أيضا، ولكنه مشغول بأوهامه، فهو موهوم ومحكوم عليه بالأوهام... رباه، ماذا لو كان الرجل نفسه هو صاحب براءة اختراع تلك العملية المذهلة، لا الإله... ماذا كان ليفعل، أنا أقول لكم، مادام ستكون عنده القدرة، كان الظلم ليكون أول هباته للآخرين، وحتى إذا ما كان رحيما، وهذا ما يندر، فإنه يجعل من الذي يكون مصب رحمته ينوء بامتنان ثقيل... لا، لا، أنا لست ظالما له بحكمي هذا، فقط تذكروا تاريخه، أووووه، أي تأريخ هذا الذي تتذكرونه، فأنتم من دون تأريخ... ومع ذلك كان تأريخ هذا المخلوق دليلا صارخا على ظلمه وجبروته، لأنكم إذا ما راجعتموه كما راجعته أنا، سترون أن أول ما كان يفعله أي قوم يتسيدون قدرهم فيتعملقون، هو أن يبسطوا سطوتهم على جيرانهم، الأقربين... و، الأبعدين! وقد يبدو أن هذا مسوغ لمالك في ما فعله، ويفعله بالآخرين، لا، فهذا قد يرجعه إلى حضيرة البشر، ولكنه يدينه بكل تأكيد لأنه عجز أن يكون انسانا حقيقيا كما يدعي... على كل حال، انا اخمن أن هذا الرجل الواهم، بدأ يدرك بالتدريج أن هذه المخلوقة التي أسلمها قياده لا تستحق مركزها لأنها تعبر عندما يمتلكها في تلك الدقائق الساحرة عن ضعف لا يليق بالقادة... نعم سادتي، لقد استشعر الرجل

بتفوقه لأسباب موضعية أولا، اي تتعلق في مكانه خلال العملية، ونفسية ثانيا، لأنه يستجيب للحافز فيزيائيا، فيما تستجيب المرأة له كيميائيا، فيستطيع هو أن يحتفظ بجزء من عقله رغم أن قدراته العقلية تتناسب بالحقيقة، عكسيا مع درجة الانتصاب الذي يستطيع تحقيقه، ولكنه مع ذلك يبقى واعيا نوعا ما، فيما تغيب الاثارة كل وعي المرأة في اللحظة التي تقرر بها أن تمنحه نفسها، لأنها تكون بذلك مستجيبة لنداءات هورموناتها المتفاعلة مع المحفزات النفسية التي تنبع من أعماق وجدانها... ولأن الرجل إنسان، اي أنه المخلوق الذي يمتلك ذلك العقل اللعين القادر على الاستفادة من الملاحظة والتحليل، استطاع بحسه العملي ان يستثمر ذلك الجانب العاطفي العميق لدى المرأة ليجردها من مواقعها، وصولا إلى فرض سيطرته عليها، وكلما كانت المرأة تزداد استسلاما له، خضوعا له، وطمعا في المزيد من الاشباع، كان هو يزداد جبروتا ويمتلئ زهوا فيتيقن بأنه هو القائد، فيزداد ظلما لاختبار مهاراته القيادية، ولتثبيت سيطرته على المواقع التي احتلها عنوة والمرأة مغمضة العين وهي تطير في فضاءات المتعة واللذة... أنا لا أقصد أن احدثكم عن هذه العملية وافرازاتها، ولكني أردت أن أوضح لكم ميل الانسان الطبيعي لتفضيل أناه على كل الأنوات المحيطة به، والمخلوق الذي يستطيع أن ينزل كل تلك الكوارث بالمرأة وهي نصفه الآخر الذي لا يستطيع أن يكون انسانا إلا بوجودها، حري به أن يقترف كل ما قد لا يخطر لأحد ببال غير ذلك النصف المبتلى به.

والآن، أتصور أنه يكفينا حديثا عن هذا المخلوق الذي وسم الدائحة بغرابته فأصبحت موطنا عجيبا لمجموعة غير متناسقة من المخلوقات التي ظلت تعاني من ظلم

الإنسان المستشري دوما ، لأن من يظلم أبناء جنسه ، لا بد وأن يظلم الأجناس الأخرى، ويشتد في ذلك... ولكني لا أنوي أن أتكلم عن جميع غرائب هذا الكوكب، وهي كثيرة ، بل سأكتفي بالحديث عن واحد منها ، وهو أشدها غرابة ، وأقصد الديرة... ديرتي أنا ، هذه الديرة التي ولدت تأريخ الدائحة ، ثم اختفت، لتولد هي من جديد ، وهذا لم يحدث في أية ديرة أخرى في الدائحة ، لأن لكل ديرة متميزة ، ولادة واحدة ثم تموت، ولكن هذا حدث للديرة ، حيث ولدت مرتين ، ثم اختفت طويلا، لتولد ثالثة ، ولكن بفعل مرسوم مالكي، ولذلك ولدت عليلة هذه المرة ، وكان هذا شيئا طبيعيا لأن الديرات يجب أن تكون دائما إنعكاسا لإرادات أهلها ، أما عندما تكون إنعكاسا لإرادة مالك المخالفة لإرادات أهل الديرة ، فإنها تكون مسخا... ولكن قبل الإستمرار في الحديث عن الديرة ، يجب أن تعرفوا من هو مالك، "مالك الأبرش"... ولكن ما قد أقول عن هذا اللعين، أأصفه لكم ، ولكني لا أتصور أن وصف المرء من ناحية شكلية ، يمكن أن يعطي فكرة عما يحمله في دواخله من شر، وخاصة إذا ما كان جميل الخلقة كمالك، لا لن أصفه لكم ، وكل ما عليكم فعله هو أن تسمعوا فقط ما أقوله عنكم ، وأن تتذكروا أشر ما مر عليكم من بشر، وتربطوا الأقوال بالصورة... صدقوني إذا ما قلت لكم أن كل الشرور التي تحدث في الدائحة ، مصدرها مالك ومصالحه... أرجو أن لا تتهموني بكوني عبد لنظرية المؤامرة... أو إتهموني، لا بأس لأن ذلك لا يشكل فرقا بالنسبة لي، فأنا في النهاية أؤمن بأن هنالك مؤامرة مستمرة ضدنا نحن العموريون، من قبل مالك، وإن نظرية المؤامرة نفسها ، ما هي إلا مؤامرة بحد ذاتها ، لأن مالك الخبيث يعرف جيدا أن مؤامراته لا بد أن تنكشف يوما ، ولذلك إخترع هذه المؤامرة لكي يسد بها الأفواه التي يمكن أن تتكلم

عنها... مالك الأبرش هذا كان أفاقا لئيما، تهيأت له الظروف ليدخل واحدة من أكبر وأغنى الديرات في الدائحة ويسيطر عليها، وبعد أن دانت له السيطرة على تلك الديرة، بدأ يتسلى، وكما هو المعتاد من البشر الذين يسيطرون، بمد سيطرته على بقية الديرات في الدائحة، ولا يهمه إن كانت تلك السيطرة مباشرة أو غير مباشرة، المهم هو أن يكون مسيطرا... حتى سقطت معظم غنائم "سليمان حميد"، النسخة القديمة والبدائية، منه، في يده، وعندها بدأت قصة "الديرة" الأخيرة، الأكثر بؤسا ومأساوية... ما هذا، كيف ورطت نفسي في هذا الموضوع الشائك... مالك والديرة وسودة، وسليمان وطيرة وبناتها وعنترة وستار حديد والحارث الزيادي و، و، و، على كل حال، لقد بدأت، وما أبدأه يجب أن أنهيه، خاصة وأني أمتلك الوقت الكافي للحديث عما أشاء.

أما سودة، فهي بنت كليب بن حي بن يقظان العموري، البدوي الذي هام حبا بـ" يمامة بنت الأبيض" بنت المدينة، فاختطفها وذهب بها إلى الصحراء، حيث مملكته، وتزوجها هناك، فولدت له إبنتين رائعتي الجمال هما سودة وزاهرة، ولكن طبعه البدوي أبى عليه أن يستقر في خيمته التي جعلتها يمامة اشبه بجنة في أعماق الصحراء، فظل في ترحاله الدائم في الصحراء التي يعشق، يتزوج النساء، وكلما ولدت أحداهن بنتا له، يتزوج أخرى بحثا عن الذكر الذي يريد، حتى مات دون أن يتحقق له ذلك الأمل، وقد ترك لسودة وزاهرة، عشرين أختا، وأرضا شاسعة من صحراء وحواضر، لا قبل لهن على إدارتها، أو حتى المحافظة عليها، ليأتي المقاتل الشرس "سليمان حميد" إبن الجبل المقدام الذي لم ترهبه مصاعب الصحراء رغم أنه لم يتعود عليها، فضمها إلى أملاكه الشاسعة، ولكن سليمان قرر

أن يدير كل أملاكه بنفسه، فأضناه ذلك وأتعبه، فلم ينتبه إلى تسلل مالك البطئ، والمتقن إلى تلك الأراضي التي كانت تجعل لعابه يسيل طمعا... عندما وصل سليمان إلى الصحراء كان قد بلغ من الكبر عتيا، فاقدا حيويته التي أهلته لأن يسلب الكثيرين، ضياعهم وديراتهم، ولكن مشكلته الرئيسة في حينها، كانت خزائنه الخاوية بسبب حروبه المتواصلة، ولذلك تقبل المشاريع الاقتصادية التي أقامها مالك في منطقة نفوذه، لأنها كانت تشكل مصدر دخل ثابت بالنسبة له، خاصة أن مالك الخبيث، كان كريما في دفع، الضرائب المستحقة عليه لسليمان الذي كان ينتمي إلى الصنف الأقل تطورا من الحكام، فلم ينتبه إلى الجهد الدراسي المكثف الذي كان يبذله مالك لدراسة المجتمع الذي كان ينوي دخوله، لا كضيف، بل كمالك... كان "الإستعمار" جهدا أكاديميا بحتا في مظهره، ولكنه في حقيقته، كان جهدا استخباراتيا متقنا ابرز مالك فيه كل خبثه ودهائه، لأنه كان مشروعا متعدد الأهداف، فهو من جهة يساعد على فهم المنطقة فهما يتيح لمالك أن يعرف البشر الذين سيحكمهم حين يأزف الوقت، معرفة تكفل له التلاعب بهم كما يشاء ليأمن شرورهم، ومن جهة ثانية، وفي هدف مزدوج كان يريد أن يكون لأولئك البشر صورة في أذهان أهل ديرته تجعلهم يبدون من مستوى أقل من مستواهم، لكي يأمن بذلك ثورات ضمائرهم، وفي نفس الوقت يفرض على أهل المنطقة أنفسهم، صورة مستحدثة، تجعلهم يشعرون بدونية تكفل له التفوق الدائم... أنا أستطيع أن أتفهم لم مرت هذه المؤامرة من دون كشف أو فهم في حينها، ولكني لا أستطيع أن أستسيغ لم نصر، نحن العموريون على عدم الانتباه لهذا الأمر، لم لا يكون لدينا جهدنا "الاستملاكي" لكي نستطيع أن نفهم كيف يرانا آل مالك بالحقيقة، لكي نعد للأمر عدته...

إلى متى تظل غزواته تهلك الزرع والضرع في ديارنا ، فيما نركز بغزواتنا على فرش نسائه الجميلات، والله لو استطعنا أن ننكح نساءه جميعا ، أو حتى ما نشاء من رجاله الممحولين، لما استطعنا أن نتجاوز مرتبة المفعول به في قواعد نحو العلاقات، لأن الفاعل "مالك" يستطيع سواء إن كان ظاهرا أو مستترا، أن يفرض علينا حتى حركاتنا من نصب أو رفع أو جر، ما دام هو الذي يمتلك كل مفاتيح السيطرة، بقوته اللامتناهية.

في اللحظة التي إختارها مالك، أزاح سليمان حميد عن أراضي العموريين، ليستولي عليها هو، وليرث معها بنات كليب جميعا... كان يعرف منذ اللحظة التي دخل فيها ، أنه لم يأت ليبقى، فهو ليس سليمان، كان فقط يريد أن يعين وكلاء يكفلون له الهيمنة على تلك الأراضي الغالية ، ليتفرغ هو للمزيد من السيطرة على بقية أنحاء الدائحة ، ولأنه كان يعتمد دوما على مؤسسات بحثية في جميع شؤونه ، أعدت له تلك المؤسسات الخطة الجهنمية التي تكفل له ما يريد ، فقد قرر أن يوزع تلك الأراضي ما بين بنات كليب، فرسم حدودا لتلك الأراضي توفر له ما يشاء من مؤامرات مستقبلية ، طوال العقود اللاحقة ، وحسب الطلب، لأنه زرع ألغاما في كل زاوية أو منحنى في الخط الذي رسمه بالقلم الأحمر على خارطة تلك الأراضي المنهوبة ، وللزيادة في الاتقان، حرص على توزيع غير متوازن للثروات فيها ، لكي يضمن نجاح سياسته الرامية إلى عدم إتاحة الفرصة للعموريين للتفكير بديرة موحدة أبدا ، أبدا... ولكي يسوغ عملية تمليك الأراضي للنساء، من دون الرجال، إبتكر أسطورة "طيرة"، تلك الأسطورة التي لا أعرف إن كانت موجودة أساسا في كتب الميثولوجيا ، أو أنها كانت قصة تأريخية ، أو أنها من بنات أفكاره هو، ولكني وجدتها حقيقة واقعة عندما ولدت.

لـمـا *(♫صول♪)* **أ** *(♫سي♪)***نـا خــ***(♫لا صول♪)***و** *(♫فا ♪)*
قـــ*(♫مي♪)***ـبـيـل** *(♫صول♪)*

الــــ*(♫فا ♪)***ـصبـح** *(♫صول♪)*

عيـــ*(♫صول♪)***ـســـ***(♫سي♪)***ــهــ***(♫لا♪)***ــم** *(♫صول فا ♪)*

و *(♫ري♪)***حمـــ***(♫فا ♪)***ـلـو** *(♫مي♪)***ــها** *(♫فا ♪)* **و** *(♫صول♪)***سا ر** *(♫لا*
*صول♪)***ت***(♫سي♪)*

فـي*(♫سي♪)* **الــــ***(♫لا♪)***ــهــ***(♫صول♪)***ــو ى***(♫فا ♪)* **الــــ***(♫مي♪)* **إ** *(♫فا*
*مي♪)***بــل** *(♫ري♪)*

أنا أعرف أن هذا الشعر ليس هو الأجزل، ولكن لا حيلة لي في الأمر، فقد وجدت هذه الأبيات ساكنة بالي منذ لحظة إستيقاظي من النوم هذا الصباح... لما أناخوا، لما اناخوا، لما أناخوا، ولم أستطع منها فكاكا، ولكني على الأقل أنشدتها لكم هذه المرة بمقام مختلف، فهذه من مقام (الحجاز)، في حين كانت المرة السابقة من مقام (العجم) ، ومقامات الديرة كثيرة والحمد لله، وحديثها ذو شجون... أتعرفون، الشعر نفسه نوع من موسيقا، بل هو موسيقا... يا الله، يا الله، إنظروا أي فطحل أنا، لقد إكتشفت للتو ما كان يعرفه العموريون قبل مئات، بل آلاف السنين، وعلى أساسه طوروا لغتهم وجعلوا من الشعر ديوانا لهم... الشعر موسيقا! يا لعبقريتي... لم لم أكتشف هذا قبل أن أموت، لكان لي بذلك شان آخر في حياتي... يا للسخرية... ولكن صدقوني أن الشعر موسيقا، وكان هذا ما أردت قوله لكل شويعر كان يجمع الكلمات المتشابهة ليضمن بها القافية، قبل أن يتقيأ ما يجمع تلك

الكلمات كيفما اتفق، الشعر، موسيقا، لا بسبب الوزن فقط، بل بسبب التكثيف اللغوي، والإختزال الصوري... نعم، الصور الشعرية التي لن يأتي بها إلا المبدع وصاحب الموهبة الحقيقية، أما هؤلاء (المستشعرين) فلن ينجحوا إلا في زيادة همومنا... لا، لا تقولوا لي أن لا علاقة لهذا بما كنت أتحدث عنه، بل هو في صلب الموضوع، فمجتمع يستطيع فيه، كل من هب ودب أن يدعي ما شاء من دون حساب أو عقاب لهو مجتمع يفتقد إلى المعايير، ومن دون المعايير لن تزداد المجتمعات إلا موتا على موت... لو كان الأمر بيدي لأخضعت الشعر، بل كل الفنون والآداب لأقسى ما أستطيعه من نظم التقييس والسيطرة، نعم التقييس والسيطرة، كالمعامل والمصانع بالضبط، ولأخضعت كل جملة وكلمة، بل كل حرف لأعقد المعايير لأضمن خلو النتاجات من التهافت... ومثلما قلت، يشمل هذا الأمر كل الفنون ومنها قراءة المقام... لقد قلت لكم أن مقامات الديرة كثيرة ، وهي كانت موجودة منذ القدم ولكن، لا أدري لم لا آنس في نفسي الرغبة في الحديث عنها، ولكني سأرجع بكم إلى أقدم الأزمان، فثمة موضوع آخر يشغل بالي الآن، ففي العصور الغابرة، وقبل أن تكون هنالك ديرات في الدائحة، كانت الأمور تدار من لدن الشيوخ، شيوخ القبائل التي كانت تأتمر بأمرهم من دون نقاش... كانت طيرة زوجة لغضبان بن عاتكة أحد مشايخ قبيلة البوغريق العتاة، كان غضبان، غضبان بحق، قاسيا كحد سيفه البتار الذي كان يحكم به ويفصل أكثر مما يحكم بعقله ويدير شؤون قبيلته بعقله... قاست طيرة معه كثيرا حتى بات الخوف منه هو المسيطر عليها... في يوم، تنادت قبيلة (البوغريق) للخروج إلى الحرب ضد قبيلة (البوطراد) التي كانت مضاربها إلى الشرق منها... كان السبب المعلن للحرب هو، شرف القبيلة!

فقد أذيع أن هيلة زوجة أمين ابن أوس قد أحبت عبد الباري ابن أحد شيوخ البوطراد وهربت معه إلى مضارب قبيلته تاركة زوجها، أحد مشايخ القبيلة التي كانت تثير الرعب في الصحراء بمجرد ذكر اسمها، غضب ابن أوس فتداعت أركان قبيلة البوغريق وتنادت للإسراع إلى مسح العار الذي لحق بشرف القبيلة، فلم يكلف أحد نفسه للبحث عن السبب الحقيقي لاعلان تلك الحرب التي كانت لا بد وأن تكون طاحنة لشدة بأس البوطراد وتمكنهم من فنون القتال وبراعتهم في الكر والفر التي هي قوام الحرب بين قبائل تلك الصحراء المترامية الأطراف... استمرت تلك الحرب الغابرة طويلا، وطويلا جدا، واستهلكت العشرات، بل والمئات من أبطال القبيلتين وقودا لسعيرها، ولرب سائل يتساءل، أتستحق امرأه أن تكون سببا لحرب كهذه... لم لم تبادر البوطراد لإرجاعها إلى زوجها الشرعي وتقي نفسها شر النهاية المؤلمة التي انتهت إليها... من أجل امرأة، اللعنة... ما هذا، ما لكم أجفلتم هكذا، ألم تتعودوا بعد على اسلوبي في الكلام، كيف يمكن أن أكون انسانا من دون لعن وسب... ثم ماذا كنتم لتفعلون لو استعملت قاموس الألفاظ النابية الذي أحفظه عن ظهر قلب... هيا، لم أتعود بعد على أن أكون روحا صرفة وعليكم أن تحتملوني... أقول، أن الحروب لا تنشب بسبب امرأة أو اي ادعاء مثالي أو أخلاقي تقدمه ديرة ما لأهلها لكي يساقوا كالخرفان إلى أتونها... لا أدري، لعل البوطراد كانوا يدافعون بتلك الحرب التي اضطروا لخوضها عن المراعي الموسمية الخاضعة لسلطتهم والتي كانت تحتاجها البوغريق للرعي في أيام القحط التي كانت لا بد وأن تمر بها كل بضع سنوات... المهم أن تلك الحرب انتهت باقتلاع شأفة البوطراد واختفائهم من خارطة الصحراء نهائيا.

كان غضبان قد سار إلى تلك الحرب مع غيره من مشايخ البوغريق بعد أن أودع خاتم المشيخة عند طيرة كما هو مألوف، ولأنه خشي عليه أيضا من الضياع وهو مشغول بقطف رقاب البوطراد الذين كانوا، ويا للغرابة، من أبناء عم البوغريق الأقربين، بسيفه الشهير، الحقود!

كان مقدرا لتلك الحرب أن تطول حتما لشدة بأس الطرفين المتحاربين وتقارب قواهم، والأهم من ذلك لغبائهم وجهلهم المطبق، ولعل ذاكرة الكثيرين من بني البشر مليئة باخبار عتاة المجرمين الذين أصبحوا أبطالا في مخيلتهم لأنهم قتلوا العدد الأكبر من أعدائهم في تلك الحرب مثل زيد الخيل وأبو حنون وغيرهما... في تلك الأيام، لم تكن الأخبار تنقل سريعا، فبقت نتيجة الحرب الدائرة في الطرف الآخر من الصحراء الشاسعة، مجهولة عند البوغريق البعيدين عن ساحاتها، ولذلك بدأت الاشاعات تنتشر، كما هو معتاد، كلما طالت غيبة المقاتلين عن القبيلة... ومع كل يوم يمضي، كان الطمع يدفع أفاق آخر إلى التفكير بالمشيخة لنفسه... لم تنتبه طيرة في البداية، ولكنها سرعان ما لاحظت أن بضع خيم نصبت مؤخرا بالقرب من خيمة المشيخة التي كانت تعاني من ثقل أفكارها وحيدة فيها، بعد أن سمعت الشائعة الأولى عن مقتل غضبان خلال معارك تلك الحرب المهولة، ولكن سرعان ما تنامت الخيم المنصوبة من حولها كالسرطان، وفي كل منها خاطب لودها، وطامع في زواجها، لا لجمالها أو لكرم أصلها، بل لأنها تمتلك خاتم المشيخة الذي سيكون صاحب الأصبع الذي يزينه ، هو الشيخ، فهكذا قضت القوانين المقدسة لتلك العشائر المنقرضة... ضيق اولئك العشاق المزيفون الخناق عليها وهم يطالبونها باختيار واحد منهم ليحل محل غضبان المنفي من ذاكرة

الحياة، وكل منهم يحلم أن يكون هو المنتقى، ولكنها لم تستجب لطلباتهم، واستمرت على ذلك الرفض طويلا، حتى صارت مثلا في الوفاء لزوجها والاخلاص له في تلك الأيام... ولكن من ضرب بها ذلك المثل لم يكن يعرفها جيدا، لأنها في الحقيقة لم تكن لتجرؤ أن تقبل ود أحد وتمنحه حق مشاركتها فراشها إلا بعد أن تتأكد من أن كأس المنايا قد روت غضبان حتى الموت لأنها كانت تخافه خوف الموت نفسه فهي أعلم الناس به وبغضبه القاتل... قالت لهم أنها مجرد اشاعة وانهم يجب ان ينتظروا حتى تنقشع غمامات البهتان وتشرق شمس اليقين، ولكن أحدا لم يستمع إليها لأنهم كانوا جميعا مسكونين بأطماعهم التي تجعلهم يتخيلون أهواءهم الشخصية، حقائق قائمة...

حام حولها الخطاب الطامعون، ولكنها أبت لأنها تمترست بواقعيتها التي كانت تفرض عليها أن لا تأنس إلى مجرد شائعات حتى إذا ما كانت تغازل هوى في نفسها، وتمنعت لأنها لم تر في اولئك إلا نسخا أخرى من غضبان البغيض... حاولوا جاهدين أن يجبروها على اختيار واحد منهم لعلها ترحمهم بذلك من خلافاتهم المتزايدة فيما بينهم، ومشاجراتهم اليومية، ولكنها حاربت احلامهم وأطماعهم بحكمتها وصبرها حتى أثبتت في النهاية أنها كانت على حق، وانهم كانوا على ضلال مبين، فقد ظهر غضبان في النهاية وقد زاده عصيانه على الموت وتمنعه عليه، غضبا... تطايرت الخيم من حول طيرة وأختفت تباعا بعد ذلك الظهور، ولكن غضبان كان قد عرف بما فعله الطامعون، فأمر على الفور أن يحتجز كل الخاطبين، ولكنه أوصى، بل شدد على أن لا يمس أحد منهم وأن يمتنع منفذو أوامره، وهم كثر بكل تأكيد، عن قتل اي واحد منهم حتى إذا ما إمتنع عن تنفيذ الأمر، أمر غضبان أن يقاد بالحسنى إلى حيث أمر

بالتجميع... هال الناس ما يحدث وعجزوا عن تصديق الأمر، أيعقل أن يكون هذا هو غضبان إبن عاتكة ... أيمكن أن تكون الحرب قد هذبت أخلاقه وخففت من غلوائه... أتغير الحروب الناس بهذا الشكل الغريب... ولكن الإجابة سرعان ما جاءتهم صادمة، هادرة ومرعبة، فقد تبين لهم أن غضبان آثر أن يقتص من خصومه والطامعين بخاتمه، بسيفه "الحقود" الذي لا يعمل بأقصى كفاءته إلا وهو في يده التي لا تعرف التردد، فذبحهم جميعا!

رجع غضبان، وكان كل ما نالته طيرة جزاء على صبرها ووفائها وإخلاصها هو كلمتي "عوفيت يا إمرأة" ولكن هذا التكريم لم يمنع عنها أن تعود في نفس الليلة التي أعقبت عودته، إلى عذابها الأليم في تحمل عنف غضبان الأهوج وهو يؤدي واجباته الزوجية... كان يقرن دخوله القاسي فيها، بحملة من عصر وعض، بل وحتى الخنق أحيانا حتى تشعر بدنو الموت لولا طوفانه المنتظر الذي يرحمها قبل أن تلفظ أنفاسها بالفعل، فينهض عنها على الفور، ليرقد إلى جانبها موليا إياها ظهره، ليطلق بعدها العنان لشخيره الذي لا ينتهي ما دام نائما... ولكن هذا لم يكن نهاية قصتنا فقد استيقظت القبيلة ذات صباح، وبعد فترة لم تكن طويلة، على صوت نواح طيرة وهي تنعي غضبان الذي مات فجأة في الليل... تجمعوا حول خيمته وهم بين مذعور ومسرور، وعندما لاحظ واحد من محبي غضبان أن وجهه الخامد كان أزرق، جاهر بشكه، ولكن عقلاء القبيلة وحكماؤها سخروا منه لأنهم كانوا قد فحصوا جسد الفقيد، وتأكدوا من خلوه من أي اثر لجرح، فهم لا يصدقون أن غضبان يمكن أن يموت غيلة، إلا بضربة سيف، أو خنجر.

دفن غضبان على عجل، واجتمع الحكماء ليستدعوا طيرة ويستردوا منها الخاتم قبل البت في انتخاب شيخ جديد للعشيرة اليتيمة، ولكن رسولهم إليها عاد بعد قليل مذهولا ليخبرهم أن طيرة ترفض المثول أمامهم لأنها أصبحت الشيخة وعليهم هم المثول أمامها! هب الحكماء للذهاب إليها وهم يتعثرون بارتباكهم، وعندما دخلوا عليها ورأوا خاتم المشيخة في يدها، هاجوا وماجوا، وهددوها بالويل والثبور، لأنها قد انتهكت كل مقدساتهم، ولكنها لم تهتز، بل خاطبتهم بوحي من أهمية مكانتها الجديدة بكل هدوء وحزم مطالبة إياهم ان يراجعوا النصوص المقدسة قبل أن يتبجحوا بما لم تنطق به... وعندما راجعوا الرق المقدس قرأوا "ارتضى الإله أن تكون مشيئته حيث يشير الأصبع المكلف بحمل الخاتم الشريف" هكذا الإصبع فقط، من دون تحديد للجنس فاسقط في أيديهم وعرفوا أنهم أصبحوا رهينة اصبع امرأة وهو ما لم يخطر لهم ببال قبل ذلك اليوم!

كانت طيرة قد تعودت في نهاراتها، وهي في انتظار زوجها العتيد، على قراءة الرقوق المقدسة التي تحفظ عادة عند الشيخ، تزجية للوقت الزائد عن حاجتها وهي وحيدة... وعندما انتبهت لذلك النص المهم وربطته باحتمال نفوق زوجها في الحرب، امتلكت بذرة فكرة اختمرت مع توالي الأيام التي اتيحت لها قبل عودة غضبان، وعندما مات، انتقلت بها إلى حيز التنفيذ... ولكن، هل كان الحكماء ليتركوها تهزم باصبعها الضئيل، متانة أصابعهم الثخينة التي يحتفظون بها بين سيقانهم؟! بالطبع لا، ولذلك بدأوا يحاصرونها، وهذه المرة بدعوى الأعراف والتقاليد، ويطالبونها باختيار بعل لها من رجالات القبيلة، وعندما عرضوا عليها الأمر، كبحت مشروع ابتسامة انتصار تولد على

شفتيها، وقالت "سمعا وطاعة"... وفي تلك الليلة بالضبط أعلنت عن ارتضائها بفرحان، زوجا لنفسها... فرحان ربيب غضبان وخادمه الشخصي والوحيد الذي كان يثق به إلى درجة أن يقترب منه في أي وقت يشاء!... كان غضبان قد جلبه معه صبيا في أحدى غزواته الكثيرة وأصطفاه لنفسه لملاحة وجهه وثغره البسام، ولكن فرحان كان قد تسلل إلى مرحلة الرجولة من دون أن ينتبه إليه أحد، ولم ينتبه لفتنته الطاغية غير طيرة التي كانت تراقب مراحل نموه... كان غضبان قد تركه في مضارب القبيلة عندما مضى إلى الحرب خشية عليه من أهوالها، فهامت به طيرة في تلك الأيام التي أثقلت عليها نهاراتها، فقررت أن لا تكون لياليها بذلك الثقل! استطاعت ببراعة المرأة العاشقة أن تخفي ولهها عن أعين الآخرين حتى تسنت لها الفرصة أخيرا لتتخذه زوجا لها وفرضه شيخا على القبيلة، لأنه أصبح الحاكم الفعلي ببركة اصبعه المشتهى، من قبلها، رغم أنها ظلت محتفظة بالخاتم في اصبعها هي.

أنا لا أعرف الكثير من التفاصيل والأسرار، ولكن كانت هذه القصة القديمة هي الأساس لفكرة بنات طيرة التي ولدت من رحمها خطة مالك الجهنمية لبسط نفوذه على الكثير من أجزاء الدائحة، حيث يقال أن فتاة ولدت بعد قرون من موت طيرة وهي تحمل وشما طبيعيا أثار حيرة كل من رآه في حينه، من يتمعن فيه جيدا ير فيه صورة لطير، وقد ظل لغزا محيرا حتى ظهرت عرافة ادعت إنها تستطيع أن تفسره، وعندما رأته، قالت أنه يرمز لـ "طيرة" وأن هذه الطفلة سوف تكون ملكة ذات يوم... انا لا أستطيع أن أكذب أو أصدق شيئا في هذا الموضوع، ولكن المتفق عليه هو أن هذه الفتاة التي ولدت لعائلة متوسطة الحال، أصبحت عندما كبرت ملكة لديرتها بعد أن عشقها ابن ملكها في واحدة من أكثر

القصص غرائبية ولا منطقية، ولكن يبدو أن هذا ما حدث، أو أن عقلا بشريا اسرف في الخيال فولدت بنات أفكاره هذه القصة العجيبة، المهم هو أن هذا جعل من البنات اللواتي يحملن مثل هذا الوشم مخلوقات أخرى، ينتظرهن الناس حتى يظهرن لتسجل باسمهن كل أراضي الديرة التي تولد فيها، وليصبح كل من ينال قلبها، وفراشها بالطبع، ملك الديرة غير المتوج، ولكن، لأن مكان الوشم ثابت، ولأنه يجب أن يكون دائما إلى جانب الزاوية اليمنى لمثلث العانة المقلوب، فقد أصبحت مهمة التأكد من وجوده وقفا على عرافات معدودات أصبحن بمرور الوقت جزءا لا يتجزأ من ديرات العالم المتخلف، وكما هو الحال دائما في مثل هذه العوالم، زدن بمرور الوقت ثراء، أو بالأحرى كانت درجة ثرائهن تعتمد على قابليات معينة، فكلما كانت لاحداهن القابلية على الكذب والتزوير، كانت الحدود تتساقط أمام الأرقام التي تحدد درجة ثرائهن... الذي أعرفه هو أن ديرات هذا العالم المتخلف لم تخل يوما من واحدة من بنات طيرة التي لا بد أن تجود بها السنوات والعقود التي تمر بها تلك الديرة قبل أن تغادرها "الطيرية" الموجودة، ولكني لم أسمع ابدا أن رجلا واحدا ولدت له اثنين وعشرين طيرية متوالية، ومن بطون عدة، ولكن هذا ما حدث فعلا لكليب بن حي بن يقظان العموري، وهذا طبعا على عهدة مالك الذي ادعى هذا الادعاء، بعد أن استولى على الأرض كتركة! بعد موت سليمان حميد، الذي كان قد استولى عليها بعد موته، وكالمعتاد، ورث مالك البنات، مع الأرض، ليقوم بعدها بتوزيعها عليهن على أساس هذا الادعاء، في خطوة أنا أتصور انها كانت واحدة من ألمع ما يمكن أن يصدر عن فكر عملي، خبيث... فقد استلهم بذلك العلاقة غير السوية بين الرجل والمرأة ليكون هو الذكر المسيطر

فيما تبقى ديرات بنات كليب هن الاناث اللواتي يدرن في فلكه، بعد ان ادرك أنه لا يمكن أن يكون السيد المباشر طوال الوقت، وامعانا منه في محاولة الاذلال وتأكيد السيطرة المستندة على شرعية التمكن اختار لوثيقة تمليكه لتلك الأراضي الغنية الشاسعة، لمن يشاء، اسما يحمل.. ايحاءات.. جنسية واضحة! وعندما كشف أمر تلك الوثيقة السرية، شعر بندم، لا لأنه كان ماجنا بتلك النزوة، بل لأنه لم يستخدم اسما أكثر وضوحا، فعوض ذلك بأن أمر أن يكون ممثله هناك، عبسي أبو الـــ... رباه أنا لا أستطيع أن أذكر اسم ذلك الشئ أمامكم، ابو الـــ... لا، لا، لن أستطيع... على كل حال، فحتى إذا ما ذكرتها فإنكم لن تعرفوا معناها، لأنكم لا تمتلكون منها... يا للسماء، لكم يكون العقل الحصيف مسيطرا، فهو دقيق حتى في استخداماته الرمزية للدلالات. ولكي يتقن لعبته الجهنمية، جرد الخالة مريم فيما بعد من ديرتها، لتعيش ذليلة منكسرة في ديرات أخواتها، وأعطاها ملكا صرفا لإبنه "مختار" لكي يعطي مثلا صارخا على سطوته، وليكون عينه التي يحتاجها في أرض العموريين البعيدة عن أرضه... ولكن الابن فاق أباه في الخبث والدهاء وفنون الاذلال، فقد تبين فيما بعد أنه مصاب بواحد من أقذر الأمراض التي تسببت بها الأوهام الانسانية، وأكثرها بعدا عن الفطرة الانسانية الصحيحة، وأقصد بها (المثلية)، فلم يكتف باذلال الأزواج المقدسين لطيرات العمورية بانتهاك حرمة أسرتهم الزوجية... بل أنه حرص على أن ينفث دفقات شهوته في أعماق البعض منهم وهو يعربد منتشيا على ظهورهم.

ورثت " سودة بنت كليب " الديرة حسب القسمة المالكية، وسودة، هي أغرب ما في هذا الكوكب على الإطلاق، لأن من يراها لا يستطيع أن يخمن عمرها الحقيقي

ولكنه يشعر بأنها أكبر مما يوحي به شكلها، والحقيقة هي أنها أكبر من ذلك بكثير، ولكن لا يستطيع أحد أن يعرف عمرها بالضبط، يجعل جمالها الوحشي وجاذبيتها الهائلة، الكثير من الرجال يخرون أمامها، طلبا لوصالها، ويتمرغون في التراب من أجل بسمة رضا تلوح على وجهها الساحر، وهذا ما يجعل منها أسطورة بحق، ولكنها أسطورة الرجال الطامعين، وما أكثرهم في هذه الدنيا، وهنا تكمن مأساتها، رغم أن هنالك الكثير من الرجال، من يزهد فيها، وتعجز كل إغراءاتها وسحرها عن التأثير فيه، فهي عاشت من أجل الحب كما تدعي، ولكنها لم تنله يوما، والأسوأ، أنها هي عاجزة عنه! وكذلك كانت أخواتها اللاتي ورثن مثلها، بقية أراضي والدهن، هن الوريثات، ولكن السادة الحقيقيين في ديرات العمورية كانوا أزواجهن، أولئك الأزواج الذين نزلوا كالليل الدامس، المدلهم على أهالي الديرات... نعم، أنا أقر بأن أولئك الأزواج لم يكونوا على قدر واحد من الشر والفساد، بل لعل بعضا منهم كان يمتلك شيئا من رحمة في أعماقه، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجعلها سنة تتبع، لأنه أساسا لم يسمح له بالزواج إلا لهدف كان بعيدا جدا من مجرد توزيع الرحمة... بمرور السنوات، وتتابع الأزواج على كل واحدة من الطيرات العمورية، تبين أن الشر قد تدرج من الهين في البدء، حتى تحول في النهاية إلى شر مطبق، وهنا تكمن عبقرية مالك الشريرة، فقد عرف أن العموريين لا يمكن أن يستسيغوا تملكه لهم، لأنه غريب، فحرص على تمليكهم لأزواج بنات كليب، ولكن بالتدريج، فقد حرص أولا على أن يجعل أهالي الديرات، يتقبلون هؤلاء الذين سيتملكون مصائرهم، فأتى بمن يحوز رضا منهم في البداية، ولكنه كان سيد العارفين بأن عامة الناس لا يحترمون من يحبونهم، بل من يهابونهم، ولأنه كان

يريدهم أن يكونوا ألعابا بأيدي وكلائه، أقر مبدأ (الترحم الوتدي) لهم.

كان "شرموط" واحدا من الصنف الأدنى من اللصوص، لأنه لم يكن يمتلك جرأتهم، فيهاجم الأحياء من الناس ليسرقهم، آثر أن يمتهن سرقة أكفان الموتى بعد دفنهم، كان خبيثا واستطاع أن يعوض جبنه، بفطنته، فلم يستطع أحد أن يمسك به بالجرم المشهود رغم أن أهل المنطقة كانوا على يقين من أنه هو الفاعل، ولكنهم عجزوا عن اثبات ذلك عليه، ولذلك تعودوا لعنه في كل حين، ولم يكن يهمهم إن سمعهم "حثلك" إبنه وهم يفعلون ذلك، ولم يكن هذا ليجرؤ على الدفاع عن أبيه لأنه كان يعرف حقيقته... في ذات يوم، مات شرموط، فإنتظر "حثلك" أن يجتمع الناس ليصلوا على الميت، وأن يشيعوه إلى مثواه الأخير، ولكن، هيهات، لم يأت أحد، فأنفجرت مكامن الغضب في نفس الولد المفجوع وصاح "والله لأجعلنهم يمسحون بترحمهم عليك، كل لعناتهم التي كانت تنثال على رأسك الحبيب يا أبي".

بعد أيام، وفي الصباح التالي لدفن ميت الأهالي الأول بعد موت شرموط، إكتشف أهله ذاهلين، أن جثة فقيدهم متروكة عارية، رغم أنها كانت قد دفنت بكفنها، وقد دق وتد خشبي في مكان حساس من جسده! ولكن لم الخجل، فلنقلها صراحة... في دبره، أفهمتم... أصاب الذهول أهل المنطقة، وكان من الطبيعي أن يشكوا بإبن "شرموط" الملعون، ولكن الشك لوحده لا يكفي، فإضطروا إلى العودة إلى مهمات حراسة قبور موتاهم بعد دفنهم، والتي لم تكن لتمنع تلك الأوتاد من هتك عرض جثث موتاهم، بعد تجريدها من أكفانها... واستمر ذلك الحال حتى بدأوا في النهاية

يترحمون،كلما ذكر اسم "حثلك"، على "شرموط"، الذي كان على الأقل، لا ينتهك حرمة أمواتهم.

من هذه القصة الديروية القديمة التي وثقتها لمالك، الآنسة نبيل، رباه أي إمرأة هذه التي تدعى بمثل هذا الأسم، ولكن لا بأس، لم يكن يظهر عليها إنها إمرأة اساسا... الآنسة نبيل هذه، كانت واحدة من ألمع "المستعمرين" الذين استخدمهم مالك في الديرة، ومن هذه القصة، إستقى مالك مبدأ "الترحم الوتدي" وطبقه بكل صبر حتى نال ما يريد في النهاية، أهالي ديرات مملوكين لـ"طيرات" استحدثهن، وهؤلاء مملوكات لرجال زوجهن إياهم، وهو يمتلك هؤلاء، وبذلك كان "مالك" هو المالك لكل شئ في أرض العمورية، وخاصة الذهب الذي اكتشف بكميات هائلة هناك، وصار هو الطاقة التي جعلت من التقدم العلمي أمرا ممكنا حيث يستخدم لتنقية غاز الهيدروجين الذي يستخدم في خلايا الوقود اللازمة لتشغيل المحركات، التي كانت أقطاب نضائدها من الذهب اللازم حتما لتشغيلها، والتي كان ظهورها في ديرة مالك، هو السبب في حدوث الثورة الصناعية التي جعلت التقدم الحالي في جميع المجالات ممكنا، فكانت هذه النعمة المفترضة، نقمة أخرى بالنسبة للعموريين المخذولين.

زوج مالك، سودة، بعد أن ملكها الديرة، من "حسام ابو الثريد"، فعمل هذا البدوي الذكي، وبواسطة السلطة التي كسبها من عمله زوجا لها، على أن يحول الفوضى التي تعم ملكية زوجته، إلى ديرة يمكن أن يشار إليها باحترام، عمل على ذلك جاهدا، ومستخدما في سبيله كل خصاله الذاتية، وخبرته التي إكتسبها من المستعمر الذي عينه مالك معلما له، ولكن "عبد الغني فيصل" لم يمهله حتى يجني ثمار عمله الدائب، فإنقض

ذات ليلة على مخدعه وهو نائم، وذبحه، ليفرض نفسه فورا على سودة وهي في فراشها، زوجا... منذ تلك اللحظة، لم تعد طقوس الزواج المتعارف عليها، مهمة، فكل المطلوب هو أن تتمكن من إزاحة الزوج الموجود، وأن تصل إلى سودة لتواقعها، فتكون زوجا... أنا لا أستطيع أن أحدد أيهما أكثر منطقية، شرعية مالك أم شرعية الدم، ولكني أعرف أمرا واحدا، وهو أن أولئك الأزواج لو كانوا قد إهتموا بأمر أهل الديرة، لما وصل بؤس حالنا إلى الحد الذي وصل إليه... أكمل عبد الغني الأعمال التي كان حسام قد بدأها، وأضاف إليها بعضا من بنات أفكاره، ونجح، ولكن مؤقتا، فأعماله كان محكوما عليها بالاحباط، لأنه كان قد سن باستيلائه على فراش سودة عنوة، سنة سيئة، وكان لا بد أن يتجرع زعاف الكأس الذي جرعه لغيره، في النهاية... ولكن قبل أن أسترسل، أريد أن أتوقف عند تلك المرحلة التي بزغ فيها نجم "عبد الغني" وأفل... كان واحدا من أهم سمات تلك المرحلة الخطيرة من تأريخ الديرة، هو الصراع المرير الذي خاضه الفكر الديروي، والمتمثل في نشاطات "الجمعية الدائحية" أو بالأحرى، فرعها في الديرة، لأن مركز تلك الجمعية كان في ديرة "ستار حديد" البعيدة، وتتوزع فروعها في جميع أنحاء الدائحة، والفكر العموري المتمثل في نشاطات "جمعية النشور" التي أسسها "قوة الله عشق" في إحدى ديرات الخالات، قبل أن تنتشر في ديرات العموريين الأخرى... كان صراعا مريرا حقا، خاضته الجمعيتان فيما بينهما، رغم أنهما دأبتا على تأكيد أنهما تصارعان نفوذ مالك، يا ليت شعري لم لم توحدا جهودهما في هذا الشأن يوما... على كل حال، أنا أشعر أن أصابع مالك لم تكن بعيدة عن ذلك الصراع، لا لأنه تعود على تأليب خصومه على بعضهم بعضا فحسب، بل لأن "الجمعية

الدائحية" كانت مرتبطة بخصمه الرئيسي "ستار حديد" منافسه على الهيمنة على الدائحة، أيضا، ولذلك كان استيلاء احد أفرادها على فراش "سودة" خطا أحمر بالنسبة لمالك، ولا أتصور أن لديه مانعا في التقرب من أهون الخصمين بسبب ذلك... أنا لا أريد أن العب لعبة التخمينات، فهي لا تفيدني في كل الأحوال، لأني أعرف أن مظاهر العلاقات الدولية في هذا العالم مضللة، فحقيقتها افتراضية، رسمت كما خطط لها، أما ما يحدث بالفعل، وكيف، فإنها بعيدة كل البعد عن الإدراك والفهم من لدن الأفراد، لأنها أخفيت، واستخدمت كل الجهود الإعلامية والإستخبارية لكي تبقى هناك في أعماق الاغوار السحيقة، لكي تدير الأمور في العالم من دون اثارة انتباه أو شك أحد، وحتى إذا ما انتبه أفراد لها، فإن ادعاءاتهم تصبح بلا قيمة بكل تأكيد، في غياب البراهين عليها.

المهم، عبر "عبد الغني فيصل" بعد أن أصبح سيد الديرة، بإمتلاكه فراش سودة، من دون قلبها طبعا، لأنها لم تكن تمتلكه، عبر عن ميول "دير وية" الأمر الذي شجع "الجمعية الدائحية" على التقرب منه، واسناده، وهذا ما جعله عدوا لـ"جمعية النشور" صاحبة الطروحات العمورية، وأنا هنا لا أقصد أن هذه الطروحات كانت هي بالفعل المبرر لكل ما حدث، لا، فهي مجرد طروحات، أما الحقيقة، فكانت تكمن في إستهداف فرج سودة دوما، ومن أجل ذلك، كان لا بد للنشوريين أن يستهدفوا "عبد الغني" وبالفعل، قرروا إغتياله، وهنا برز فتى لا يعرف أحد من أين أتى، ليكون جزءا من محاولة الإغتيال الفاشلة، فكان هذا أول ظهور لـ"عنترة" الذي بدا فيما بعد، وكأن قدره كان قد هيأه ليقفز قفزات غير معقولة، ولا يمكن أن تكون مجرد مصادفات، حتى يكون هو صاحب السيادة حتى قبل أن يبلغ

الثلاثين من عمره، لأنه بات عشيقا سريا لسودة، التي كانت قد أصبحت حينئذ، زوجة لقريبه "محمد جميل" الذي قتل "عبد الغني" وإنتزع سودة، عفوا، فراش سودة، منه.

لما *(♫مي♪)* **أنا خوا** *(♫صول♪)* **قبـ** *(♫فا♪)* **ـيل** *(♫صول♪)*

الـ *(♫لا♪)* **ـصبح** *(♫صول♪)* **عيـ** *(♫صول♪)* **ـسـ** *(♫لا♪)* **ـهـ** *(♫صول♪)* **ـم** *(♫فا مي♪)*

و *(♫صول♪)* **حملو** *(♫سي♪)* **ها** *(♫دو♪)* **و** *(♫صول♪)* **سا** *(♫سي♪)* **ر** *(♫لا♪)* **ت** *(♫صول♪)*

في *(♫صول♪)* **الـ** *(♫لا♪)* **ـهوى** *(♫فا♪)* **الـ** *(♫لا♪)* **إ** *(♫فا♪)* **بل** *(♫مي♪)*

الله، الله، الله، يا لهذا الإنسان اللعين، كيف أمكنه أن يبدع شيئا مثل الموسيقى، كيف إستطاع وهو في دركه، أن يستل من السماء الألحان... (طرب)، (طرب)، (طرب)، وبالمناسبة، أرجو أن لا يتذاكى علي أحدكم ويقول أن صوت إرتطام السمكة بسطح الماء ليس هذا، فأنا أسمعها هكذا، وأنا المتلقي، ولن أسمعها يوما بإذن غيري، (طرب) هي (طرب) بالنسبة لي، ولكم أن تسمعوها كما تشاؤون، بل لكم حتى أن تعجبوا بـ(طش) إذا ما شئتم، أو بـ(بق)، فهذا شأنكم ... ولكن، ها أنذا أحذركم منذ الآن، يجب أن تعرفوا أن مصيركم مرتبط بخياركم هنا... إختاروا (بق) فتكونون أمة (بقا)، وإختاروا خيارا لائقا، خيارا راقيا، تكونون أمة تتذوق، أمة تشعر بالجمال، ولذلك هي أمة تستحق الحياة... لا، لا، أنا لا أقصدكم أنتم، بل هم... ولكن، أتعرفون ما الذي يمكن أن يقولونه إذا ما سمعوا مني هذا الكلام، أنا أقول لكم، سيقولون أن أجدادهم من أوجدوا الموسيقا، وهم الذين إخترعوا آلاتها، فكيف أجرؤ على قول هذا لهم... حسنا، هذا صحيح، وبالنسبة لي شخصيا، فأنا أرى أن هذا أمر طبيعي لأن أجدادهم هم من (إخترعوا) الحضارة على كل حال، ولكن ما الجدوى من ذلك بالنسبة لنا، وهل سيغير من حاضرنا المحزن، ومصيرنا المحتوم... لقد إنتبه أجدادنا القدامى للصوت فاكتشفوا الموسيقا، وصنعوا الآلات المطلوبة...

طوروا إكتشافهم، ولكنهم توقفوا، في مرحلة ما، توقفوا... أما الموسيقا فلم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بنعمة التناغم... (الهارموني)، وهو ما عجز عنه أولئك الأجداد، ولا بأس، فهم قد إكتشفوا وطوروا ما إستطاعوا حتى صار عندهم اللحن... (الميلودي)، وهذا بحد ذاته إنجاز كبير، ولكن قدر الإنسان أن لا يتوقف، بل يجب أن يتطور باستمرار، ولم يكن ذنب أولئك الأجداد الطيبين أنهم لم يعرفوا أن (ربع التون) الذي آمنوا به هو الذي كان يمنعهم عن الوصول إلى درجة التناغم المطلوب... هذا الربع الذي كان من ألغاه هو الذي هيأ السبيل أمام قومه للوصول إلى قمة التناغم... إلى (الهارموني) الذي هو فضيلة العمل الجماعي وتفوقه على العمل الفردي في الأهمية بالنسبة لحياة الإنسان... أفيجدر بنا إذا أن نرجم أجدادنا لأن مثل هذا الأمر قد غاب عنهم... لا يا سادتي، بل علينا، وبكل بساطة أن نلوم أنفسنا نحن لأننا عجزنا عن أن نقدم لأنفسنا شيئا... لقد فعلوا هم ما عليهم، فلم يكتفوا بأن طوروا لغتهم، وهذه سمة حضارية بكل تأكيد ،حتى صارت شعرا، بل أنهم إرتقوا بشعرهم حتى صيروه علما، أو كان كذلك حسب مقاييس عصرهم على الأقل، أما (ربع التون) فقد كان أمرا طبيعيا بالنسبة لهم لأنه نابع أساسا من روحيتهم، مثلما كان الغاؤه امرا طبيعيا، لأن من يمتلك عقلا لا يقبل أنصاف الحلول، أو أرباع التونات... المهم، أن الشعوب تستجيب للمحفزات وفق صفاتها الرئيسة، وكذلك يفعل الناس، بل الحقيقة هي أن هم يختلفون في تلقيهم للأشياء، ولهم في الأمور آراء مختلفة، فقد قال كريم التقي عن عنترة ذات يوم "أنه في الأصل من بقايا طائفة قديمة كانت قد عاشت منذ القدم في الديرة، تركوا عوائل بأكملها فيها عندما غادروها مرغمين، وبمرور الوقت اندمجت

تلك العوائل في المجتمع لأنهم اتخذوا دين أهل الديرة دينا لهم، في الظاهر طبعا، ومثل هذا كان يحدث دائما في الأماكن الغنية والمهمة من الدائحة، لتبقى بعد ذلك عيون المختارين من الطائفة، تراقب أحوالهم عن بعد وترفدهم بكل ما يمكن أن يقوي مراكزهم في الأماكن التي يعيشون فيها ولذلك يزعم أن معظم أزواج بنات كليب يكونون من هؤلاء، ودليلي على ذلك، هو "دبورة" جدة الدعابسة التي تنتمي لتلك الطائفة" فينبري بهلول المدلول ليؤيده ويضيف "حتى أن إسمه ليس عنترة كما يدعي، بل هو (تأبط شرا) كما أسمته أمه" وعندما أقول له متبرما "ولكن ما دخل هذا بما يقوله التقي" يقول وهو يحاول أن يتصنع دور الواثق من حكمته "ألم تلاحظ يا أستاذ أن الأم بهذه التسمية أثبتت أنها كانت تشتغل بالتنجيم وإلا كيف كان يمكنها أن تعرف بما قد يفعله ولدها عندما يكبر" ثم يضيف مسرعا ومن دون منحي فرصة للإعتراض على ما قال "ومن يمكن أن يتصدى لهذه المهنة التعسة غير أبناء تلك الطائفة الملعونة".

أما مازن المازني فيقول عنه "أنه لقيط لأن أمه نفسها لا تعرف أباه كما هو شأن البغايا دائما، أما الاسم الذي أطلقته عليه عندما ولد، فلم يعرفه أحد أبدا لأنه ضاع منذ أن أطلق عليه أترابه اسم (عنترة) وهو لم يزل صبيا صغيرا يلعب معهم في الحارات، أما لماذا أطلقوا عليه هذا الاسم فلأنه قال لهم ذات يوم أنه يحب عنترة الشاعر الفارس، وعندما سألوه عن السبب قال لهم، لأنه هو من قال، الخيل والليل والبيداء تعرفني، والرمح والسيف والقرطاس والقلم، فغرقوا في الضحك استهزاء به، ولم يتوقفوا حتى أبرحهم ضربا جميعا كما إعتاد معهم عندما يغضب منهم، ومع ذلك أصبح إسمه عنترة منذ ذلك اليوم لأنهم أصروا

على تلقيبه به فيما بينهم حتى أصبح واقع حال بالنسبة له، فإرتضاه ولم يفارقه حتى النهاية".

حينذاك يقول سلام المرهون وهو يهز رأسه بأسى "لعل في هذا بعض من مأساة هذا الرجل الذي افلح في تشخيص شخصية شاعر مثل عنترة، لأنه كان جديرا بمثل هذا التفاخر، رغم أنه لم يقل هذا الكلام، وهذا كان جزءا من عجز عنترتنا، فقد كان حاد الذكاء، قوي الملاحظة، ولكنه لم يكن مؤهلا أبدا لمعرفة كل الأسرار في هذا العالم وهو ما لم يعترف به يوما، لأنه كان دائما يجد أمامه من يستصوب رأيه، دون أن يجرؤ أحد على ذكر أخطائه أمامه وهذا هو بالضبط أحد اسباب مأساته ومأساتنا، فقد كان يوزع الخوف، بعدالة فذة حيث يذهب، منذ صباه وحتى أصبح زوجا لسودة".

ولكن الذي أعرفه أنا عنه، هو أنه ولد يتيما لأن أباه الدعبسي الفقير كان قد مات، وهو جنين في بطن أمه، ولأني أعرف أن شخصية الإنسان تتكون خلال السنوات الخمس الأولى من حياته، يبدو لي وكأن الأقدار خططت لأن تتكالب العقد والأمراض النفسية على هذا الوليد السئ الحظ، فقد تزوجت أمه ثانية، وهو صغير، فعانى الكثير من العقد بسبب هذا الزواج، لأن الزوج كان قاسيا، فأذاقه شر الهوان، وهذا أمر ليس بغريب في مجتمع لا يقيم وزنا لمشاعر الأطفال، فهم يعتبرونهم مخلوقات من درجة أدنى، حتى إذا كانوا من أصلابهم، فكيف سيكون الأمر إذا لم يكونوا كذلك. مفهوم التربية عندهم، هو أن توفر لهم كسرة خبز فقط، وفي المجتمع المدقع الفقر الذي ولد فيه، كانت حتى هذه الكسرة، تعز أحيانا، وبعد ذلك، الويل لمن لم يحسن التصرف وفق تقاليدهم البالية وقيمهم السقيمة، أو حتى للذي شاء

حظه أن تقع اعينهم عليه وهم في واحدة من لحظات البؤس الكثيرة، التي يعانون منها، لشتى الأسباب.

عاش عنترة حياة صعبة بعد أن تزوجت أمه، أما بعد أن ولدت أمه إخوته غير الأشقاء، فقد أصبحت حياته جحيما، خاصة وأنه لم يكن بالطفل الهادئ أو المستكين، وكان هذا الجحيم هو الذي أنتج تلك الشخصية التي بدت وكأنها قدت من حجر، فيما تكفل التداخل ما بين القسوة والظلم ومعاناة الفقر بإضفاء كل التناقضات التي عبر عنها عنترة فيما بعد بشخصيته، وهو يكاد يرتجف حنانا عندما يداعب الأطفال، فيما كان يستطيع أن يقتل أهاليهم من دون أن يرف له جفن.

في مجتمع لم يكن مؤمنا بالعلم، و لايعترف بمعرفة غير ما تراكم عنده من خبرات هزيلة، كان مقدرا لعنترة أن يبقى ضائعا على هامش الديرة، فقد نشأ وهو يراقب أقرانه واقربائه الذين يعيشون في المدن بحسد، لأنهم كانوا يذهبون إلى المدرسة التي حرم منها، فبدا وكأن العقدة التي استوطنته بسبب اضطراره إلى التخفي في الأرض الخلاء، وتحت حراسة الظلام، ليبعد عن أعين الآخرين، لكي يستطيع جسده أن يتخلص من فضلاته، لم تكفه، لتضاف إليها عقدة الدراسة، ولكنه كان قد كبر قليلا، وعرف إنه يستطيع أن يغير قدره هذه المرة، فأصر على الذهاب إلى المدرسة في المدينة البعيدة، وكان له ما أراد، فكان هذا القرار، هو مشاركة الأقدار في الاعداد لمرحلة هائلة من مراحل حياة الديرة العجيبة... ولله در المدلول بهلول، لكم كان يضحكني أحيانا، فقد قال ذات مرة "نشأ عنترة شقيا لا يهاب أحدا، بل كان الآخرون يهابونه، لأنه كان يستطيع أن يخطط ويدبر، ثم يقتل من دون أن يترك أثرا، وقد

سقط أول ضحية له وهو لم يزل في سن مبكرة جدا، ولذلك إنتقاه النشوريون الذين كانوا يؤمنون أن القوة هي الكفيلة بايصالهم إلى مخدع سودة، لينضم إليهم، فكان ذلك الانتقاء، وبالا علينا، وعليهم في النهاية" قال هذا الذي كان يعرفه كل فرد في الديرة، وكأنه يعلن سرا خطيرا.

في السنوات التي كان يستمد فيها عنترة القوة من علاقته السرية بسودة، دأب على جمع الخيوط بيده من خلال استبعاد منافسيه المحتملين على قلب سودة، من أعضاء جمعية النشور العمورية، وإحلال من يرى فيهم خضوعا لسيطرته، محلهم، وعندما شعر أن الثمار قد نضجت، وحان قطافها، فاجأ محمد جميل، الديرة، بل ديرات العموريين، والدائحة نفسها، بإعلانه أنه قد بلغ من الكبر عتيا، وأنه لم يعد يستطيع أن يؤدي واجباته الزوجية تجاه العزيزة سودة، ولذلك قرر أن يطلقها، ليتزوجها ربيبه وحبيبه، عنترة الشاب الأقدر على التعامل مع احتياجاتها المقدسة عندهم، فكان هذا هو الطلاق الوحيد في حياة سودة المليئة بالأزواج... عن هذا الطلاق، يقول المازني "أن محمد جميل عندما رأى نفسه محاصرا برجال عنترة، تلفت من حوله، فلم يجد من يمكن أن ينقذه، فوافق على طلب عنترة أن يطلق سودة علنا، لأنه عرف أن بضعة سنوات من الحياة ولو كانت في الإقامة الجبرية في بيته، أفضل له من أن يقتل فورا وأن يتهم الأبرياء بقتله" يوافقه المدلول الرأي، بحركات من رأسه المهتز، فيما يقول المرهون معترضا "ولكن الذي أعرفه هو أن إبن جميل هذا كان الوحيد الذي يمكن أن يكبح جماح عنترة، لأنه كان يرى فيه الأب الذي حرم منه، فلا يعقل أن يتصرف معه على هذه الشاكلة" ليعلق كريم التقي عندها قائلا "دعونا الآن من هؤلاء، كفرة يتنافسون على قلب عاهرة، والله إن

لم ترعو سودة وتختار زوجا مؤمنا يتزوجها شرعا، لن ترتاح يوما، ولن تدعنا نرتاح".

بالنسبة لي، أنا لا يهمني من يمكن أن يمتطي سودة ليملأ لياليها آهات وصراخ شبقي، فكلهم عندي سواء، ولكن الذي حز في قلبي، هو أن ذلك التبادل الزوجي حدث والديرة تبدأ خطواتها الأولى على الدرب الذي كان سيؤدي بها إلى مستوى آخر من نوعية الديرات، ولكن فجأة، وبعد أن كانت الديرة تضطر دوما لخوض الحروب الدفاعية، أصبحت هي التي تشن الحروب، بعد أن إمتطى عنترة، صهوة سودة علنا، فكان هذا إيذانا بانتهاء العصر الذهبي القصير جدا، للديرة، لأن الحروب، وبغض النظر عن مدى مشروعيتها، هذا إذا كانت لها مشروعية أساسا، تبقى مكلفة جدا.

في اللحظة التي أمسى فيها عنترة، زوجا لسودة، تحقق أكثر من الحلم القديم الذي ولد في أحضان الفقر واليتم، وتحول هدف الوجاهة المحضة، البسيط، الذي كان قد استله من كل الحرمان والإهمال اللذين عانى منهما في طفولته، إلى هدف أكبر، وأكبر بكثير، بدأ يحلم أن يكون الرجل الأول، لا في الديرة وحسب، بل في كل المقاطعة، وفي الدائحة ايضا، فبدأ بذلك ينسج خيوط المسرحية الدرامية الكبرى التي شهدها الملايين، بل والمليارات من البشر... نظريا، كان بإمكانه أن يطلق سودة بعد أن تحولت من مجرد خليلة، إلى زوجة له، لكي ينقذ نفسه من القدر المشؤوم الذي كان قد إختاره لنفسه، فهو قد حقق في تلك اللحظة حتى أكثر مما كان يجرؤ على الحلم به وهو طفل أو صبي او شاب، لقد واتته الفرصة لأن يتحول إلى مثال يحتذى به فيما لو طلق سودة في تلك اللحظة، كان يمكنه أن يكون أسطورة لا مجرد مثال... ولكن العقل البشري لا يعمل

هكذا، فهو عقل لعين، مهووس ومدنس، تعود أن ينتقل بطموحاته إلى مستويات أعلى، كلما تهيأت له الظروف، فكانت هذه السمة هي التي تقدمت بالبشرية، وهي السبب أيضا في المآسي الإنسانية... عبر عنترة بزواجه من سودة، إلى مرحلة اللاعودة، فقد تكالبت عليه طموحاته المتنامية وأحلامه المتجددة، وتضافرت مع الصورة الجديدة التي بدأ يراها في أعين المحيطين به، صورة الإله، التي لم يعهدها في نفسه، قبل أن يمتلك مصائر وأعناق الملايين... كان بإمكانه على الأقل أن يغدو أكثر إطمئنانا وحكمة، ولكنه لم يستطع أن ينسى أصله المتواضع، وهوان أمره عندما كان صغيرا، فكان قدره أن يكون متطرفا، ليسير بالديرة التي امتلكها، على درب الآلام والمعاناة.

حالما بدأت أحلامه تسع فراش سودة الوثير، بدأ عنترة بالاهتمام بكتابين لا ثالث لهما، ليغترف منهما العبر والتجارب التي تصور أنها كفيلة بتحقيق ما يصبو إليه... أول الكتابين كان "مذكرات ستار حديد"، ستار، الإنسان المعدم الذي شق طريقه نحو رئاسة "الجمعية الدائحية" فأصبح بذلك حاكما لديرته المتخلفة، وإستطاع بقسوته وبطشه أن يحولها خلال سنوات معدودات إلى ديرة يحسب لها ألف حساب، بل أصبحت ثانية إثنتين إذ يشار إلى عمالقة الدائحة، وأذاق منافسه مالك، مر العلقم قبل أن يموت... إستطاع ستار بالفعل أن يجترح معجزة بما فعله في ديرته، ولكن ذلك كان على حساب الملايين من البشر الذين فقدوا حياتهم لإعاقتهم عجلة التقدم، أو حتى لمجرد ضرب المثل للآخرين لكي يتعظوا، هذا المجرم، السفاح، الـ، ولكن، مالي وله، بل مالي أريد أن أكيل لشخص بمكيال خاطئ، هو لم يرشح نفسه لمسابقة الشخص الأكثر إنسانية، لكي أقف له بالمرصاد هكذا، صحيح،

أنه إذا فعل ذلك فإن قائمة ترشيحاتي لن تتضمنه ولو كانت تسع مليارات الأسماء، ولكنه كان مجرد حاكم، والحكام لا علاقة لهم بالشؤون الإنسانية لأن همومهم تختلف، ويكفيهم ما يجدونه من عناء، ووخزات ضمير، في تحقيق أهدافهم... أنا ساحدثكم عن الحكام بكل تأكيد، لأن أزواج طيرات العمورية يعتبرون منهم... بشكل أو بآخر، أولا، وثانيا، لأني سأحدثكم بكل تأكيد عن الكتاب الثاني الذي كان يستهوي عنترة، وهو الكتاب المقدس لطائفة الحكام الضالة عن كل القيم الإنسانية الدائحية، ولكن قبل أن أفعل ذلك، أريد أن أحدثكم عن كاتب ذلك الكتاب، "الحارث بن قردان الزيادي"، الحكيم الذي كان يؤمن أن التجمعات البشرية لا يمكن أن تتطور إلا لأسباب طبيعية، والطروحات المثالية لا يمكن أن تكون من ضمنها، لأنها عند الإنسان، مجرد إدعاء، أو أحلام طوباوية، وإن الإقتصاد والسلطة هما محركا التأريخ البشري، الأساسيان، وكل ما عداهما هو أمر ثانوي... ولواقعيته المفرطة، أدمن على حضور مجالس الحكام وفضلها على سحر الخلوات وصوامع الإعتزال التي ولدتها أوهام الحكماء المثاليين... في ذات يوم قال الحاكم فجأة "حدثني يا حكيم عن الحكم" كان لحد تلك اللحظة قد تعود على أن ينتبذ لنفسه مكانا قصيا من المجلس ويبقى جالسا بصمت ينصت للآخرين، ولذلك عندما توجه الحاكم إليه بالكلام، إضطرب، ولكن دأب عقول الحكماء أن لا تعجز حتى إذا ما إضطربت قليلا، فمن خلال حجب الإضطراب، تسللت نكتة كان قد سمعها بالأمس في مكان آخر، إلى عقله، فقال بسرعة بديهة يحسده عليها الرجال العاديون "إنه تطبيق محكم لمبدأ (الفئران الدائخة) يا مولاي" فساد الصمت في المجلس، وتعلقت الأعين بالحاكم تترصد ردود فعله إزاءما سمع، ولكن الحاكم المندهش قال متسائلا "مبدأ

الفئران الدائخة؟ ولكني لم أسمع يوما بمثل هذا المبدأ" فقال الحكيم الذي كان قد إسترد هدوءه ورباطة جأشه "عذرا يا مولاي، ولكن لهذا وجد الحكماء، لشرح ما غمض، ولكن يجب علي أولا أن أقص عليك قصة" فقال الحاكم بلهفة "هات ما عندك".

قال الزيادي (بلغني أيها الحاكم أن ملكا قديما لاحظ علامات الوجوم وعدم الراحة على وجه وزير له فسأله عما به، قال "لا شئ يا مولاي" ولكن الملك كان على يقين من أن هنالك شئ يثقل بال وزيره الذي لم يكن إلا وزير مظاهر فقط، ولم يزده الإنكار إلا يقينا بالعكس، فصاح غاضبا "قل لي ما بك، ويحك" فإضطرب الوزير إضطرابا هائلا، وقال بصوت مرتجف "ولكني لا أستطيع أن اقول ما بي يا مولاي" "ولم" قال الملك، فقال الوزير "خوفا من غضب جلالتكم" فضحك الملك الذي كان يعرف مدى ضحالة وتفاهة تفكير وزيره، ولأنه كان يومها في واحدة من نوبات الكرم والأريحية، التي تنتابه أحيانا، وقال "هات ما عندك، ولك الأمان" فقال الوزير بعد أن إزدرد لعابه بصعوبة "يا مولاي، لقد جعلتني وزيرا وهذا الأمر أثار حنق وغيرة الكثير من الحاسدين، ومع ذلك أنا لم أشعر يوما بلذة الحكم الحقيقي لأني، وكما تعرف، مجرد وزير لإكمال مظاهر المملكة الضرورية" فأغرق الملك في الضحك قبل أن يقول "ثكلتك أمك، جعلتك وزيرا وأنت لا تستحق حتى أن تكون حاجبا، ومع ذلك تشكو، فما الذي تريده يا جاحد" فقال الوزير بجرأة لم يعتد عليها يوما "أريد أن أحكم بنفسي ولو ليوم واحد فقط" فقال الملك "آه، اتتصور أن الأمر بهذه السهولة يا مسكين" ثم صمت مفكرا لوهلة وقال "حسنا، سأسمح لك بذلك، ولكن عليك أولا أن تجتاز إختبارا، إذا نجحت به، سأدعك تحكم" كاد الوزير أن يقفز من شدة فرحه لو لا أنه تمكن من

ضبط نفسه بصعوبة، قال "بوركت يا مولاي، اي إختبار تشاؤه، فقط حقق لي أمنيتي" أرسل الملك في طلب عبد له، وهمس في أذنه شيئا قبل أن ينطلق العبد لتنفيذ الأوامر الملكية التي صدرت له... وما هي إلا ساعة أو بضع ساعة حتى عاد العبد وهو يحمل صندوقا صغيرا وضعه عند ساق الملك الجالس على عرشه، ثم انسحب... دعا الملك وزيره وقال له "هذا صندوق فيه اثنتا عشرة فأرة، أريد منك أن تعلم الفئران النظام بحيث تستطيع أن تجعلها تقف متجاورة في صف واحد من دون أن تتحرك، إذا نجحت في ذلك خلال ثلاثة أيام، سأجعلك تحكم هذه المملكة لمدة يوم كامل، مفهوم" لم يكلف الوزير نفسه مشقة التساؤل مع نفسه عن كيفية فعل الأمر، بل تلقف الصندوق بأيد ترتجف فرحا ومضى مسرعا... في البيت، أقفل الباب على نفسه في غرفة منعزلة، وفتح الصندوق، فتقافزت الفئران السعيدة بتحررها أخيرا، وانتبذت كل منها مكانا بعيدا عن الأخريات... أمضى الوزير المسكين ساعات عديدة في محاولة لجمعها وإعادتها في الصندوق فقط... جلس بعد ذلك حائرا أمام الصندوق وهو لا يعرف كيفية التعامل مع هاته المخلوقات الملعونة التي لن يثبتها في مكانها شئ عندما تشعر بخطر، وهل هناك أشد عليها خطورة من إنسان، سواء أكان يحاول أن يعلمها النظام، أم لا... فكر أنه يستطيع أن يثبت بيديه إثنتين منها، وحتى إذا ما إستعان بقدميه، فإنه سيستطيع أن يثبت أربعة، وبعملية حسابية بسيطة إكتشف أنه يحتاج إلى ثلاثة أطقم من الأطراف، لا يمتلكها... فكر بالإستعانة باثنين من رجاله لمساعدته، فستة من الأيدي وست من الأرجل كافية، ولكن شرط الملك، لعنه الله، كان واضحا، أن يقفن هن، لا أن يثبتن بالأيدي والأقدام... ورغم البله الذي كان يتمتع به ذلك الوزير، فإنه لم يكن من الغباء المبين الذي

يجعله عاجزا عن إدراك إستحالة تنفيذ ما طلبه الملك منه خلال ثلاثة أيام، ولذلك آثر أن يستعين بشفاعة الإرعواء، فبادر في اليوم التالي إلى إعادة الصندوق ووضعه حيث كان تحت قدم الملك وهو يقول بتضرع "رحماك يا مولاي العظيم، لقد إرعويت عن غيي ولن أعود إلى مثل ما فعلت مرة أخرى" فضحك الملك وقال "ولكن لم يا وزيري العزيز" فقال الوزير "لقد طلبت مني أمرا مستحيلا" قطب الملك جبينه وقال "وما تقصد أيها اللعين" فقال الوزير مذعورا "أنا لا أقصد شيئا يا ولي نعمتي، ولكني لا أتصور أن ما طلبته مني يمكن أن يحققه إنسان خلال ثلاثة أيام، أو ثلاثة أشهر أو حتى ثلاث سنوات، بل يحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير، هذا إذا تمكن من ذلك" فقال الملك فورا "وإذا فعلته الآن، وأمامك" لم يحر الوزير جوابا هذه المرة، بل بقي صامتا لا يعرف ما يقول وقد إمتلأت نفسه شكا بما سمع... تناول الملك الصندوق، وهزه هزا عنيفا لدقيقة أو دقيقتين قبل أن يفتح الغطاء ويقلب الصندوق... تساقطت الفئران، وثبت كل منها في المكان الذي سقط به، وكأنه حجر... حملها الملك الواحدة بعد الأخرى، وجعلها صفا واحدا حافظت هي على نسقه، لأنه حتى الشجاع منها، لم يجرؤ على محاولة التحرك في هذه الدنيا الغريبة التي ألفى نفسه فجأة فيها، فقد كانت تدور بسرعة لم يتعود على مثلها من قبل، قال الملك للوزير الذي خان دمه، وجهه، وفر، ليتركه شاحبا، وهو مرعوب "أرأيت يا فالح، يا من يريد أن يحكم ألف ألف من البشر، وهو لا يستطيع تدبير أمر اثني عشر فأرا هزيلا"... وهكذا يا صاحب السعادة ذهبت هذه القصة التي حدثت في الزمن القديم مثلا، ومن ثم أصبحت مبدأ للحكم يدعى مبدأ الفئران الدائخة)

ضحك كل من كان في المجلس، وطرب لما سمع من الحكيم، ولكن لم يجرؤ أي منهم على المجاهرة بأنه لم يسمع بمثل هذا المبدأ من قبل، خوفا من إتهامه بالجهل، فهم يعرفون جميعا أن الحكماء لا ينطقون عن هوى، ولا يعقل أن يحول أحدهم نكتة، إلى مبدأ خطير... ضحكوا جميعا، وإستحسنوا ما سمعوا، إلا الحاكم الذي قال بهدوء للحكيم "ولكننا نتحدث هنا عن شعب بأكمله، فهل ترى أني يمكن أن أضعهم في صندوق لأفعل ذلك" ران الصمت فجأة على المجلس، وإتجهت الأنظار إلى الحكيم الذي كان لحظتها قد تسلح بكل أدوات حكمته وذكائه ليقول "فامهلني يا سيدي فترة، آتيك بعدها بكتاب يغنيك عن ذلك الصندوق".

أدرك "الحارث الزيادي" أن الفرصة التي لطالما إنتظرها قد واتته، فإستعان بأساتذة السحر، وكل من يعرفهم من الوسطاء الروحانيين، لمساعدته في جعل روح جده "زياد" تتقمصه رغم المسافة الهائلة التي كانت تفصل بين كينونتهما الزمانية، وعندما تمكن أخيرا من تحقيق تلك المعجزة، كتب خلال ليال معدودات، وهو في حالة هي أشبه بالهلوسة، أو الجنون، كتابا سماه (الرسالة الريادية في التماهي مع الروح الزيادية) شرح فيه كل ما يتعلق بفنون التعامل الصحيح للحاكم، مع المحكومين... لقد إنتبه هذا الحكيم المفرط الواقعية إلى طبيعة المذاهب التي تتناقض كليا بروحها الأخلاقية، مع حقيقة السياسة، ومع ذلك أوصى الحاكم أن يستخدمها، لأسباب نفعية طبعا، ولذلك نصحه أن يساند مذهبا معينا حتى إذا كان يعتقد بفساده، لأنه ضروري له، لا لخدمة الفضيلة، التي يجب عليه أن يتلبس لبوسها على كل حال، ولكن لتمكينه من السيطرة على عامة الناس التي تؤمن بذلك المذهب... ولأن الغاية كانت تبرر الوسيلة عنده، نبه الحاكم إلى أنه

ليس من المجدي له أن يكون شريفا دائما، ولكي يتمم نعمته عليه، اخبره أنه من الأفضل له أن يخشاه رعيته، على أن يحبوه.

لم يصادف ذلك الكتاب هوى في نفس الحاكم، رغم الجهد الهائل الذي بذله الزيادي في وضعه، فأهمله وعامله باستخفاف لأنه لم يتصور أبدا أن يكون هناك من يمكن أن يعلمه شيئا في هذا الشأن وهو النبيل الذي حاز بمولده كل أسباب المجد والسؤدد، وبهذا، أصبح آخر الحكام من الطراز القديم الذي كان سائدا حتى ذلك الحين، فقد وقع الكتاب في أيدي الطامعين بكرسيه، وأصبح نبراسا لهم وهم يخترقون حصونه الحصينة ويسقطونه.

لقد قرأت شخصيا هذا الكتاب، وأكثر من مرة، لا لأني كنت أفكر ان أكون واحدا من مجموعة سودة الفريدة، من الأزواج الطامعين، رغم أني لا استطيع أن أبرئ نفسي من مثل هذه التهمة، وإلا كيف أبرر إنتمائي يوما إلى "جمعية النشور"... سيقول غيري أنه إنتمى لأسباب مبدئية، أما أنا فقد مت مثلما تعرفون، ولا يليق بي أن أكذب بعد الآن، حسنا، أستطيع أن أقول أن ذلك الإنتماء لم يكن إلا طمعا في حظوة إجتماعية، أو مركز يكفل لي بعض المكاسب، ولكني كنت دوما أعرف حدودي، فلم اتجاوز حدود المكتسبات الصغيرة، أما سودة فـ... هيا، لقد قلنا بلا كذب... ولكن مالنا وهذا الحديث الآن، فالذي أردت قوله هو أني قرأت هذا الكتاب لأفهم، أن أفهم هذا الرجل، وأن أفهم طريقته في التفكير التي هدته إلى أن يضع كتابا أصبح مقدسا لدى أصحاب المطامع، اكتشفت بقراءاتي المتعددة، أن الرجل لم يبن أحكامه إلا على الملاحظة، ملاحظة الناس وطبيعة أهوائهم وتصرفاتهم وإستقى من ذلك أفكاره التي صاغها

بنودا ووصايا ، أثبتت صوابها في كل مرة طبقها فيها حاكم ... أتعرفون ما يعني ذلك، أنا ساقول لكم ، إنه يعني أن الناس، معظم الناس، يدعون المثالية ، ولكنهم لا يتصرفون إلا وفق مفاهيم السياسة ... من حسن حظي أني اتكلم الآن أمامكم أنتم ، لأنه لو سمع مني بشر هذا الكلام لملأوا الدنيا صياحا وضجيجا إعتراضا علي، فهم لا يحتملون حقيقة أنفسهم ، خاصة إذا سمعوها من لسان غيرهم ، ولكنكم قوم طيبون وأنا سعيد جدا لأني حظيت بكم ، مستمعين .

لـمـا (♫لا♪)

أ (♫سي♪)**نـا** (♫لا♪)**خـــ**(♫صول♪)**ـــو** (♫فا ♪)**قـــ**(♫سي♪)**بـيـــ**(♫لاصول♪)**ـــل** (♫فا ♪

/ **الـــ**(♫مي♪)**ـــصبـــ**(♫فا ♪)**ـــح** (♫صول♪) **عيـــ**(♫سي لا

صول♪)**ســـ**(♫فا ♪)**ـــهم** (♫مي ري♪)

و (♫فا ♪)**حملـو** (♫صول♪) **ها** (♫لا♪) **و** (♫دو ♪)**سا** (♫سي♪)**رت**(♫لا♪)

في(♫فا صول♪) **الـهوى**(♫لا♪) **الـــ**(♫فا مي♪) **إبـل** (♫ري♪)

ترى، ما الذي يجذبني إلى الموسيقا هكذا... انا أقول لكم، الجمال، نعم الجمال، ولكني أرجوكم أن لا تسألوني ما هو الجمال لأن تعريفه أمر مستحيل، فهو يتعلق بالعقل الواعي للإنسان وعقله اللاواعي، وكلا العقلين يتحركان بطريقة مختلفة داخل الإنسان نفسه، فكيف يمكن جمعهما مع عقول مليارات أخرى من البشر لتكوين تعريف محدد للجمال... ثم ما همنا من التعاريف، ألا تكفينا المتعة والسعادة الغامرة التي نشعر بها عندما نتعرف على الجمال في الأشياء من حولنا، وليس بعد الطبيعة من شئ يحتوي على جمال هائل، مثل الفن، كل الفن... ولكن، لكم كان بودي أن أحذر قومي من فخ الجمال، نعم، فخ الجمال، فالفن هو خلق لعالم جديد هو غير العالم المعاش، عالم رائع تختفي فيه كل منغصات الحياة، وتغور فيه المشاكل... ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو "ثم ماذا؟!" لقد غارت مشاكلنا في عالم خيالي، وإختفت منغصات حياتنا في زمن وهمي، ولكن حياتنا ستبقى على ما هي عليه، وسنعود إليها حال مغادرتنا لذلك العالم الجميل الذي أوهمنا أنفسنا به ولو لحين، وعندها سيكون وقع الخيبة أكبر، وتصبح العودة أكثر ألما من لحظة المغادرة المؤقتة... الجمال، إعادة ترتيب لحياة مملة ورتيبة، أما الحياة التي تعاش على تخوم الموت

وتتداخل معه، فلن يرقعها جمال مزعوم، بل يجب التصدي لها بالعقل والمعرفة والنية الصادقة، لمحاولة تغييرها... ولكن، الحق يجب أن يقال، فالفن يبقى فنا، ويجب ان يكون جميلا حتى إذا كان هادفا... نعم، كل الفن يجب أن يكون كذلك ومن ضمنه الكتابة ... بل يجب أن تكون الكتابة هي رأس الحربة في الصولة على الواقع المرفوض، من دون أن تفتقد شرعيتها الجمالية، ولكني لم أفهم يوما كيف يمكن وصف كتاب مثل (الرسالة الريادية في التماهي مع الروح الزيادية) بالجميل، لا، لا يمكن أن يكون مثل هذا الشئ جميلا بكل المقاييس، ولكنه مع ذلك كتاب خطير جدا جعلني أفهم أشياء كثيرة، فمع قراءتي الأولى لهذا الكتاب، إكتشفت أن مالكا لم يكن حاكما بالمعنى المألوف، بل هو لم يكن حاكما بأي معنى... الا يقولون أن الإنسان يولد وفيه شئ من إسمه، حسنا، كان هو مالكا، ولم يزل، هكذا، بكل بساطة، مالكا، ومالك هنا تعني كل شئ، لأن الحاكم إذا ما امتلك، وهو يمتلك بكل تأكيد، فإنه يمتلك بحدود لا يستطيع أن يتعداها مهما كانت ديرته غنية، أما المالك، فهو نوع من إله، يمتلك السطوة والنفوذ والأموال، ويمتلك حكام الديرات الصغيرة، والكبيرة أحيانا، بل أنه يمتلك حتى أهل الديرات التي ابتليت بحكامها... مالك ليس بحاكم، ولكنه فضل أن يكون لديرته حاكما من ناحية المظهر لكي لا تبدو وكأنها تختلف عن الديرات الأخرى، فدبر تدبيرا ليصوغ شكلا مذهلا من أشكال الحكم، وأقول شكلا فقط، لأن المرء إذا ما تمعن فيه، وتعرف على أسراره فإنه سيصاب بالدهشة، بل بالصدمة من شدة تفاهته... لقد أقنع مالك أهل ديرته أن السيدة "غربية" هي طيرة ديرتهم، وإليها ترجع كل خراجاتها بحكم النص المقدس الملزم، الذي لم يطلع عليه أحد، ثم أقر قانون "المزايدة العلنية

الحرة" الذي تعرض بموجبه سيدة الديرة الأولى للمزايدة كل أربع سنوات، ليتقدم إليها المرشحون الذين يكونون، ويا للعجب، دائما من عائلات محددة بعينها، رغم أن العقد الإجتماعي في ديرة مالك يؤكد أحقية الجميع في ذلك، المهم، يستقر المزاد في كل مرة على المرشح المفضل في النهاية، فيزف إلى السيدة "غربية" في إحتفال مهيب، يصور تلفازيا، يعلن فيه "السيد الأول" للديرة خلال السنوات الأربع القادمة... أما تفاصيل ليلة الدخلة، فيتم نقلها بواسطة التلفاز المغلق المنقول سلكيا بشكل محدود جدا، ومع ذلك يشهد الكثيرون، "غربية" الطيرة المقدسة، وهي تلتهب شبقا بين يدي المرشح السعيد الحظ، قبل أن تطفأ نيرانها، لا بسبب الإشباع، وإنما بسبب الإحباط الذي كانت قد نسيت أمره لمرور أربعة سنوات على آخر مرة شهدت فيها إحتفال فحولي، بجسدها الأنثوي... يا لمالك الحقير، هو يمتلك من الأموال ما لا يستطيع أن ينفقه حتى لو عاش لالاف السنين، ومع ذلك هو يحرص على أن لا يسرق الحاكم الصوري الذي يجعله زوجا للسيدة الأولى من الأموال العامة، إلا بما يشاء هو، أي مالك، فيختاره أولا من عائلة غنية، ويجعله ينفق من أمواله الخاصة لكي يحوز رضا السيدة، ثم يحدده بكل أنواع القوانين التي تمنعه من السرقة، لا خوفا على النزاهة، بل لأن تلك السرقات إذا ما حدثت، فإنها ستعني أرباحا أقل لمالك، وهو ما لا يمكن أن يتقبله... ولكني كنت أعجب دوما لحال أولئك الممثلين الفاشلين الذين يتقمصون دور السيد الأول، لم يفعلون ذلك، لم ينفقون كل تلك الأموال، ثم لا يحكمون... لقد إستغرقت وقتا قبل أن أعي أنهم بزواجهم من تلك السيدة المزيفة، كانوا يمتلكون سلطة من نوع ما بكل الأحوال، حتى إن كانت على حساب المساكين من أهل تلك الديرة، مثلا، هذا

أولا، أما ثانيا، فلأن مالكا لا ينسى من يقدم له الخدمات، فكان يجعلهم يستفيدون ماديا، بعد أن ينتهي دورهم، من خلال الكثير من الخدع التي يتقنها مالك، وتدر أموالا وفيرة عليهم.

قضى مالك اللئيم أن يكون من يخطب ود سيدته الأولى، غنيا، ولا يمكن لمن لا يمتلك الأموال أن ينال وصلها، فقطع بذلك الطريق على مقتنصي فرص الإغتناء، فيما حتم على سودة وأخواتها، أن يكن هن أمل المسحوقين، في نيل الأموال التي يقضون أعمارهم في حلم الوصول إليها، ومن أراد أن يقفز من طبقة المسحوقين، إلى طبقة أعلى، أو حتى إلى أعلى الطبقات، فما عليه إلا أن يتزوج إحدى طيرات العموريين، لتفتح له كل الخزائن، وهكذا ظل مصدر هائل من مصادر تطوير تلك الديرات المبتلاة، يستنزف من خلال الباحثين، لا عن المال، فهم طلاب سلطة قبل كل شئ، ولكن تكديس الثروات كان دوما من ضمن الأعراض الجانبية لمرض حب السلطة عندهم... آه، ها أنذا أقع في نفس المطب مرة أخرى، أنا متهم بحب الاستطراد في أحاديثي، وها أنذا أستطرد فيما كنت أكلمكم عن كتاب "الحارث الزيادي" الذي لا يقرأه أزواج "غربية" المتسلسل ون، فهم لا يحتاجونه، لأنهم مجرد حكام صوريين، أما من يحتاجه بالفعل، فهم أزواج سودة وشقيقاتها، لأنهم حكام فعليون بقدر ما يتعلق الأمر بالتسلط على رقاب أهل ديرات العموريين، ونحرها... ولكي يضمن الحارث لمعشوقيه هؤلاء كل أسباب النجاح، وبعد أن يوصيهم بجمع كل ما يستطيعونه من اموال مبذولة لهم بحكم زواجهم من الطيرات، يقول في المقطع الثالث والعشرين من الفصل الثامن من الجزء الثالث والعشرين في باب (الأموال، وما أدراك ما الأموال)

وبلغة تشي بعجز هذا المخلوق عن إدراك أهمية الجمالية في اللغة:

بخيلا وكريما ، يجب أن تكون
ولا تقلق، فتحقيق ذلك من أبسط الشؤون
إبخل بثروتك الشخصية
وصنها من الإسراف
ولكن، جوادا ومعطاء، كن
عندما يتعلق الأمر بثروات الآخرين
أو ما يتبقى من أموال الديرة
بعد أن تغرف منها ما تشاء.

يا له من إبن عاهرة، هذا الزيادي... عذرا أحبتي، فانا أدرك أنني أدنس أسماعكم بهذه اللعنات والشتائم، ولكن بعد فوات الأوان، أنا فقط لا أستطيع إلا أن أتصرف هكذا، عندما أشعر بغضب، ومن يغضبني أكثر من هذا الذي وهب حياته لكي يخدم الحكام ويعلمهم كيف يبتزون ناسهم ويستغلونهم أبشع إستغلال، وفوق كل هذا يسومونهم سوء العذاب... ولكن، أتعرفون، إذا ما أردنا أن نقيم ما قام به بالمعيار الحقيقي الذي يستحق، فنحن هنا لا نتكلم عن حكيم إنساني، أو متصوف مثالي، بل نتحدث عن رجل واقعي حاول أن يفهم الأمور بعمق، وأن يدرك الحقائق كما هي من دون إضافات أو تزويق، إذا ما أردنا أن نقيمه بهذا المعيار، فإننا يجب أن نقر له بأنه أجاد في عمله، وإجتهد، فأصاب... ومع ذلك، فليلعنه الله، وليهبه من سعير جحيمه على ما فعل... الحقير، لم يكفه ما قاله عن جمع الأموال والبخل بها، بل أضاف في المقطع الثامن

من الفصل التاسع من الجزء الثالث والثلاثين، في نفس الباب السابق، قائلا:

كالغيوم الشحيحة كن

فلا تدع الأمطار تهطل، إلا قطرات

قطرة فقطرة، إجعل المنافع التي تمنحها لأهل ديرتك

فالناس يريدون أن يتلذذوا بمذاق ما تهبهم

والإفراط في الهبات

يحرمهم من لذيذ المذاق

تصوروا إلى أية درجة من اللؤم والخبث وصل هذا اللعين في وصاياه، ولكنه كان مع ذلك، صادقا مع من نصح.

أزواج سودة، كانوا جميعا من طينة واحدة، لأنهم جميعا إستخدموا الحب، حب زوجتهم المقدسة للوصول إلى أهدافهم الشخصية... صحيح أنهم يمكن أن يختلفوا في نوعية الشخصيات، ولكن اضطرارهم لقراءة كتاب الحارث والالتزام بكل ما يورد فيه، يجعلهم متشابهين بمرور الوقت، ولكن عنترة زاد عليهم جميعا لأنه كان يمتلك طموحا هائلا لا تحده حدود، فهو لم تكن تكفيه سودة واحدة، بل سودات كثيرات، أو فلنقل أن طموحه لم يكن ليتوقف إلا عند فراشات بنات كليب العموري جميعا، فهو كان يعرف جيدا أنه لم يكن زوجا لسودة من الناحية الشرعية، فإذا كان الأمر كذلك، فلم لا تصبح كل الشقيقات، عشيقات له... كان عنترة يريد هذا الأمر بشدة لكي يصبح واحدا من لاعبي الدائحة الأساسيين، كان يريد أن يكون "ستار حديد" الجديد، لكي يضمن لنفسه مكانا في التأريخ، وقد كانت مسألة التأريخ هذه،

هاجسا مسيطرا عليه، أضيف إلى عقد وارتكاسات في داخله، أوردته جميعا في النهاية، مهاوي الضياع والفشل... كان طموح عنترة كبيرا، وكبيرا جدا، وطموح مثل هذا إذا ما أضيف إلى الولع الأصلي بان يكون الذكر المسيطر في الديرة، يصبح خليطا خطيرا لا بد وأن يكون ثمنه الكثير من الضحايا التي تسقط على مذبحه... ولكن الذي لم أكن أفهمه أبدا، هو موقف المعارضين له، والمتربصين به من أهل الديرة، لقد أعلن الرجل نفسه منذ البدء، وأظهر كل طموحه، ولم يدخر جهدا في سبيل ذلك، أفما كان يتوجب على من يريد أن يقف بوجهه، أن يتهيأ له بقوة موازية، أو تزيد، وإن لم يتمكن من هذا الشرط، أما كان عليه أن يرتضي بقدره ويحاول أن يكون واحدا من أهل الديرة الطبيعيين، أنا لا أريد القول أن هذا القدر كان عادلا، بل هو لم يكن كذلك، ولكن الثمن، ثمن الطموحات يكون دائما على قدرها، وكلما كبر الطموح كانت عاقبة الفشل أوخم، فما لهم عندما يحاولون فرض شروط عليه، يرفضها ويبدأ بالتنكيل بهم، يملأون الدنيا صراخا وزعيقا... هذا ما لم أفهمه لأني لو كنت مكانهم، لوضعت رقبتي في الميزان مع طموحي، فإما كلاهما، أو لا شئ بالمرة... ذات يوم فاجأني المازني ونحن في خضم واحد من نقاشاتنا المستديمة، قائلا "ما هذا يا عم إبراهيم، أتريد أن تنصف ظالما" فقلت على الفور مجيبا "كلا، بل أريد أن أنصف الحقيقة لكي لا يتسلل المزيد من الظالمين من خلال تشوش رؤانا وسوء إدراكاتنا، ليتحكموا بنا" فقال بتعنت واضح "ولكن أي أحد يصبح زوجا لسودة، لهو أفضل من عنترة" فقلت "لا يا بني، لا، هذا مبدأ خاطئ، يجب أن نكون نحن على حق، لكي يظهر منا من يمكن أن ينصفنا" فقال "ولكننا على حق، وما الباطل إلا عنترة" فأجبته وأنا اشعر بغضبي

يتململ "ولكن كيف يمكن أن نكون على حق ونحن لم نزل نزيف التأريخ ونسمح لانفعالاتنا أن تقودنا في دروب التعنت والعزة بالإثم" عندها بانت علامات التعجب على وجه مازن وهو يقول "لم أكن أعرفك هكذا، أيعقل أن تكون راغبا في الدفاع عن هذا المجرم إلى هذه الدرجة" فقلت وأنا أكثر منه عجبا "أي دفاع يا مازني، أقول لك زيد فتقول عمرو، ما لعقلك يأبى أن يتحرر مما علق به من تشوش، ألم تفهم بعد أن عنترة لا يحتاج من يدافع عنه الآن، هو فقط يحتاج إلى فراش سودة الذي فقده لأنه من دونه لن يكون عنترة الذي يريد" ثم سكت فجأة لأنه لم تعد بي رغبة في الكلام بعد أن أدركت إستحالة أن يفهم هذا المخلوق ما كنت أريد توضيحه بإيراد الفقرة التاسعة والعشرين من الفصل العاشر من الجزء والسادس والثلاثين من كتاب الزيادي وذلك في باب (في ديرتك، أنت الإله الوحيد) والتي أردت الاستشهاد بها لبيان رأيي:

إياك والحياد
فلكي تكون بالغ الإحترام
أعط كلا ما يستحق
فإما صديقا مخلصا تكون
أو عدوا لدودا
إفعل ما تشاء ولا تتردد
فقط إجعلهم يدركون مدى مناعتك.

انا لم استطع يوما أن أعرف إن كانت سودة شريرة أم لا... نعم، كان الشر يحيط بها دوما، ولكن، أكانت هي نفسها شريرة، أنا لا أعرف لأني لم أقترب منها

كثيرا... بل الحقيقة هي أني سمعت... آه، سمعت، أنا لا أعتبر السماع دليلا، خاصة إذا ما تواتر الخبر عن أكثر من شخص، ولكني هذه المرة لا أمتلك غير السمع دليلا، فعذرا لذلك، ولكن شفيعي في هذا أن الذي أنقل عنه هو شخص جدير بالثقة في نظري، هذا بالاضافة إلى أنه يتمتع بالعقل، والحلم اللازم لفهم الأشياء فهما هو أقرب للحقيقة حسب تقديري، والأهم من هذا وذاك أن "صالح السامر" صديقي الذي أنقل عنه، كان بحكم وظيفته قريبا دوما من فراش سودة وحصون أزواجها... المهم، يقال أن سودة ظهرت ذات يوم على شاشة التلفاز المغلق الخاص بالحكام الذين تعودوا على تبادل الخبرات والمعلومات والبرامج التي تهمهم من خلاله... سألها المذيع فجأة "أتخونين زوجك في العادة" يقولون أنها ظلت صامتة لدقيقة أو دقيقتين وهي تتمعن في وجه المذيع، قبل أن تجيب بصوت هادئ في النهاية "نعم" صعق المذيع المتذاكي، وتلعثم، لأنه لم يكن ليتوقع أن يسمع مثل هذه الإجابة، كان قد أعد السؤال ليضفي مسحة من الواقعية على برنامجه، وبدا عليه أنه كان يتوقع الإجابة بالنفي حتما، وكالمعتاد، ولكنه عندما سمع ما فاهت به "سودة" أخذ على حين غرة ومادت به الدنيا، قبل أن يتمالك نفسه وهو المذيع المحترف، فسألها وابتسامة كبيرة ترتسم على شفتيه "ولكن، لماذا تخونينه" فأجابت على الفور "الشيطان" فقال "آه، هو الذي يوسوس لك إذا" فردت مبتسمة "كلا، بل لأني أحبه" فرفعت الدهشة حاجبي المذيع إلى أعلى وهو يتساءل "ماذا، اتحبين الشيطان" فرفعت هي حاجبيها مقلدة إياه باستخفاف وقالت مؤكدة "وأذوب في حبه" فقال وهو يزداد تعجبا من إجاباتها "ولكن لماذا" فابتسمت هذه المرة وهي تقول "لأنه جميل جدا" فكاد المذيع يقفز من مكانه وهو يتساءل شبه منكر "ماذا، الشيطان، جميل"

فقالت وهي تبدو وكأنها تسبح في فضاء خيالي "نعم جميل، ولا أعرف لماذا يصورونه بشعا" ثم صمتت لوهلة قبل أن تضيف "أنا أفهم لماذا يتصورونه مخيفا، فهو مخيف بالفعل، ولكن بجماله، أما البشاعة" فقاطعها المذيع متعمدا وهو يقول "ولكنه بشع" فقالت مصرة على موقفها "بل هو جميل جدا، ألا يقولون أنه كان ملاكا، فهل سمعت يوما بملاك قبيح" فقال وقد أخذ منه العجب كل مأخذ "ولكن، كيف تعرفين ذلك" فقالت "لأني أراه دائما" فصاح "ولكن ما هذا الهـ.." قبل أن يستدرك قائلا "عفوا، ما هذا الكلام سيدتي، أهو معقول" فرفعت كتفها بلا إكتراث وقالت "نعم معقول، فأنا أراه" ثم أغمضت عينيها لتتابع بعدها قائلة "أراه، وعندما أفعل، تتملكني تلك الرعشة الهائلة، وتفور الدماء في عروقي وهي تندفع هائجة، صاخبة إلى هناك، أنت تعرف، إلى هناك، هناك، وعندها تتحول دنياي كلها إلى، إلى، تستطيل وتتحول إلى، أنت تعرف ما أقصد، تتحول ولا يعود بإمكاني أن أرى غيره، حتى آخذ ما أشتهيه، أنت تفهم، أليس كذلك" فبان التردد على وجه المذيع قبل أن يحزم أمره ويقول "نعم، أفهم، ولكن الذي لا أفهمه هو موقف زوجك، عفوا السيد زوجك، في هذه الحالة، كيف يرضى بذلك" فإنفجرت مقهقهة لتقول "هذا لأنه متأكد من حبي له، فهو شيطاني الجميل أيضا" فقال والحيرة تكاد تفقده صوابه "ولكن، ولكنك قلت أن الشيطان هو... لا زوجك" فقالت مبتسمة "هيا يا عزيزي، فكلهم شياطين، والشيطان الأجمل بينهم هو الذي يستحوذ على جل إهتمامي، وأحيانا، أقول أحيانا فقط، يكون ذلك الجمال هو الذي يحدد هوية زوجي الذي يمكن أن أرتضي به" قال "ولكن، مع ذلك، أنا لا أتصور أن رجلا من الديرة يرتضي أن تخونه زوجته بهذا الشكل" فضحكت وهي تقول "بل يرضون يا عزيزي، يرضون، فهم يعرفون جيدا

أنهم من دوني لا يمكن أن يساووا شيئا ، فما تريد منه أن يفعل، يقتلني، أولا، أنا لا أموت، ثم حتى إذا ما أذاقني طعم الردى فإنه سيفقد كل شئ بقتلي" ثم سكتت قليلا لتواصل بعدها قائلة "ثم ما همهم إذا ما كنت ورغم كل شئ، أحافظ على المظاهر، والمظاهر هي كل ما يأبهون له كما تعرف" هنا بدا على المذيع وكأنه قرر أن يستفيد من هذه اللحظات المجنونة التي فرضتها عليه سودة بطيشها... كان هذا المذيع ، كما يقول صديقي صالح، مخولا أن يطرق ما يشاء من الموضوعات في لقاءاته، فقد كان يعمل لنوع خاص من البشر، الحكام الذين كانوا يريدون أن يستفيدوا من كل ما يمكن أن يستفيدوا منه، حتى من أسرار حيواتهم الشخصية، فالمهم هو أن يستفيدوا لكي يديموا احتفاظهم بأسرة زوجاتهم، ولم يكن يمنعهم في سبيل ذلك أخلاق، أو خجل... كان مخولا، ولكن لأنه ذكي وواقعي، كان يعرف أن التعمق في نبش الأسرار الخطيرة قد يكون مميتا حتى بعد أن يستثمر من قبل الأزواج المبجلين... ففي الوسط الذي يعمل به، كان الأشخاص يختفون لأبسط الأسباب، ولذلك كان يسير على سراط شائك فرضه على نفسه، تحدو خطاه فيه مبادئا صارمة إنتقاها بعناية، فلا تنقص معاييره المهنية يوما لكي لا يجد نفسه من دون مهنة فجأة، ولا يسرف في الطرح أبدا لكي لا يفتقده الآخرون يوما من دون سابق إنذار... ولكنه فجأة، ومع استهتار سودة ورعونتها ، عرف أن هذه فرصته في تقديم شئ مميز يكفل به المزيد من الشهرة التي يحتاجها ، فقال "حسنا ، ما دمت بهذه الصراحة اليوم، فلم لا تحدثينا عن نفسك أكثر" لم تجب سودة هذه المرة فورا، بل تمعنت مليا في وجه المذيع، قبل أن تتساءل "وعن ماذا تريدني أن أحدثك" قال "يتهمونك بأنك قاسية، متحجرة القلب و" ثم سكت، ولكنها قالت وقد بان الإصرار في

نبرات صوتها "و ماذا، هيا أكمل سؤالك" فقال وهو يكاد يتأتئ "و، أنك بلا، مبادئ" هنا ضحكت سودة، وأغرقت في الضحك قبل أن تقول "يا لكم من منافقين معشر الرجال، ترتكبون كل انواع المعاصي والذنوب، ثم تبحثون عن من تلصقوا تبعاتها، به... أأنا قاسية ومتحجرة القلب... حسنا، أنا أعترف بأني لا أعرف الكثير عن المبادئ فهي ليست من ضمن إهتماماتي، كما أن أملاكي لا يمكن أن تدار بها، ولكن القسوة وتحجر القلب، لا وألف لا، لا يمكنك إتهامي بها بهذه السهولة... أتعرف، لقد كان ظهور جدتي طيرة ثورة كبرى في تأريخ الإنسان بالدائحة، ولولاها لما استطاع أن يتجاوز طوره الحيواني... كان ظهورها نعمة كبرى غيرت تأريخ البشرية، ولم تكن لتقسو هي أو أي من حفيداتها على أحد، فكل الذي يردنه، كان، ولا يزال، رجل يملأ فراشهن ويمنحهن ما يحرصن عليه أشد الحرص... أما القسوة والبطش فذلك كان دوما ذنب الرجال الذين تهافتوا عليهن طوال التأريخ... ألم تفهم بعد أني، ورغم إمتلاكي للديرة كلها، فإن حدود إهتماماتي لا تتعدى حدود فراشي، ولو كان زوجي طيب القلب رحيما، لما كنت لأعترض، ما دام يؤدي واجباته الزوجية، ويشبع رغبات جسدي" ثم سكتت لوهلة قصيرة وقد بدا عليها التعب، قبل أن تضحك ضحكة أفقدها رونقها إمارات الوجوم التي غزت وجهها، وتقول "انا لا أعرف لم يجب علي أن أرتضي بالرجال، ألم يكن إختيار إمرأة، عشيقة لي، أفضل، فنحن كنساء نستطيع أن نتفاهم بشكل أفضل، كما أنها ستكون خبيرة بكل تأكيد بمكامن اللذة في جسدي... تصور، سودة سحاقية، يا للروعة، ويا له من إنتقام رهيب من غرور رجال الديرة... ولكن، اللعنة علي، لأني لا أستطيع أن أحلم بغير الرجال"

وهكذا كانت حياتنا في الديرة تمضي، سودة تمتلك طوال الوقت الحجة والبينة التي تسوغ لها كل تصرفاتها، رغم أن ذلك لا يمنع من أن تكون كاذبة أحيانا لأن التطرف من صفاتها، وأهل الديرة يكيلون الاتهامات لها وهم محقون، أو غير محقين أحيانا، لأن الحسد والغيرة يغشيان النظر في أحيان كثيرة، وبين هذه وأولئك، يبقى أزواج سودة هم المسؤولون الحقيقيون عن كل ما يحدث في الديرة، ولكنهم يخفون نوازع أنفسهم بإدعائهم أنهم يستجيبون بذلك إلى مطالب سودة التي لا تنتهي، رغم أن المقطع الثامن في الفصل الحادي عشر من الجزء السابع والثلاثين من كتاب الزيادي يفضح إدعاءاتهم، حيث يقول في باب (أهمية ثنائية الرحمة الظاهرة والنقمة المستترة) المفضل عندهم:

مثالا للرحمة المجسدة والنبل والانسانية كن

فإذا بدوت للأغلبية جيدا

فإن الأقلية التي ستشعر بحقيقتك

ستتردد في معارضتها رأيها

وبذلك ستأمن شر الكثير من المخاطر

أما غير ذلك

فعليك أن تحسب لكل إنسان حسابا

وأن تخشى من كل الأشياء

عنترة، عنترنا، كان أمينا لكل الوصايا التي تشربها من كتاب الزيادي، مثلما كانت الصور والطموحات التي استقاها من كتاب "ستار حديد" حاضرة دوما في ذهنه، ولأن الغاية تبرر الوسيلة كما أوصى الحارث الزيادي، فإن عنترة إنتبه إلى أهمية أن يحجم

الجمعية التي أوصلته إلى فراش سودة وذلك لأن الأمور في داخل الجمعية لم يكن لها أن تسير كما يريد هو أحيانا، فداخل الجمعية يوجد نظام داخلي لا يستطيع أن يتجاوزه بسهولة، وأول بنود هذا النظام هو، أن جميع أعضاء الجمعية متساوون داخلها، وما الرجحان بينهم إلا معنوي تحتمه التسلسلات القيادية المحتومة، ولم يكن هذا ليرضي عنترة لأنه كان يريد أن يكون الإله الذي لا راد لحكمه لكي يحقق طموحاته الهائلة، فعمل على أن يستفيد من الجمعية وأعضائها عندما يحتاج ذلك، في الوقت الذي لم يكن يتردد فيه لحظة واحدة في إتخاذ ما يلزم من القرارات المهمة اللازمة من دون أن يرجع إلى الجمعية، ولم يكن يهمه مدى الإحراج الذي كان يسببه لها عندما تستدعي مصلحته ذلك... وبذلك كان محتما أن تتحول تلك الجمعية المتميزة إلى مجرد كيان هزيل لا تأثير فعلي له، وأن تكون مقراتها مجرد قاعات لعرض صوره المتعددة، فيما كان هو مستمرا في إحاطة نفسه بمجموعة من الأشخاص عديمي الشخصية، وأعطاهم كل السلطات اللازمة للتحكم برقاب أهل الديرة، رغم أنهم كانوا في حضوره، يتلاشون! أبدل العقول التي لم تكن الديرة لتخلو منها يوما، بلاعقلانية أشخاص كان كل همهم أن يرضوا معبودهم، وأبعد كل من كان يرتكب خطيئة الظهور وإمتلاك التأثير على أهل الديرة، وسودة طبعا، فقد كان خير من يعرف أن إمرأة مثلها لا يمكن أن تشبع من الرجال يوما، فأفرغ الديرة من زوج محتمل لها إذا ما غاب يوما عن فراشها، ولكن يبدو أنه لم يكن يحسب حسابا لغيابه لأنه كان قد صدق أنه نوع من إله بعدما تشبع بإنعكاس صورته في أعين المحيطين به، وهو الذي كان قد قرأ المقطع الرابع من الفصل الرابع من الجزء التاسع والثلاثين في باب (أنت، ومن بعدك الطوفان) وأعجب به:

إلـه مصغر أنـت فـي ديـرتـك

وإلـيـك جميـع الأعيـن يـجب أن تـرنـو

سلـطتك، يـجب أن تـكون الأوسع

وإذا ما اراد رجالـك فـرض الـطاعة علـى الـناس

فلـهم ذلـك، ولـكن لا لأنـهم يـستحقـون

بـل لأنـهم رجالـك الـذيـن بـك يـجب أن يـبـاهوا

وبـإسمك يـحكمـون

فـأنـت الـمفـدى الـمطاع

ولا إعتبـار لـغيـرك، ولا عواطف خاصة بـه

لـقـد اقـتـرف عنـتـرة الـكـثيـر من الأخطاء الـفـادحة خلال بقـائـه زوجا لـسودة وحاكما لأهل الـديـرة، والـغريـب هو أنـه كان محاطا دوما بـعدد هائـل من الـمستشاريـن، والأغرب هو أنـهم لـم يـكونـوا لـيـجرؤوا علـى الـتصريـح بأي شئ إلا عنـدما يـسمح لـهم هو بـذلـك، والـويـل لـمن يـبـادر منـهم لـيـقـول شيـئـا أو يـنـتـقـد، بـغض الـنـظر عن فـداحة الـخطأ الـذي يـتحدث عنـه... ومرة أخرى، كان عنـتـرة مصيـبـا فـي موقـفـه، ولـكن طبـقـا لـمنطق الـحارث الـشيـطانـي الـذي يـوصي فـي الـمقـطع الـثـانـي من الـفصل الـخامس من الـجزء الـحادي والأربـعيـن فـي بـاب (الـغطرسة كنـز لا يـفـنـى):

فـأعلـم أنـك يـجب أن تـتـقـبـل الـنـصيـحة

ولـكن، عنـدما تـريـد أنـت ذلـك

أما عنـدما يـريـد الـغيـر أن يـقـدمـها

فـلا تـشجعه علـى ذلـك

بل عاجله بعقوبة تجعله لا يعود إلى ضلاله
فترتدع الآخرين.

لـمـــ(♫فـا ♪) ا (♫صول لا♪) أ (♫سي♪)نـا (♫لا♪) خـــ(♫صول♪)ــو (♫فـا ♪)
قـــ(♫مـي♪)بـيـــ(♫فـا ♪)ـــل (♫ صول♪)

الـــ(♫صول♪)ـــصبـح (♫فـا مـي♪) عيـــ(♫ري♪)ســـ(♫صول♪)ـــهـــ(♫فـا
مـي♪)ـــم (♫ري♪)

و (♫فـا ♪)حمـلـو (♫صول♪) ها (♫لا♪) و (♫دو♪)سا (♫سي♪)رت(♫لا♪)

فـي(♫سي♪) الـــ(♫لا♪)ـــهـــ(♫صول♪)ــو ى(♫فـا ♪)
الـــ(♫مـي♪) إ (♫صول♪)بـــ(♫فـا مـي♪)ـــل (♫ري♪)

أتعرفون ما هو أعظم من إكتشاف الكتابة بالنسبة للجنس البشري، هو اللغة نفسها، فلولا هذا الإختراع الهائل، لما إضطر الإنسان أصلا للبحث عن إكتشاف مثل الكتابة، ولكني أرى أن للموسيقا أهمية بالغة أيضا في حياة هذا المخلوق الغريب، فقد إكتشف الإنسان القديم أن الكلمة، وبخاصة في المراحل الأولى للتدوين، وقبل أن تبلغ اللغات الإنسانية مراحل نضجها الحقيقي، ليست سوى وسيلته لنقل افكاره إلى الآخرين، وإنه لكي يسيطر عليهم، وأنتم بتم تعرفون أن أمر هذه السيطرة مهمة جدا له، يحتاج إلى مؤثرات أقوى، فوجد ضالته في الألحان والأنغام، حيث ضمن بها، مع الرقص والبعد النظري الذي يوفره للمتلقي، التكامل المطلوب للتأثير الفكري والحسي للكلمات، ولذلك نرى أن الموسيقى دخلت في معابد الإنسان القديم، وكانت واحدة من الأسس التي تقوم عليها الأديان القديمة... وقد تطورت وسائل التأثير بالجماهير كثيرا في العصور الحديثة للإنسانية، فكان من الطبيعي أن يحاول عنترة إستخدامها جميعا وهو في سعيه الدؤوب لإقامة صرح مجده الشخصي، وقد يختلف أهل الديرة في تقدير مدى النجاح الذي توصل إليه في هذا المجال، ولكنهم متفقون عموما

على أنه قد طرق جميع الأبواب، فهل أفادته في النهاية، لقد بان الأمر الآن، ولا داعي لتكراره، ولكن السؤال الأهم هو، هل سيرعوي الذين سيأتون من بعده... أنا أقول لكم، كلا، لأن السبب هو أن الخلل الأصلي يكمن في الإنسان نفسه، وهذا هو ما أردت إيضاحه لكم خلال الساعات... لم أعد أعرف إن كانت ساعات أم أياما أم أشهرا و سنوات... المهم، خلال الوقت الذي قضيته، محدثا إياكم... ذات يوم، صاح مازن فجأة "الجبان" فتساءل سلام المرهون متعجبا "ما بك يا مازن، من هو الجبان" ليجيبه مازن "عنترة طبعا، وهل يوجد غيره" فسأله سلام وهو يبتسم "ولكن كيف عرفته جبانا" ليرد مازن "ألم تر كيف كان يحيط نفسه بالآلاف من رجاله، أتصدق هذا العدد من الحمايات التي كانت تحيط به" فقال سلام وظل ابتسامته ما يزال معلقا بشفتيه "ولكنه كان زوج سودة، وأعداؤه كثيرون، كان لا بد أن يحتاط للأمر" فقال مازن باصرار "ولكنه تجاوز حدود المعقول" قبل أن يسكت لهنيهة ثم يتابع قائلا "ثم لو كان أهل الديرة يحبونه لما احتاج لكل هذه الأعداد من الكلاب الشرسة" هنا ضحك سلام ملء شدقيه وقال "ولكن هذه هي الكارثة، حب أهل الديرة، أتتصور أنه كان يبقى زوجا لسودة كل هذا العدد من السنين لو إعتمد على هذا الحب، هيا يا مازن، أين أولئك الأزواج الذين نالوا هذا الحب، والله لو كنت مكانه لفعلت مثله، وأكثر" تهيأ مازن للرد، ولكن بهلول المدلول سبقه بالقول "لقد سمعت أنه كان يستعين حتى بالجن، وقد أكد لي صديق مطلع أنه كانت له قوة من الجن تساهم في حمايته" فضحك سلام المرهون مرة أخرى وقال "هيا يا مدلول، لا تبالغ، جن وحماية، ما هذا الهذر" هنا إنبرى كريم التقي ليقول "ولم تستغرب الأمر يا سلام، فالجن حقيقة، وفيهم الصالح والطالح، ولا أستبعد أن

يقوم هذا الشيطان الرجيم بإستخدامهم" وقبل أن يكمل سلام "لكن" التي أراد قولها، قال بهلول مقاطعا "يحكى أن أولئك الجن، جن عنترة المجندين، ألقوا القبض على جني كان قد جندته مجموعة من المتآمرين على عنترة، وقاموا بالتحقيق معه حتى إعترف بأسماء الذين جندوه، فتم إلقاء القبض عليهم، وإعدامهم".

أنا لا أعرف إن كانت المخيلة الشعبية هي التي صاغت مثل هذه القصص، أم أنها كانت من إختراع أجهزة عنترة الأمنية التي دأبت على بث الإشاعات بين أهل الديرة كجزء من خطة إثارة الرعب الإستباقية، الرعب من عنترة بالطبع، لكي لا يفكر أحد حتى بمجرد الإقتراب منه لإيذائه، ولكن الحارث الزيادي كان قد قال في كتابه، في المقطع الرابع عشر من الفصل السابع من الجزء الثامن والخمسين في باب (فضل الخوف):

إفرض الخوف على الناس
وحاول أن تجعلهم يحبوك
صعب هو تحقيق مثل هذا الأمر
ولكن حاول
أما إذا عجزت
فاعلم، أن يخافوك لأفضل لك من أن يحبوك
إجعل خلصاءك، والأقربين منك
يفرضون الخوف والرعب من حولك
وكل ما لا يحبه الناس، أوكله لهم
وتنصل أنت من تبعة أعمالهم علنا
فمن يدري، لعل ذلك يضمن لك الحب
فدعهم يرعبون الناس

وأغدق أنت عليهم العطف
وأمنحهم المكرمات المحسوبة

يا إلهي، لكم عانى أهل الديرة من أزواج سودة، صحيح انهم يعانون من بضع عشرات من الأمراض النفسية غير القابلة للعلاج، وصحيح أنهم كانوا دوما، وما زالوا، بسبب جهل مستشر، يركضون وراء أوهام وعي مترجرج، كذاب، يجعلهم أسرى لمجموعة متنوعة من العقد والعاهات... إيه يا إبراهيم السرمد، ها أنتذا تكيل للآخرين، حسنا أيها الأبله، قل ما تشاء فقد مت الآن وأمنت شر كيل الآخرين لك، ولكن، ماذا لو عدت الآن إلى الحياة، ماذا لو وجدت نفسك مكان من تكيل لهم، أتضمن أنك لن تقترف كل أخطائهم، وتزيد... كيف تكون واثقا من نفسك هكذا... أنت لا تدري، هة، هذا أفضل، بل أنا أنصحك أن تتوقف عن الكيل فورا... ولكن، إذا ما توقفت أنا، فمن الذي سيتكلم، من الذي سيبوح، من الذي سيفضح... حسنا، حسنا، انا وهم نعاني من مختلف العلل والمشاكل، ولكننا لا نستحق، والله لا نستحق أبدا كل ذلك القتل والتعذيب والتنكيل الذي تعرضنا إليه بسبب نزوات أولئك الأزواج الذين تعاقبوا على فراش سودة الجهنمي، أو بسبب كل الخلافات التي قامت بين مختلف الجمعيات، أو بسبب تضارب المصالح بين أزواج سودة وطبقة الأعمام... حسنا، حسنا، لنفترض أن الإنسان في الديرة لا قيمة له، ولنفترض أنه لا بأس إن قتل شخصا أو عشرة، أو مليونا... تريدون أن تقتلوا، حسنا انا لا أستطيع ان افعل شيئا، فأنتم الذين تسنون القوانين، بل أنتم القانون نفسه، إقتلوا إذا حتى تشبعوا، ولكن ماذا عن الأحياء، لم يعيش أغلبهم تحت مستوى الفقر وهم يعيشون ويمشون ويتناسلون، فوق أرض هي اغنى ما يمكن أن توهب لمجموعة من البشر، عجيب...

في ديرة كانت طوال عمرها قبلة أنظار الطامعين لفرط غناها وفحش ثرائها، تجد الحاجة والعوز والفاقه، بل تلمسها، وتعيش معها... يقولون أن في الديرة لا يموت أحد جوعا، الا ليتهم يموتون، أتتصورون أن تلك الحياة تستحق أن تعاش، أن تموت من الحسد وأنت ترى غيرك يتمتع بكل ما حرمت منه... أن تقضي لياليك مسهدا ونيران الغيرة والحنق والشعور بالظلم تتناوب على روحك حتى تشبعها كيا... تقضون حياتكم وأنتم تتشدقون بالمثل والمبادئ وتتحدثون عن الأخلاق التي تبني الديرات، يالللروعة، ألم تكتشفوا أن الأخلاق إختراع برجوازي لا يمت للفقر بصلة، أتريدون من الفقراء أن يطعموا أولادهم مبادئا وأن يكسوهم بالقيم، هيا، كنت أتصوركم أذكى، ولكن يبدو أن الطمع قد أعمى عقولكم مثلما أغلظ مشاعركم، هذا إن كنتم تمتلكونها أساسا... تصوروا أن ديرة تبجح شاعرها بكرم أهلها إلى حد يدعي فيه أنهم لا يلبسون خدمهم أسمالا، تفاجأ فيها بدموع الإمتنان تنهمر من عيني فقير لمجرد أنك تنازلت له عن ثوب قديم بال تخجل أن تلبسه، ولو منحته معها دانقا أو إثنين أو عشرة، لجعل من كل دانق درجة سلم يرقيك به إلى مستوى أعلى من مستوى ذلك الرجل الذي ذبح حصانه الوحيد ليكرم ضيفه... إيه يا ديرة العجائب، يقولون أن من سكن "المزاغة" فقد ضمن لقمة العيش، ولكن ليست كل لقمة محمودة، فمن اللقمات ما تبعث على الكفر والتجديف، وفيك نرى بضعة مئات من آلاف البشر، ولعلهم ملايين، لا يعرفون من أصناف الطعام غير دقيق القمح، فكسرة خبز في الصباح تزدرد مع قليل من الشاي للفطور، ومن بعدها يأتي دور الثريد، وأي ثريد، كسرات أخرى من خبز تطوف في ماء خدع بقليل من معجون الطماطم ليتصور نفسه مرقا... (مرقة هواء) يا مارق ون... (مرقة هواء)، عسى أن

يحرمكم الله من نقي الهواء، لأن أكل هؤلاء للهواء هو ذنبكم أنتم... هواء للغداء، أما العشاء، هيا يارجل لا تكن طماعا، ألا يكفيكم وجبتين في اليوم، من تتصورون أنفسكم، علية القوم...علية الـ... وأنتم يا علية الـ، قوم، أتعرفون أن هؤلاء تسير حياتهم مع الدقيق، (طحين، طحين، طحين) هم حتى عندما يريدون حلوى يرفهون بها عن أنفسهم المتخمة بألم الحاجة، فإنهم يلطخون كسرات خبز بسمن رخيص، ثم يقلونه ويحلونه بالسكر، فيخدعون أنفسهم بـ(بقلاوة عمورية) يا لبؤس العمورية ببقلاوتها هذه... (بقلاوة عمورية) من أين يأتون بهذه الأسماء، (بقلاوة عمورية) و(مرقة هواء) و، و... (محروق إصبعه) نعم محروق أصبعه يا محروقي الـ، لا لن أقول أجدادكم لأني أعرفكم، فانتم لن تهتموا لذلك، بل ساقول يا محروقي الأموال المكتنزة فهذا ما يؤثر بكم بالفعل، (محروق إصبعه) لأن الطفل المتلهف لمداراة جوعه، لن يصبر حتى يبرد طعامه، بل سيهجم على المقلاة بلهفة، فتحترق أصابعه بالخبز الحار... (طحين، طحين، طحين) حيوات بأكملها تمضي بصحبة الدقيق والملح والماء، وقليل من الخميرة، هذا كل أكلهم، وإياكم أن تسألوهم عن (البروتين) فمن يدري، لعلهم سيتصورونها كلمة نابية، وعندها قد يحدث لكم ما لا تحمد عقباه، لأنهم لن يهمهم شئ وهم يعيشون في الأعقاب أصلا... أسألتم أنفسكم يوما وأنتم (تتطوعنون) و (تتزقنبون) بكل ما لذ وطاب، عم يأكلون، أنا لا أعتقد، بل أنا على يقين من ذلك لأن من لا يهتم لحياة الآخرين، لن يهتم بم يقتاتون... تصوروا، ديرة عجزت الأساطير عن وصف غناها، تجد فيها نساء لا يعرفن أن المرأة لا يتوجب عليها أن تعمل من قبل شروق الشمس وحتى بعد أن تكون قد أوت لمخدعها بوقت طويل، تجد فيها إمرأة لا تصدق

أن نساء مثلها يجدن الوقت ليذهبن إلى محلات التزيين، وأن يمتعن أنفسهن بجولات تسوق طويلة يقتنين خلالها كل ما تتمناه أنفسهن، ومع ذلك يجدن الوقت إذ يعدن إلى بيوتهن، ليتابعن مسلسلا في التلفاز، او برنامجا عن الطبخ أو كيفية الإعتناء بشعورهن المنسدلة كالحرير على أكتافهن المتنعمة الناعمة... ديرة لا تحتاج دائما إلى أن تكد فيها وأن تكدح، لأنها يمكن أن تمنحك حتى إذا لم تزرع أرضها، ومع ذلك تجد فيها أطفالا يسابقون الطيور في بواكير الصباح، بمغادرة أعشاشهم البائسة، ليذرعوا الشوارع بحثا عن لقمة مدنسة... أطفال للإيجار، أطفال من مختلف الأنواع والأعمار، أطفال أصحاء ومعوقين، هيا إنتقوا منهم ما شئتم ووزعوهم على الشوارع وتقاطعات الطرق ليزيدوا ثرواتكم بالشحاذة وإستعطاف الناس، هيا إستأجروهم فلن يكلفكم ذلك دنانير أو دراهم، إن هي إلا دوانق... دوانق يا دنق، هيا إستأجروهم، وهلموا بهم إلى الأرصفة والشوارع لتغتال أحلام طفولتهم في الزوايا الغادرة والمواخير القذرة، عسى أن يكون موتكم، دنيقا بنكهة الزمهرير... أتعرفون ألم الحاجة وذل السؤال... لا تعرفون، أم نسيتم... لا بأس، إنسوا، ولكن إعلموا أن لديكم جيشا في الشوارع، جيش من مشاريع لصوص ومجرمين وعاهرات... وسيأتي يوما تجدون فيه الجرأة بأنفسكم لأن تحاكموهم... يا لهول ما تجنيه أياديكم... أبهؤلاء تريدون أن تبنوا ديرتكم يا أبناء الـــ، لا والله لن أكملها لأني أعرف أن الشوك يمكن أن يخرج من الورد، بل أنا أؤمن بطيبة أهل الديرة رغم أخطائهم، وخاصة العجائز والكبار منهم، ولكني لا أعرف أين رضعتم حليبكم النجس، ولا أين تلقيتم تربية الأوغاد هذه... تريدون أن تسرقوا، إسرقوا، هيا إسرقوا، إسرقوا ما شئتم، كم تحتاجون يوميا لتعيشوا

حياة الأساطير والخرافات، ألف، ألفان، عشرة، مائة ألف، هيا إسرقوا ما يكفيكم لبقية حياتكم، بل ضاعفوا المبالغ التي تكنزونها، ثم حاولوا أن تكتفوا، اتعرفون كم سيتبقى عندها من ثروات الديرة، خاصة وأنكم ستكونون عندها قد أنقصتم تعداد الديرة كثيرا بفضل هواياتكم الاجرامية التي لا بد وأن تكونوا قد مارستموها طوال الوقت، سيتبقى ما يكفي الجميع، ويزيد... ولكنكم لن تفعلوا، فأنا اعرفكم يا مدمني السحت الحرام... لا، لا، أنا لا أعنيكم أنتم، أتعرفون أنتم ما هو المال أصلا، لتعرفوا السحت، لا، أنا أقصد أولئك الذين أبتليت بهم الديرة وناء كاهلها بهم، أزواج سودة الذين يدعون أن كل ما يفعلوه هو من أجل سودة، ولكن سودة لا تحتاج أكثر من ذلك الرابض بين سيقانهم، هي تحتاج فقط أن يلبوا حاجاتها، وبعدها لن يهمها إن قضت يومها كله بثوب بسيط، أو حتى عارية، فما قد تفعل بكل تلك الأموال... لقد عاش أهل الديرة طوال أعمارهم وهم يلاحقون سراب الوعود الممنوحة لهم، ولكنهم كانوا يموتون دائما وهم يعانون عطش الحاجة وجوع الرغبات غير المستجابة، وكل ذلك بسبب ذلك الحارث اللعين الذي أوصى معشوقيه في المقطع الثامن من الفصل الثاني من الجزء الثالث والستين في باب (كلام الليل يمحوه النهار) بـــ:

وزع ما شئت من الوعود
ولكن إعلم أنك ملزم بها إلى حين
فآية الذكاء أن لا تحافظ على وعد
يمكن أن يضر الإيفاء به، بمصالحك
خاصة إذا ما غابت الأسباب التي دعتك إلى إعطائه.

أنا لا أستبعد أن يكون عنترة مضطرا في بعض الأحيان، ولكني أرى انه كان يصل بالقسوة أحيانا إلى أقصى حدودها، وهذه هي مشكلة القسوة، فما أن تلجأ إليها حتى تجد نفسك مضطرا للعودة إليها في كل مرة، بقدر أكبر خوفا من أن يكون المستوى الذي استخدمته في السابق، غير كاف، رغم أن الكثير من أفكارك تكون نابعة من إحساس غامض بالذنب يستقر في أعماق نفسك... القسوة، سلاح شديد الخطورة لأنه يوصل الخلافات إلى نهاياتها القصوى التي يجب تجنبها من أجل مصلحة الجميع، لأن هذه النهايات تعني أحيانا أن يختفي أحد الطرفين، إما الظالم أو المظلوم،... حسنا إن عنترة كان محكوما بمثليه اللذين إلتزم بهما طوال حياته، "ستار حديد" الذي لم يتوقف عن القسوة حتى وصل عدد ضحاياه إلى الملايين، والحارث الزيادي الذي لم ينس أن يوصي عنترة وأمثاله أن لا يقفوا على الحياد بين العطف والقسوة، بل أمرهم أن يتظاهروا بالعطف، وأن يأخذوا جانب القسوة في المقطع السابع عشر من الفصل السابع من الجزء الثامن والستين في باب (الرعب، أساس الملك):

فاعلم أنك تستطيع أن تعطف على الناس قليلا

ولكن إياك والتردد

فإما عطف زائف

أو قضاء عليهم

فهم للإساءة الصغيرة، يغضبون،وقد يتمادون

ولكنهم للإساءة البالغة، ينحنون

فبالغ إذا ما ظلمت
كي لا تخشى ثوراتهم فيما بعد.

ولذلك لم ينتبه عنترة إلى أن المظلوم، وهم أهل الديرة هنا، لم يكونوا ليختفوا أجمعين، بالوسائل التقليدية، لأنهم ببساطة أكثر عددا من أن يختفوا بهذه الطريقة، ولذلك كان محتما أن يختفي الظالم، الذي لم ينفعه إطلاعه على المقطع السادس عشر من الفصل السابع من الجزء التاسع والسبعين من كتاب الزيادي، وفي باب (لا تشتري العبد إلا والعصا معه) الذي يقول:

هين أن تقنع أهل ديرتك بأمر ما
ولكن على إبقائهم على ذلك، لن تستطيع
ولذلك، إن إستطعت أن تقنع، فأقنع
ولكن الفرض والإجبار لا تنسى
ومن لا يقنع بما تريد
إفرض عليه الأمر بالقوة
وعن قراراتك أبدا لا تحيد.

"يا لله، لم نصدق أننا إستطعنا أخيرا أن نلتقط أنفاسنا قليلا مع بعض الرفاهية التي توفرت بعد طول إنتظار، لكن عنترة الذي إنقض على فراش سودة ليغتصبها، و، و... إستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، لقد جعلنا نستخدم أقذع السباب، ولكني أريد أن أستحلفكم بكل ما تقدسون، ألم يبد وكأن ما فعله عنترة في تلك الأيام وكأنه... وكأنه، أنتم تعرفون الكلمة بكل تأكيد" قال كريم التقي هذا ذات يوم، ونحن في خضم واحدة من نقاشاتنا اليومية التي لا

تنتهي، فقال سلام المرهون معلقا "ولكنك قلتها بالفعل يا عم كريم، لقد قلت إغتصبها" فضحك كريم التقي بمرارة وقال "لا لم أقصد هذه الكلمة بالضبط، بل مرادفتها، والتي تنتهي للعلم، بـــ نا وليس بـــ ها" فضحكنا جميعا إلا مازن المازني الذي تجمدت سمات الجدية على وجهه وهو يقول بغضب "لعنه الله، وكأنه لم يصدق، فما أن صار الزوج، حتى ورطنا بحرب، اعقبها بثانية وثالثة، وكأنه لم يولد إلا لخوض الحروب" عندها قال سلام المرهون "لم تفهم الأمر إذا يا مسكين، لقد كان عنترة طموحا جدا، وأنا شخصيا لم أره إلا طامحا، لا إلى مخدع سودة فحسب، بل كان يحلم بمخادع جميع أخواتها، ولذلك كان أمر الحروب محتما" فقال مازن "بل هو مجرم وقاتل لا يهمه إلا أن يلغ في دماء الآخرين" فرد عليه المرهون قائلا "هيا يا مازن، لا تكن مغاليا، فالمرء لا يقتل لمجرد القتل، بل لأن القتل يحقق له مطمعا أو يقربه من هدف" ثم إختلفت الآراء وتباعدت الطروحات بعد أن أدلى كل بدلوه، إلاي، في ذلك النقاش التقليدي من نقاشاتنا التي لم تؤد يوما إلى إتفاق... كان سواء عندي من كان منهم على صواب، أو على خطأ، فقد كنت في حينها هائما في ثنايا ذاكرتي وهي تستحضر المقطع تلو المقطع من آيات الزيادي الشيطانية حتى استقرت عند المقطع الثاني والعشرين من الفصل التاسع من الجزء الثمانين في باب (إياك والجيران فهم أصل البلاء) لأنه يقول فيه:

إذا كان جيرانك ضعفاء
فأقم نفسك زعيما عليهم
وإن لم تستطع، فكن لهم خيمة
إشعرهم بالأمان في ساعات الخطر

و إشعرهم بالخوف في ساعات الأمان
عندها ، ستنهال عليك الفوائد كالمطر
ولا تنس دوما ، أن تضعف الأقوياء منهم
لكي تأمن شرورهم .

هكذا ، وبضربة بارعة يسن الحارث قانون الحرب الثابت، لأن معظم الحروب التقليدية كانت ولم تزل، تقوم بين الجيران في الدائحة ، فالجيرة فيها تعني إما مطامعا في خيرات ديرتك أو مطمعا لزوج طيرتك، ولكي يضفي الحارث نوعا من القدسية على ما قال، يعود ويصرح في المقطع الثاني من الفصل الثامن من الجزء التسعين، في باب (الحرب، سر الخلود):

لم ينجح نبي من دون سلاح
ولم يتمتع بزعامة أو فلاح
الأنبياء المسلحون فقط غنموا
ولطالما إحتفلوا بإنتصاراتهم .

ويبدو أن الزيادي لم يعط هذا الأمر ما يستحقه في حينه، ولذلك نراه يرجع إليه في الملحق الذي كتبه فيما بعد ليقول في المقطع التاسع من الفصل الرابع من الجزء الثالث،وفي باب (قائدا محاربا ، كن):

لطالما كان نبذ فن الحرب
السبب في فقدان الديرات
ولذلك، لتكن عينك على جيشك
الذي قويا يجب أن يكون.
لك أن تمنح أهل ديرتك بعض الترف
والقليل من الرخاء

ولكن ديرتك يجب أن تكون ملأى بالجند والسلاح.

أنا بالحقيقة لا أعرف إن كان عنترة قد قرأ مذكرات "ستار حديد" أولا، ثم اضطر بعد ذلك إلى قراءة كتاب الزيادي المقدس لتحقيق ما تاقت نفسه إلى تحقيقه من مجد و... وجاهة! أم أنه قرأ الأخير الذي ينص على أن يقرأ التأريخ جيدا من يطمع بفراش "سودة" وأضرابها، وأن يتابع فيه أعمال القادة البارزين الذين سجلوا اسماءهم فيه ليعرف كيف حققوا النجاح ووصلوا إلى ما وصلوا إليه، لكي يستفيد من تجاربهم، وسواء إن كان هذا قد قاد إلى ذاك، أو العكس، فأنا أستغرب كثيرا كيف أنه لم ينتبه إلى أن ستار حديد نفسه لم يكن موجودا عندما قرر هو أن يتبع خطاه... أنا لا أقول أنه قتل أو أنه أزيح عنوة، فقط لم يكن موجودا، أفهمتم... أنا هنا أتكلم عن الملايين التي تحمل ستار ذنب نفيهم من دنيا الأحياء، ثم ماذا، ألم يتبعهم إلى هناك، فلم فعل ما فعل... لم لا يفهمون هذا الأمر... ولم يتكرر هكذا، هم لا ينقصهم الذكاء، والعبرة أكثر من واضحة، فلم لا يتعضون... أنا لا أفهم، من يدري، لعله غرور الانسان الذي يجعله يتصور أن ما حدث لغيره لا يمكن أن يتكرر معه، و،لكنه، يـــ، تـــ، كرر... على أي حال، قرأت مرة عن لص كان قد حير شرطة بلد ما، كان ذكيا إلى درجة أنه لم يكن يترك وراءه أثرا بالمرة، رغم ضخامة الأموال التي كان يسرقها، والأنكى من ذلك، أنه كان يبتدع في كل مرة، خطة جديدة تختلف عن سابقاتها، كان لا يكرر خطة ما مرتين، الأمر الذي يجعل من توقع خطواته مسبقا أمرا مستحيلا وهو ما أبقى الشرطة هناك في حيرة من أمرها وهي تواجه ضغوط الرأي العام المطالب بايقاف هذا

اللص الذي ذاعت شهرته... تراكمت الاعتراضات، والتهكمات والانتقادات على الشرطة العاجزة التي لم تستطع أن تفعل شيئا، حتى شاءت الصدف أن يقع هذا اللص في قبضة الشرطة، هكذا لمجرد أن الحظ شاء، لا لكفاءة أجهزة الشرطة، ألقي القبض عليه، ومع ذلك فقد تصرفت الشرطة وكأنها فعلت المستحيل، وملأت الدنيا تصريحات وبيانات... في التحقيقات التي أجريت مع اللص اللدود، سأله المحققون عن خططه، وكيف كان يبتدعها، فأجابهم بكل بساطة، أنه كان يستنبطها من الأفلام... تبين أنه كان مولعا بالسينما، ويحرص على أن لا يفوته فلم من أفلام المغامرات والاثارة، وخاصة اذا كانت تتعلق بعمليات السطو الكبرى التي دأبت تلك الأفلام على تقديمها... كان يشاهد الفلم الذي يثير انتباهه أكثر من مرة، حتى يحفظ تفاصيله وتفاصيل الخطط التي يتبعها أفراد العصابات والسراق، على ظهر قلب، كان لذكائه، يعرف أن حسابات الأفلام لا تناسب بيدر الحياة الواقعية، ولذلك كان يحرص على تشذيب تلك الخطط الخيالية حتى يجعلها قابلة للتطبيق الفعلي، ثم يفاجئ الشرطة بخطة تمسح بكبريائهم الأرض وتشعرهم بمدى عجزهم عن مقارعة هذا العقل الجبار الذين لم يكونوا يعرفون من أين يأتي بعلمه! ولكن محققا أراد أن يتذاكى، فقال له أن جميع الأشرار في تلك الأفلام، ينتهون نهاية سيئة، فلم لم يتعض من ذلك، عندها أجابه اللص وقد ارتسمت ابتسامة استخفاف على شفتيه، أنه لم يكن ينتظر أبدا ليرى نهايات الأفلام التي كان يتابعها.

لــمـــ(♫سي♪) ا (♫دو♪)   أ (♫سي♪)نـــا (♫دو♪)خـــ(♫ري♪)ــو (♫دو♪)

قـــ(♫فا♪)ــبـيـــ(♫مي♪)ــل (♫ري♪) الـــ(♫ري♪)ــصبـــ(♫مي♪)ــح (♫دو♪)

عيـــ(♫ري♪)ــســـ(♫مي♪)ــهـــ(♫دو♪)ــم (♫سي♪)

و (♫سي♪)حـــ(♫دو♪)ــمـــ(♫سي♪)ــلـو (♫ري♪)ــها (♫دو♪)

و (♫فا♪)سا (♫مي♪)رت(♫ري♪)

فـي(♫ري♪)   الـــ(♫ري♪)ــهـــ(♫مي♪)ــو (♫دو♪)ى(♫سي♪)

الـــ(♫سي♪) إبـل (♫دو♪)

هذا هو مقام الرست، اسمعتم ما أعذبه، ولكن مقام الصبا، هو سيد المقامات لدى أهل الديرة، بل هو مقام الديرة الأول لأنه يستطيع أن يعبر عن كل أحزانها، وأحزانها لو تعرفون، كثيرة، بل كثيرة جدا... مقام الصبا حزين، ولا يليق الحزن بشئ، مثلما يليق بالديرة، ولم يتغلغل الحزن عميقا ببشر، مثلما تغلغل بأرواح أهل الديرة... لي صديق كان قد سافر إلى ديرة غريبة، ديرة بعيدة، للدراسة، هناك، تعرف على فتاة كما يفعل معظم أبناء الديرة الذين كان يسبقهم شبقهم إلى هناك، فاشتهاها كما لم يشته فتاة من قبل، فقد كانت جميلة جدا... في يوم دعاها لتذوق أكل اهل الديرة الذي وعدها بتحضير أصناف منه، لها، لوحدها، آملا بذلك أن يجتاز العائق الأخير الذي يمنعه من... بتم تعرفون ذلك الأمر المهم بالنسبة للإنسان، أليس كذلك... فيما كان يغسل الأطباق في مطبخه، بعد تناولهما الطعام، تذكر ما هو موعود به بعد قليل، فقد بدت متفاعلة جدا خلال الوقت الذي انصرم، بل أن عينيها بدأتا بفضح رغباتها، والعين لا تكذب أبدا، كان على يقين من أنهما، وبعد أن يعاقرا القليل من الخمر، ويسري الدفء في جسديهما الفتيين سيتسابقان

إلى غرفة النوم، أو حتى أنهما سيفعلانه حيث كانا جالسين... شعر بفرح كبير، فقرر أن يغني قليلا... بعد أن انتهى، من واجباته المطبخية، والغناء معا، أسرع إلى حيث ضيفته الشهية التي ظن أن ثمارها باتت دانية القطوف... ألفاها واجمة، وقد احمرت عينيها من البكاء! صاح بانفعال ديروي واضح "ما بك يا عزيزتي، أتعانين من شئ، هل أزعجك أحد، فقط قولي وسأ..." ولكنها قاطعته وهي تقول بهدوء مشوب بحزن رقيق "لا، فقط كنت أستمع إليك وأنت تغني، لم أفهم كلمات الأغنية، ولكني شعرت بمدى حزنك، فبكيت" فصاح جزعا، وراح يدفع عن نفسه تهمة الحزن بحرارة، ولكن الحزن كان قد تسرب إليها بالفعل، ولأنه كان قد أذهب رغبتها، فقد غادرته من دون أن يقضي وطره، فكانت تلك آخر مرة يغني فيها أغنية من مقام الصبا، أمام فتاة.

غـ (♫ري♪)**ـريـ** (♫لا♪)**ـبة** (♫صول ♪)

من (♫فا ♪)**بـ** (♫مي♪)**ـعد** (♫ري♪) **عيـ** (♫فا ♪)**ـنـ** (♫مي♪)**ـج** (♫فا ♪)

يا (♫ري♪)**يـ** (♫فا ♪)**ـمة** (♫مي ♪)... أرأيتم، غربة وحنين وحاجة وإفتقاد... خلطة ممتازة لتسويغ الحزن...

محـ (♫ري♪)**ـتا** (♫مي♪)**رة** (♫فا مي♪)**بـ** (♫ري♪)**ـز** (♫مي♪)**ما** (♫فا ♪)**ني** (♫مي ♪)... وكأن ذلك الخليط العجيب من المثبطات لم يكفهم، فأضافوا إليه الحيرة... **يا** (♫لا♪)

هـ (♫صول♪)**ـو** (♫فا ♪) **الـ** (♫فا ♪) **ير** (♫صول♪)**حـ** (♫فا ♪)**ـم** (♫مي ♪)

بـ (♫ري♪)**ـحا** (♫ري♪)**لي** (♫فا مي♪) **يا** (♫ري♪) **يـ** (♫مي♪)**ـمة** (♫فا ♪)

لو (♫ري♪) **د** (♫مي ♪)**هـ** (♫فا ♪)**ـري** (♫مي ♪) **ر** (♫ري♪)**ما** (♫مي فا ♪)**ني** (♫ري♪)... ويا ليت شعري إن لم تكن رميات الدهر، ثالثة الأثافي، فما قد تكون؟ ولكن أتعرفون، كل ذلك كان ليهون لو فقط أن اللحن لم يكن جميلا،

ولكنه جميل إلى درجة لعينة وله وقع كبير في وجداننا... والألعن من ذلك عندما يكون الصوت الذي يؤدي الأغنية، رخيما... إذا ما استمعتم إلى مقام الصبا، مصحوبا بالموسيقا، فأوصيكم ان تركزوا جيدا، حتى تميزوا أنين الناي من بين أصوات الآلات الموسيقية التي تصدح، فهو لا بد أن يكون من بينها، عندما تتمكنون من ذلك، اغمضوا أعينكم وركزوا على سحر الناي وعندها ستعرفون ما أعني بالحزن... الناي، هذا الساحر الذي ينساب الحزن رقيقا، شفافا وآسرا من فتحاته، أتصور... وبالمناسبة، فإن المختصين يعتقدون أن الناي وجد في أرض الديرة أولا، أما أنا، فلا أعتقد، بل أنا على يقين من ذلك، إذ لا يجدر بمكان آخر أن يبتدع مثل هذه الآلة التي تقطر حزنا ونشيجا، غير الديرة، حيث الحزن، صناعة محلية! أتصور أن ملاكا قد أضناه الشوق إلى السماء التي نفي منها، فإخترع الناي ليعبر به عن لوعته وبرمه من الحزن الذي تسببه له أرض الديرة حيث حكم عليه أن يقضي المتبقي من سرمديته، سمعه راع من رعاة الديرة القدامى، أعجبه، فسرقه من الملاك المسكين، أو سلبه إياه بخديعة من تلك الخدع التي يتقنها أبناء الديرة، ومضى يملأ البطاح حزنا وهو يمطرها بدموع الألحان... انا لا أقول بذلك، أن الحزن جميل، ولكن يبدو أن اهل ديرتي لا يستطيعون أن يجدوا أنفسهم إلا فيه... آه... آه، لقد تذكرت للتو ما أردت قوله من خلال إصراري على الحديث عن الموسيقا... كان يجدر بي أن أتذكره عندما حدثتكم عن أجدادي، ولكن توتري الناتج عن حرصي على أن اقول لكم كل شيء جعلني أسهو عن ذلك... المهم تذكرت الآن وهذا يعني أن الأموات يتذكرون أيضا والحمد لله... لقد قلت أن أجدادنا طوروا آلاتهم الموسيقية وإعتنوا بألحانهم حتى إستنبطوا المقامات التي كانت الخطوة

الأولى نحو الجماعية... فما عندنا لنتباهى به... أضفنا وترا على آلة من آلاتنا الموسيقية... يا للروعة، ولكننا لم نستطع أن نطور ألحاننا فبقيت (ميلودي) لا تتجرأ على أن ترنو إلى قمة (الهارموني)... إني أتحداكم أيها المتبجحين أن تجترحوا لحنا من دون إيقاع... انا أعرف بأنكم ستتغامزون فيما بينكم، وتكتمون ضحكاتكم وأنتم تتساءلون مستهزئين، إن كان يوجد أساسا لحن من دون إيقاع... بل يوجد، ولكنكم لا ترون... دم، ددم، ددم، دم، دم، دم... نعم، أنا أقصد هذا... الـ(دنبـ گ) وأضرابه، أتصورتم أني لا أعرف أن الإيقاع بمعناه العام موجود دائما وضروري، ولكني قصدت هنا تلك الأصوات التي تهيج المشاعر الدنيا، وتثير الرغبات، والتي لا يخلو منها لحن من ألحانكم لأنكم تستخدمونها في ضبط الإيقاع... دم، ددم، ددم، دم، دم، دم... الا تشعرون أن هذا لحن جنائزي يصاحبكم وأنتم تسيرون إلى الفناء... ثم ألا ترون أن صوت هذه الآلة لا يختلف كثيرا عن الأصوات التي يمكن أن تصدرها قوقعة بحرية او جوزة هند أو حتى موزة يابسة مما تستخدمها الشعوب البدائية في أعماق الغابات أو في مجاهل الصحارى والسهوب لإستنباط موسيقاها... هو فن، نعم، ولكنه من الضرب الذي لا يمكن أن يوصلنا إلى مكان... أواه يا أصدقائي هم لم يفهموا أبدا أن النغمة الراقية مرتبطة ارتباطا وثيقا بلوحة هائلة أو رواية رائعة أو شعر راق... هم لا يتصورون أبدا أن الموسيقا الحقيقية قد تعني نظرية علمية متطورة أو بناية متميزة العمران أو ذوق مرهف في تنسيق الزهور... هم لا يريدون أن يعرفوا أن فلما ناجحا أو مسرحية حقيقية قد يدللان على ذائقة موسيقية راقية أو فهم مثمر للعلم... نعم، هذه هي الحقيقة ودليلي رحلة شعرة ذيل

الحصان منذ أن وضعت أول مرة على ربابة بدائية حتى وصلت إلى مرحلة القيثارة الأكثر تعقيدا... أتتذكرون القيثارة الأعجوبة التي ديست بالأقدام وحطمت... بالطبع لا تتذكرون، أو لا تهتمون... لا بأس، ولكن أتعرفون ما فعله أجدادكم... أقصد أجدادهم، خلال تلك الرحلة، انا أقول لكم... إخترعوا الكتابة واستحدثوا الأرقام ثم وضعوا نظريات في الرياضيات... ثم كتبوا أساطيرا أصبحت مسلمات عند من تبعهم من أقوام، يعني أدب، أدب حقيقي لا أدب مقلد اصلي، لا (معاد!)... تعرفوا على السماء ووضعوا اسس علم الفلك، سنوا قوانينا ونظموا حياتهم... أصبحوا مهندسين في الري، وعلماء في الطب، وكل ذلك من دون إستعانة بـ(إنترنيت) أو قراءة كتب الغير، بل كان كل شيء نتاجا لعقولهم هم... كل ذلك فعله أجدادكم وأنتم... دم، دم ،دم ،دم، ألا تملون... بل ألا تقرفون من أنفسكم وأنتم تستمعون لنفس الايقاع مرارا وتكرارا وهو يعلن موتكم... مت، مت، مت، مت... ألم تعدوا يوما كم من أغنية سخيفة بشرت لظهور عنترة... وإلا أتصورتم أن عنترة قد استورد لنا من ديرة الجن والعفاريت، لا يا أحبتي، لقد تسلل عنترة من خلال جهلنا وأنانياتنا، من خلال لاأباليتنا وتدني مستوى أذواقنا، من خلال تخلفنا ورضانا بإنحدارنا، ثم أمسك بأعناقنا... هيا ،ألا ترون الدعاة من حولكم الآن، من كتاب جاهلين، وشعراء فاشلين، وفنانين، لن أظلمهم إذا ما دعيتهم يوما، بالمهرجين، وهم يمهدون لبعث ألف عنترة وعنترة، آخرين... إنظروا إلى ما فعله بنا مقام الصبا، وإلى أين تداعى بنا شجنه... أنا شخصيا أحب هذا المقام وأتذوقه، ولكن هذا هو بالضبط ما أريد أن أتحدث عنه، فالموسيقا، حالها حال كل نشاطات الإنسان، تعبر عن واقع حاله، ومن هذا نستطيع أن نعرف

أن التهافت الذي أصاب الموسيقا الدينية، واستشراء الحزن فيها حتى أصبح سمة لها، إنما أتى بسبب إنحطاط أهل الديرة وتردي أحوالهم... أنا أعرف أن البكاء أمر طبيعي بالنسبة لبني جويزع، بل إنه يكون مفيدا لهم أحيانا، ولكنه عندما يصبح هواية! يصبح ألما، وحب الألم يعني المازوشية، وهذه تعني التخلف، والأسوأ من ذلك، تعني الحاجة إلى الآخر الذي يستطيع أن يؤلمنا... السادي، الذي يميل إلى أن يكون قويا ومقتدرا، وهذا الميل يدفعه، ويا للعجب، إلى أن يكون متحضرا... لا، لا، أرجو أن لا تتشدقوا برحمة العموريين الأوائل، عندما تمكنوا من الآخرين، لأن ذلك كان نتيجة مقارنتهم بغيرهم من الأقوام السائدة، ويجب أن لا ننسى هنا تأثير الدين الإيجابي... ولكنهم مع ذلك كانوا واثقين من أنفسهم، مقتدرين، ولذلك كانوا أقوياء، والقوة، يجب أن تعني الظلم أحيانا... للأقوام الرازحة تحت نير غيرها على الأقل، ولا غرابة في ذلك، لأن هذا كان حال الإنسان المقتدر طوال تأريخه... أواه كفاني هذا التعذيب الذاتي، فأنا عرفت، بل آمنت باني متخلف لأني أستمريء الحزن... عرفت، والمهم هو أني قد عرفت قبل أن أموت، فهلا ساعدتم أنفسكم بأن تعرفوا وأنتم أحياء... إيه يا ديرتنا، كيف صار قدرك أن تلدي الانسانية، وأن ترثي بذلك كل هموم البشرية! وآه للإنسان، يا له من مخلوق غريب، بل هو أشد المخلوقات غرابة، فهو يستطيع أن يسمو إلى سماء الابداع، فيبتكر شيئا هائلا، مذهلا، مثل الموسيقى، ومع ذلك نجده لا يتورع عن إتيان كل ما من شأنه أن يدنس انسانيته في درك الأنانية وتبلد الأحاسيس، وغلظة المشاعر... تصوروا، لقد خلق الموسيقى، ولكنه تجرأ واستنبط منها المارشات العسكرية... يا للهول، يستخدمون تلك الألحان السماوية لبث الحماسة في الشباب لسوقهم إلى

حيث يشكلون كل قيمهم الانسانية، كل يوم، كل ساعة، كل دقيقة... بل كل ثانية... يأخذونهم إلى ميادين الذبح، إلى ساحات الوغى...

يا (♫ري مي ♪) **أمـ** (♫ري♪)**ـنا** (♫ري♪) **لن** (♫ري مي ♪)
نـ (♫صول ♪)**ـعو** (♫فا مي ♪)**دا** (♫ري♪) **عن** (♫لا♪)
خصـ(♫لا♪)**ـمنا** (♫فا ♪) **أو** (♫فا ♪) **نـ** (♫صول ♪)**ـبيـ** (♫فا
مي♪)**ـدا** (♫ري♪)

دعوا الأمهات وشأنهن أيها الكفرة، دعوهن لأحزانهن التي لا تنتهي، مالهن وخصوم لم يرنهم يوما، ولا يعرفنهم... هن يردن أولادهن أحياء، لا شهداء، فكيف يكففن دموعهن، وينتظرن رجوع أبنائهن، وكيف ينادين "هيا فتوة للجهاد" وأشلاء ابناءهن متناثرات في ساحات الوغى، ميادين الحرب، التي سرقوا أولادهن من أحضانهن، وساقوهم إليها، وذبحوهم هناك، أما كفاهم إبادة للشباب... للبشر... الحرب، يا لذلك الاختراع الرهيب الذي عبرت البشرية من خلاله عن أقصى طاقاتها الشريرة والمجرمة... ولكن، لم المكابرة، فهكذا كان دأب الانسان، فهو يستطيع أن يسمو مثلما يستطيع أن يتخبط في درك الدونية والحقارة، هكذا، لمجرد أن بوصلة نفسه تشير إلى اتجاه مغاير في كل مرة، لقد وجد هذا المخلوق ووجدت معه قابلية هائلة على التدمير والتشويه، فالحرب لم تكن اختراعا حديثا، بل هي في الحقيقة قديمة قدم حضارة الانسان نفسه، بل أنا أكاد أجزم أن الحضارة لم يتسنى لها أن توجد إلا كنتيجة حتمية لميل هذا الانسان للقتال كمجموعة، ضد المجموعات الأخرى لفرض سيطرته عليها، مستمتعا بآيات قوته المتنامية... اللعنة، وهم كبير خلقته لنا الانسانية، اسمه الوطن... لا، لا، انا لست كافرا

بالوطنية، بل أنا أدين الأوطان الضعيفة لأن مواطنيها لا يحترمهم أحد، أما الأوطان القوية، فتستحق ان ينتمي إليها الانسان وأن يفتخر بارتباطه بها... صحيح أنها كانت وهما أفرزته البشرية وهي تنتقل من المرحلة الفردية إلى المرحلة الجماعية الأكثر تحضرا، ولكنها بعدما أصبحت بمرور الوقت وتقادم الزمن، واقع حال، فهي على الأقل قوية وتستحق أن ينتمي إليها المرء... ما هذا، ما لي أرى رؤوسكم تهتز كالبنادل وكأنكم توافقوني على ما أقول، اتقروني... نعم، إذا اقرؤوا على انسانيتكم السلام، ما الذي تتصورونه أيها السذج، كيف تكون الأوطان قوية، أتتصورون أنها تذهب إلى قاعات التربية البدنية، وكمال الأجسام، لترفع الأثقال، وتشرب الحليب والأغذية الصحية لتنمي عضلاتها وتبني الأجساد القوية... صباح الخير أعزائي، دعوا عنكم هذا النفاق الذي تعودتم عليه، فالوطن القوي يحتاج إلى حاكم قوي، والحكام، كل الحكام، يعرفون أن الحارث الابليسي ذاك، نبيهم الذي يطيعون، كان قد أوصاهم أن لا يفكروا بغير الحرب، وأن لا يدرسوا سواها، لأنها هي الفن الوحيد الذي يحتاجه جميع الحكام، والحاكم الذي يزدري هذا الفن، مضيع ضيعته التي يرتع بها، لا محالة... افهمتم، الوطن الجدير بالإنتماء إليه يحتاج إلى جيش قوي، والجيوش القوية لا توجد إلا لخوض الحروب... لا، لا، لا تحاولوا أن تكلفوا أنفسكم عناء الاشارة إلى تلك الضيعات المحايدة، هيا كونوا أكثر ذكاء، فتلك الضيعات لم توجد إلا لرغبة الأقوياء في الدائحة واتفاقهم على أن يكون هناك مكانا آمنا يستطيعون أن يخزنوا فيه أرباحهم المتأتية من حروبهم التي يخوضونها بأنفسهم، أو تلك التي يخوضها لهم غيرهم، بالوكالة، نعم لا تستغربوا، ففي كل الحروب هناك رابح، رابح أكبر، وقد يكون

أوحدا، ولكن المهم هو أن يكون هنالك رابح، واطمئنوا، لأنه في كل الأحوال لن يكون نحن، فنحن من الصنف الخاسر دائما ما دمنا لا نمتلك مصيرنا... والشئ الأكثر مدعاة للسخرية، هو أن تلك الضيعات الممنوعة من الحرب تمتلك صناعة عسكرية متقدمة لإنتاج الأسلحة، نعم أسلحة، اتعرفون ذلك... يا للسخرية، وكأنهم بذلك يقولون للآخرين، الذين هم نحن، وأمثالنا، "أبقونا هكذا على الحياد لكي نستطيع أن نصنع لكم أسلحة تبيدون بها بعضكم، عسى أن نبقى نحن لوحدنا سالمين، ونرث الدائحة" هيا اعزائي، أنتم لا تستطيعون أن تحتفظوا في عالم كهذا بالمتناقضات، فإما أن تكونوا وطنيين أو تكونوا إنسانيين... عذرا أصدقائي فأنا لم أتعود بعد على مخاطبتكم، ولذلك أتصوركم بشر مثلي، أو كما تعودت أن أكون... حسنا، ساقول، أن تكونوا ملائكيين، ولكن ما هذا الذي أقول، لستم انتم المقصودين، فلم أقحمكم في ما لا شان لكم به، حسنا، حسنا، فقط تحملوني... أين كنا، ها تذكرت، الحرب... الحرب مسخ قذر تناسلت أوهام بشرية عديدة فولدته، ليبتلي به الانسان وتسببت له بملايين وملايين الضحايا منذ أن انتفض على فرديته وقرر أن يبدا مسيرة الحضارة... انتبهوا، انتبهوا جيدا، فهم يريدون أن يقنعونا ان هناك حروبا مجيدة، وأخرى ليست كذلك، لا، لا تدعوهم يخدعونكم، فكل الحروب قذرة لأن ضحاياها يكونون دائما، الأفراد الأبرياء... نعم، قد يكونون مخدوعين، ولكن متى كانت عقوبة المخدوعية هي القتل... هم يريدون ربطها بالأوطان، والأوطان تحتاج إلى القيم الانسانية والمثل لتزدهر... رباه أية حيرة هذه، لقد قلت لكم قبل قليل ما هي حقيقة الأوطان المستقرة، القوية، فكيف يكون ما قلته للتو... ألا لعنة الله على من ابتدع وهم الأوطان هذا... ماذا،

إياكم أن تجرؤو، أنا لن أسمح لكم، أنا أعرفكم... ها أنذا أفعلها مرة ثانية معكم، عذرا، ولكني أخاطب من كنت أتمنى لو استطعت أن أخطب فيهم، ولكني لم أجرؤ، هيا تحملوني فأنا أقصد المرائين، المدعين الذين سيملؤون الدنيا صراخا إذ يسمعوني، هم سيدينونني بكل تأكيد لأني تجاوزت خطوطهم الحمر وقلت كلاما محرما بالنسبة لهم، رغم أنهم لا يمتلكون الجرأة للدفاع حتى عن قيمهم الخاصة... نعم، فأنا أعرفكم جيدا، ستقولون أنظر إلى هذا المأفون الذي يعادي المشاعر الوطنية ويحاول اقتلاع كل القيم والمبادئ من أعماق مستمعيه... كلا، فأنا أعرف أن هذه الأفكار قد زرعت فينا حتى قبل أن نولد، وإنها قد اكتسبت شرعية الوجود قبل أن يستولدني أبي من رحم أمي... لقد كانت ثمة أوطان، لا أوهام عندما ولدنا، وما دامت قد وجدت بموافقة انسانية، فلا بد أن نرتضي بها، على شرط أن تكون قوية لكي نتمكن من الانتماء إليها بطيب خاطر... أنا أعرف كل ذلك، ولكن أحزاني هي التي طغت، ومخاوفي هي التي سيطرت، فقد ضاعت الديرة وانفرط عقدنا، وبدلا من أن نتلاعن، أو نتنابز بالألقاب، هلموا لنستعيدها، أنتم تعرفون كيف سلبت، وتعرفون جيدا الطريقة الوحيدة لاستعادتها، أمستعدون أنتم... ها أنذا، انبذوا من بينكم السماسرة والقوادين، تطهروا من رجس أزواج سودة وتركاتهم، انسوا تعاليم أعمامكم، كونوا ديرويين، وديرويين فقط، وتعالوا، فأنا مستعد، برحمة أمي أنا مستعد... رحمك الله يا أمي، لقد قالت لي قبيل أن يمنعها الموت من معاصرة عقدها التاسع، تصوروا، عقدها التاسع، قالت لي "أريد أن أقاتل مع الشباب الذي يقاتل" قلت "ولكنك لا تستطيعين ايتها الحبيبة" فقالت معترضة علي "اتعيرني بعمري أيها العاق" فضحكت وقلت "عذرا يا أمي، ولكن ليس الجميع مؤهل لحمل

السلاح، ولا أتصورك قادرة على الكر والفر" لم يثبطها قولي، فقالت بعد تفكير قصير "افلا أستطيع أن أطبخ لهم طعامهم أو أن أغسل لهم ثيابهم أو أن أداوي جروحهم التي سيصابون بها حتما. أليس هذا قتالا" فبكيت وأنا أقبل كفيها قائلا "بل هو والله قتال، وأكثر من قتال أيتها الرائعة، ولكن" ألا لعنة الله على كل من اخترع الاستدراك في اللغة، "لكن" هذه تكبح المشاعر الفياضة وتمنع المرء أحيانا من فعل ما يتوجب عليه فعلا... المهم، أنا ابن تلك المرأة يا أوغاد، إن كنتم راغبين، فأنا مستعد... قد اكون مصابا ببضعة عشرات من العاهات، مثلكم، ولكني أحاول أن أكون أفضل دائما، ولا أريد أن أحاول إخفاء جبني بادعاءاتي، لا أريد أن يكون ما أقول، كلام حق يراد به باطل، وإلا، أتصورتم أن مثلي كان ليرتضي أن يكون الحمام أشد وطنية منه، لا لن أكون كذلك، ولكنكم تعرفون أن الحق يجب أن يقال في النهاية، وليس ذنبي إن بدت دروبه شائكة، أو أن مسالكه مليئة بالمتناقضات... اللعنة، اللعنة، اللعنة، لقد نسيت أني قد مت وأنكم مجرد ملائكة... على كل حال، هذا لن يمنعني من التأكيد على أن الحروب، قذرة.. مدمرة.. ماحقة لإنسانية البشر، مرعبة.. نعم مرعبة... اتتصورون مثلا أن إنسانا عاقلا يمكن أن يتمنى كابوسا ليستبدل به واقعا مرعبا... هذا يحدث في الحروب، بل هو حدث لي شخصيا... كنت أركض كالمجنون، احاول أن أحقق موازنة صعبة بين السرعة والدقة في اختيار مواطئ قدمي، لأني كنت أضطر لأن أقفز فوق ساق مبتورة أوعلى ذراع فصلتها شظية عن منبتها، أو اصبع أو كسرة جمجمة وقد التصقت بها نتفة بيضاء من قطن الدماغ، أو حتى جثة لم يكن يسمح الظرف أن أحيد عنها، فأجتازها قفزا، كان يجب أن أصل بأسرع ما يمكنني، ولكن لم كان علي ذلك، أنا لا أعرف، بل لم

كنت مسرعا أساسا، لا أعرف أيضا، إذ ليس من المعقول أن أستطيع سبق رصاصة من مئات آلاف الرصاصات التي كانت تئز من حولي، أو أن أستطيع بسرعتي أن أحيد عن درب ملايين الشظايا التي كانت تتناثر... على كل حال، فيما كنت أركض تذكرت أني لم أكن قد رأيت الشمس من أيام، بل الحقيقة هي إننا لم نكن نعرف إن كان الجو صحوا لتظهر الشمس، أم لا، لأننا ببساطة لم يكن بامكاننا أن نرى السماء، لا، لا، لم يكن ذلك لأننا كنا نتحارب في القاعات المغلقة، بل لأن السماء فضلت أن يكون الدخان حاجزا بيننا وبينها لكي لا تضطر لمرأى ما يحدث من مآسي عندنا من دون أن تستطيع منعها... رفعت رأسي وأنا أركض، فرأيت الدخان الجهنمي الذي يلامس قمم النخيل المرتجفة وهي تنصت إليه هامسا بنذر النار العظيمة في قيامة البساتين تلك... فجأة، خطرت لي فكرة جعلتني أتوقف عن الركض، كانت ومضة أمل جعلتني أشعر بارتياح عارم وأن أتجرأ، على أن أفرح، ماذا لو كان هذا المنظر الذي يكاد يجعلني جزءا من مشهد متقن في فلم من أفلام الكوارث، ماذا لو كان مجرد كابوس... رباه اجعله كابوسا، إرحمني يا الله وليكن كابوسا، يا رحمن يا رحيم يا وهاب يا منان يا كريم يا عظيم يا سلام يا عزيز يا سميع يا بصير يا لطيف يا غفور يا عفو يا رؤوف... كابوس، اجعله كابوسا... قرصت ذراعي لأتأكد، ولكن هيهات، دفعني ألم القرصة إلى أن أعود إلى الركض المجنون وأنا أكاد أبكي كابوسي الضائع، كابوسي الجميل الذي لم يتحقق... الحرب، تزعزع اليقين، وتخلط الزمان بالمكان، أسوأ ربط ممكن وأحقره، فقد يتصور البعض أنه إذا ما ابتلي بمشاركة في حرب، فإنه سيشعر بأنه قد وصل بذلك إلى نقطة زمنية هي أقرب، إلى نهاية حياته... نعم، الحرب تجعلك تشعر بذلك، بكل تأكيد،

تفعل، ولكن الجندي في المعركة يشعر أيضا أنه يقف في لحظة احتدام المعارك، في نهاية العالم، مكانيا، لا زمانيا... أنا أعرف أن مثل هذا المكان لا وجود له على الدائحة لأني أعرف أنها ليست مسطحة، ولكني رأيت في كل مكان خضت فيه معركة قاسية، نهاية للعالم... ولكني كنت في كل مرة، أعود... لا، لا تتصوروا أني كنت أعود لأنني بطل، لا بل كنت أعود دائما لمجرد أن خط العمر في كفي أطول من أن أستهلكه في تلك اللحظة، أي أن مدة صلاحيتي التي ختمت على مكان ما، لا أدري، لعله قفاي، لم تنتهي... ولكن أتعرفون كم من صلاحيات انتهت لشباب شاء حظهم أن تغطي تلك الصلاحية عندهم، مسافة زمنية تتضمن حروبا... آه يا ديرتي كيف أصبحت عنوانا تختفي خلفه كل تلك الجرائم... كنت أعود في كل مرة، مضنيا برعبي وبكاهل ينوء بكوابيس لم تزل لحد الآن، ورغم مرور كل تلك السنين، تجعلني أفر منها بالاستيقاظ، غارقا في عرقي حتى في ليالي الشتاء الباردة، استيقظ وأنا متعب، متعب حد الانهيار، ووجيب قلبي يكاد يشق صدري... ما لكم تتابعوني هكذا فاغرين أفواهكم وكأني أحدثكم عن بطولات، هيا فأنتم تعرفون بأني جبان، أنا الآخر، مثلكم تماما... عفوا سادتي، أنا لا أقصدكم، بل أقصد الجبناء من البشر... نعم أنا جبان، جبان، ولو لم أكن كذلك، لتمكنت من انقاذ رياض، صديقي رياض الذي ما كنت لأتصوره سيقف مكتوف الأيدي لو كان في مكاني... رياض، الذي بقي ممددا على بطنه، معفر وجهه في التراب وهو ينتظرني، لأنقذه... أنقذه! ولكن كيف كان بامكاني أن أنقذه وأنا خائف على حياتي، حياتي التافهة... لا، لا، هو كان بحاجة إلى رجل لفعل ذلك، رجل، لم أستطع أن أكونه... كان الأعداء... الأعداء! وهل للإنسان عدو أسوأ من نفسه... لا لن أقول الأعداء، بل الآخرون، البشر الآخرون،

الخطاة، الأغبياء، نعم الأغبياء من الجانب الآخر، كانوا قد أحكموا الطوق من حولنا وأتموا حصارنا في تلك الغابات التي تدانت النخلات البائسات فيها، وهن يندبن بسوقهن الغابر ... رباه، كيف فقد النخيل كراماته في أيام الجنون تلك وبدأ يتساقط وكأنه مجرد أعواد ثقاب لا قيمة لها، والنخلة التي صمدت، ولم تسقط، احترقت... المهم، بعدما حاصرونا، عرفنا أننا هالكون لا محالة، فها هم من حولنا على بعد مائة، قد تزيد، خمسين مترا، لا نراهم، ولكننا نعرف أنهم موجودون، موجودون بشكل قاس، مؤلم ومخيف، ومن جميع الاتجاهات، ما عدا شارع تمكنوا من جانبيه، ولكنهم لم يقطعوه... تسرب اليأس إلى أنفسنا لأننا حتى إذا ما تمكنا بمعجزة من النجاة من طوقهم، فإن رصاصات فرق الاعدام العشوائي يمكن أن تحصدنا إذا ما انسحبنا من دون أمر... ونحن في قمم اليأس الظالم ذاك، برز من حيث لا أدري، جنود من جيشنا، كانوا على مبعدة أكثر من مائتي متر وهم يتأهبون لشن هجوم مقابل لفك الحصار من حولنا، أو هكذا توهمنا... دب الحماس فينا مع صولة الأمل على سحب اليأس في دواخلنا... صدرت الأوامر للأعداء، أن يصولوا على الأعداء، ليدحروهم، فرافقتهم دعواتنا، بل صيحاتنا المشجعة طوال الأمتار المائة أو المائتين التي ركضوها أمام نواظرنا المعلقة بهم قبل أن يسقط آخرهم دون خطوط العدو الكامن الذي لم ينبئ عنه غير أضواء الصليات التي حصدوا بها أولئك الفتية الصائلين... صدرت الأوامر بالانقضاض على الموت، فإنقض عليهم هذا ولم يمهلهم غير ثوان قبل أن يذيقهم من كأسه القاتل... تصوروا، ما هي إلا عشرة ثوان، عشرون أو حتى ثلاثون ثانية فيتساقط حوالي مائة انسان، مائة قصة، مائة حالة ثكل أو يتم، مائة قصة حب مغتالة أو مشروع ترمل أليم...

هكذا بكل بساطة، أمر وانقضاض، صولة الموت، ثم صمت مهول! بعملية حسابية بسيطة، وبفرض الإحتمال الأطول للزمن، نكتشف أن الموت قد عمل بطاقة قبض أرواح، ثلاثة بشر وثلاثة أعشار الانسان في الثانية الواحدة... يا له من رقم محترم يسجل للموت... انا أعرف أن جزءا من ثانية يمكن أن يقبض أرواحا أكثر بكثير من هذا الذي ذكرت، أتصورتم أني لا أعرف عن مقدرة الأسلحة الرهيبة الموجودة، ولكني اتحدث عن الأسلحة التقليدية هنا، كما أن تلك، لا تترك شهودا بعدها، أما هذه فقد شهدتها بنفسي، رأيتها كما أرى الأفلام في تلفاز بيتي، ولذلك كان لها أثر رهيب في نفسي... كان أحدهم قد اقترب كثيرا من الأعداء الأشباح، ومصيره كان السقوط لا محالة، فسقط، ولكن سوء حظه جعله لا يموت على الفور... بقى ممددا على بطنه وهو ينزف حياته ببطء شديد، كان يرفع يده بوهن شديد مستنجدا، ولكن ما من مغيث... لم أعرف يوما إن كان اليأس قد جعل رفاقي بتلك الهستيرية وهم يشحذون هممهم للذهاب لنجدته، أم أنهم كانوا فقط يمارسون هوايتهم المفضلة في النفاق والادعاء، ولكن غضبي تفجر كالحمم عندما صاح به أحدهم "إصمد يا إبن عمي حتى يحل الظلام، وسنأتي لإنقاذك"... إصمد، كيف يصمد وهو ينزف، كيف يقنع عزرائيل أن يؤجل قبض روحه حتى يأتي الصناديد لإنقاذه بعد حلول الظلام الذي كان يبعد أربع ساعات، أو أكثر... وليتني كنت مقتنعا انهم سيفعلون... صرخت بأعلى صوتي "جبناء" ثم امتطيت صهوة الساتر الترابي بخطوتين فقط... كنت غاضبا، مصمما، متحفزا، كنت مقداما... وأنا على أعلى الساتر، تطلعت في الأمتار المائة التي تفصلني عنه، من أرض خلاء، أرض مكشوفة، لا نخلة واقفة فيها، ولا ساتر يستر زحفي نحوه... بدأ عقلي اللعين الذي كان قبل ذلك قد دحره الغضب، يفرز افرازاته المنطقية،

يحلل بسرعة هائلة، ويصدر الأحكام... فجبنت، نعم جبنت، فخذلت صديقي رياض الذي كان قد تمدد تمديدته الأخيرة، لم يستطع أحد إنقاذه، فلمت من شهد رقدته الأخيرة من دون أن يحاول مساعدته، لمتهم جميعا على موته، لمت آخرين لا أعرفهم على جبنهم، وها أنذا أتصرف مثلهم بالضبط، فأجبن، وأخذل صديقي رياض حتى بعد مرور ثلاث سنوات على موته... اهتززت وأنا أعلى الساتر، فرجعت إلى مكاني السابق، لأحتمي به، ولأشهد موت صديقي، بعيني هذه المرة... رباه لكم يلذ لنا أن نحكم على الآخرين، ولكن، عندما يتعلق الأمر بأنفسنا، فلن ندخر مبررا أو تسويغا لتفسير تصرفاتنا تفسيرا يختلف عن تفسيراتنا لتصرفات الآخرين.. عندما خمدت حركته أخيرا، بكيت، بل كدت أنتحر بكاء، بكيت، وبكيت، وأنا أنتظر الليل لأخلي جثته على الأقل، ولكن الليل أتى، ولم أفعل ذلك أيضا لأنه كان يتمدد على بعد أمتار قليلة فقط من آلات الموت في أيدي أعدائي، والتي جعلت الخوف يسلبني إرادتي!

حسنا، لقد مت الآن وتخلصت من تفاهات الحياة، وبشاعاتها، ولكن يبدو أني لم أستطع أن أتخلص من أثر الحرب في نفسي، أنظروا، لقد اقشعر شعر جسدي وأنا أستعيد تلك الذكريات المقيتة للحرب... ولكن، اي شعر وأي جسد، أنا ميت، ولكني أقسم لكم أني أشعر في هذه اللحظة، بشعور القشعريرة ذاك... الحرب، قمة الابتكارات البشرية وأشدها انتهاكا للقيم الانسانية، لم تكن ضد الإنسان نفسه وحسب، بل هي ضد كل شئ حي، وجامد ايضا... فبالاضافة إلى الدمار الذي تسببه، هي تؤثر على حياة الحيوانات التي تشارك الانسان حياته على الدائحة، وتمحق شخصياتها... ولكم عانينا من كلاب لم تتحمل وطأة لحظات المعارك الرهيبة، فأخذت تنافسنا على الملاجئ التي نلوذ بها في ساعات

الخطر... الفئران، تلك الحيوانات الصغيرة التي تمتلك الحس الأمني الأعلى من بين الحيوانات التي تناهزها في الحجم، والتي كانت تشاركنا حياتنا في تلك الجحور، ولطالما سامتنا سوء العذاب بسبب اعتدائها المستمر على أطعمتنا، أتعرفون ما تفعل عندما يعبق الجو برائحة الخطر الداهم، كانت تلجأ، وقد أصم دوي المعارك الهائل أذن غريزة البقاء فيها، إلى أحضان الأفاعي طلبا للأمان، يا الله، لو أنها فقط كانت تعرف أن الأفاعي لا تمتلك حاسة السمع التي يمكن أن تجعلها تحس بالخطر، لما صارت لقمة مجانية سهلة جدا، لتلك الوحوش الزاحفة، ولكن آه من الجهل، لكم يكون قاتلا أحيانا... على كل حال، يظلم الانسان نفسه، ويظلم معه جميع الحيوانات التي تشاركه حياته، ولكن تلك الحيوانات تنتقم لنفسها أحيانا، فتلتهم الإنسان، أو على الأقل تلتهم جثته، فكذلك فعلت الكلاب والقطط معنا، بل لعل جميع الحيوانات اللاحمة القريبة منا فعلت ذلك، ولكن السمك في تلك المنطقة المغمورة بالمياه، حيث بقينا لأشهر انتهت بكارثة، أكل من جثثنا حتى الإشباع، شبع ممن كانوا لا يشبعون من أكله صباحا ومساء، انتفض السمك، فأكل كل من لم يضمن مكانا لجثته على تراب الشارع الطويل الذي يمتد في قلب البحيرة، فابتلعه الماء، ولكن الذي يحزنني هو أن أولئك الخطاة الذين أكلوا، لم يكونوا هم من اخترع الحروب أو أشعلوا فتيلها، كانوا ضحايا أيضا، ولكن الضحايا يمكن أن يأكلوا الضحايا، والغريب أن الحياة يمكن أن تستمر هكذا... ماذا، لا أيتها المخلوقات اللطيفة، أنا لا أقص عليكم كل هذا لتتعاطفوا معي لما قاسيته، لا تحزنوا، بل من يدري، لعلكم تبكون في هذه اللحظات، فانا لا أتوقع أن تكون دموعكم ماء مالحا، ولكن، ما قد تكون، حسنا، قد تكون

نفحة عطر، أو نسمة عليلة، مهما تكون، ولكن المهم، هو أن لا تحزنوا، فأنا أحدثكم فقط عن الحقيقة كما رأيتها، ولكن الذي يجب أن تعرفوه، هو أن الانسان يمكن أن يكون ظالما بقدر ما يكون مظلوما...

أتعرفون، لقد عانيت خوفا من الحرب، ولكني عندما تعودت أخيرا على فكرة الموت واستطعت أن أتعامل معها حتى النهاية، بقى هاجس يمضني ويقض مضجعي ولم أستطع أن اقتلعه من أعماق مخاوفي، فقد كنت طوال الوقت أخاف من أن أصاب هناك... لقد بتم تعرفون، هناك، هناك حيث الـــ... نعم، نعم، كنت أخاف أن تصاب آلة اللذة عندي، بعطب... تصوروا، الانسانية تثكل يوميا بالمئات، وأحيانا بالآلاف، وأنا خائف من الاخصاء، وليتني كنت بذلك خائفا على واجبي في رفد الحياة بحيوات جديدة، لا، كنت فقط خائفا على تلك المتع الرخيصة التي كنت اقتنصها من بيوتات البغاء المنتشرة في المزاغة خلال الاجازات، تلك كانت كل همومي... أي جنس غريب نحن البشر، عندما تسمعوننا نتشدق بالقيم الانسانية والمبادئ، تستطيعون أن تقفوا لنا احتراما، فنحن بالتأكيد لن نعارض ذلك لأننا نعشق غرورنا، ولكنكم ما أن تغوصوا في أعماقنا، حتى تصدمون بأنانيتنا المفرطة التي تتمترس عميقا هناك... إياكم أن ترحموا إنسانا قبل ان تجعلوه يرحم إنسانا مثله، إجعلوه يفعل ذلك، وبعد ذلك إذا أردتم، فأرحموه، ولكن، ها أنذا أقولها لكم، إذا ما أردتم الالتزام بكلامي، فإنكم لن تفعلوا، لن ترحموه، اقولها لكم مسبقا، لأن هذا المخلوق لا يحتاج إلى العدالة، بل هو لا يريدها إلا عندما يتعلق الأمر بحقوقه، أما عن حقوق الآخرين، فهو يحتاج إلى الكثير من الرأفة والرحمة، والقدرة على العفو والمغفرة، حين يحاسب.

لـمـــ(♫صول♪)ـــا (♫فـا ♪) أ (♫مـي♪)نـا (♫فـا مـي♪)خو (♫ري♪)

قـبـيـل (♫فـا ♪)

الـــ(♫صول♪) ــصبـح(♫فـا ♪) عيـــ(♫مـي♪)ـــســـ(♫فـا ♪)ــهم (♫مـي♪)

و (♫ري♪)حمـلـو (♫فـا ♪) ها (♫مـي♪) وسا (♫صول♪)رت(♫فـا ♪)

فـي(♫فـا مـي♪) الـــ(♫فـا ♪)ـد جى(♫مـي♪)

الـــ(♫صول♪) إ (♫فـا ♪)بـــ(♫مـي♪)ــل (♫ري♪)

لا، لا تتصوروا أني قد أخطأت، فـ(الدجى) هنا يمكن أن تأخذ مكان (الهوى)، فهي لا تؤثر في وزن البيت، كما أني أراها أكثر ملائمة له رغم أن (قبيل الصبح) تعني أن ضوء النهار قد بدأ، فسير الإبل يعني الرحيل، والرحيل يعني الفراق والحيرة وتعب السفر ومخاطره، بل هو يعني سفرة الحياة نفسها، وكلها أشد حلكة من دجى الليل إذا ما لم تسر كما يريدها الإنسان... ولكن ليس عن هذا أردت الكلام، بل أردت القول أن المتلقي عندما يستمع إلى الموسيقى فإن ضوءا صغيرا ينوس في داخله، ليبدأ بالكبر مع إستمرارها، حتى يصير نورا لامتناهيا عندما يعم الصفاء أفقه الرائق، وهو يستعذب ما يسمع، يعم السلام نفسه في لحظات باذخة الجمال، فتثب روحه لتستكشف أماكنا في نفسه لم يكن يتصور وجودها يوما هناك، ينفصل من واقعه ويسمو إلى سموات مستحيلة، يسمو ويسمو ويسمو حتى تتوقف الموسيقى وعندها... رباه، كيف أفهم هؤلاء القوم الذين يمتلكون أجنحة الـ... كيف أجعلهم يفهمون مشاعر مخلوق ظن للحظة أنه في سبيله إلى كسر طوق الشقاء، فإذا به يسقط مرة أخرى، إلى الدرك الذي لن يجد منه فكاكا يوما ما... لقد حدثتكم من قبل عن الإحباط الذي يشعر به معظم الناس بعد ممارستهم للجنس، وسقوطهم من عالم

سحري إلى واقع يؤلمهم، هذا يشبه ذاك، هل فهمتم... حسنا، تصوروا أنفسكم تستمعون إلى أحلى الأصوات التي يمكن أن تخطر لكم ببال، فما قد تفعلوا إذا ما قاطعها صوت إنفجار... دوي هائل، دوي لن أستسيغه حتى إذا ما كان (طرب) التي أعشقها، فما بالكم بـ(طش) كبير، كبير جدا... الموت عندنا مرتبط بـ(طشات) هائلة، وهي تأتي من مصادر مختلفة، من صاروخ، أو قذيفة، أو سيارة مفخخة أو حتى عبوة ناسفة، كل أصوات الموت النشاز متوفرة عندنا، أصوات، الـ(بق) فيها، صوت الرصاص الذي يلعلع... لا تفرحوا يا سادة إذا ما إبتعد أزيز الرصاصة عنكم، أو إفرحوا، ولكن لا تنسوا أنها ذاهبة لتقتل إنسانا آخر، لتخترق صدر ينبض بحب... لتفجر رأسا تنضدت فيه الكلمات للتو لتلد أولى قصائد عشق وليد، أو، أو... رباه لا أجرؤ على قولها... أتعرفون، أدركت الآن أن الله قد أكرمني بالموت لأني لم أكن لأجرؤ على أن أرى جسد طفل يختلج في شارع أو على رصيف وهو ما كان يرعبني حقيقة لأنه كان واردا طوال الوقت... ولم يزل، منذ أن بدأ المسلسل... ألم تسمعوا بالمسلسل.

تابعوا المسلسل، وسترون فيه ما يعجبكم، سنقدم لكم صور الأطفال التي اغتصبت النيران براءتهم، وسترون بأعينكم لحمهم المشوي، لنعطيكم فكرة عن (القوزي) الذي لطالما تبجح به أهل الديرة المهووسون بالأكل وأنواع الأطعمة... أما أنت أيها الخبيث، فنحن نعرف أن بضعة قطرات من دم، أو كسرات عظام تظهر من خلال جرح فغر فاه على زند امرأة أو فخذ انثوي، لن تفسد متعتك وأنت تتمعن بالأطراف الشهية لبنات الديرة التي اشتهرن بها بين بنات العموريين، فانتظرنا لأننا سنعرضهن عليك عاريات، وقد فارقن الحياة... نحن نعرف الكثير عنك يا مشتهي الجثث، ولكننا لسنا هنا لنحكم

عليك، لا تقلق، بل واجبنا أن نحسب لجميع الأذواق حسابا لنقدم لكل شخص ما يسره، فهلم معنا في فرصة العمر هذه التي لم ننس فيها المثليين والشواذ، فهم سيرون الكثير من الأعضاء الجنسية العمورية، ولربما غير العمورية، لأبناء الديرة، ولمن لا يمتلك ميول (نيكروفيلية) فإن الفرصة ستكون متاحة له ليعبر عن كل رغباته من خلال الأسرى والسجناء من أوغاد الديرة، الذين سنعرضهم عليه تباعا، مذلين، مهانين، ومن يدري لعلهم سيستعيدون الشعور بآدميتهم إذا ما مارست الجنس معهم، أو على الأقل، أن يكفروا عن بعض ذنوبهم بامتزاج عرقهم بمني مالكي، أو أن يستقر منيهم في أعماق مالكية شريفة!، وبالطبع، فنحن لن ننسى عزيزاتنا السحاقيات، لأننا لن نستثني نساء الديرة من اجراءاتنا الاحترازية... هيا، فالفرصة متاحة للجميع، فلدينا هنا شعب بأكمله، أهل الديرة الآبقين، الذين آن لهم أن يتوقفوا عن ضلالهم، وأن يعودوا إلى نعيم التعاليم المالكية راضخين... سنصور لك كل تفاصيل عملية فرض الرحمة عليهم، ولذلك عزيزي المشاهد، وسواء كنت ساديا أو مازوشيا، ولن نقول طبيعيا لأننا نعرف أن إنسانا طبيعيا لن يسمح لنفسه بمتابعة الأشياء التي نعرضها، ها ها ها، (قفشة) مالكية حلوة، أليست كذلك، تعال إلينا، وستجد عندنا كل ما يلذ لك ويطيب... سارع إلى التسجيل في قناتنا ليحق لك المشاركة في المسابقة المبتكرة التي سنقدمها، وخصصنا لها جوائزا بالملايين، سنعرض لكم جميع أنواع الأعضاء الديرية المبتورة، ابتداء من الأذرع والسيقان، وانتهاء بذلك الوحش الصغير الذي ستجد أنه لم يفقد بهاءه رغم افتقاده لبيضتيه اللتين لم يكن ليفارقهما يوما ويتوقف عن تدنيس الدائحة بنسله الخبيث، لو لم تتكفل بذلك أسلحة جيشنا الباسل... ما

عليك إلا أن تخمن الجثة الممزقة التي يعود إليها ذلك العضو المبتور، وستكون لك جائزة قيمة جدا... هلموا معنا أعزائنا المشاهدين، وذوقوا مما كنتم به، توعدون...

لاحظوا، ما توعدون به، هذه، يا لخبث مالك، ألاحظتم ازدواجية الخطاب هنا، أم أنكم لا تلاحظون... على كل حال، كان من المفترض أن يكون المخاطب هنا هم آل مالك، وهنا يكون الوعد هو المتعة واللذة وتلبية الرغبات... ولكن معظم أهل الدائحة تابعوا هذا البرنامج الذي فرض على شاشات تلفازاتهم، أي أن المخاطب قد تغير هنا، ولكن الخطاب لم يفعل، بل كان نفسه، وهنا تكمن الازدواجية، فجيش مالك يعني للآخرين غير ما يعنيه لآله، الأمر الذي يغير مضمون الرسالة بكل تأكيد، فينقلب الوعد إلى وعيد، وتصير اللذة، ويل وثبور... افهمتم... حسنا لا يهم إذا ما فهمتم أم لا، لأن المخطط سائر باحكام وليس عن نتائجه الوخيمة من محيد.

لم تتح لي الفرصة لمتابعة ذلك المسلسل الذي عرض خلال اجتياح جيش مالك لديرتنا، لأننا كنا وقتها نفتقد إلى الطاقة الكهربائية مثلما افتقدنا الطاقة اللازمة، والرغبة، للحفاظ عليها، على الديرة لا على الكهرباء... لم تكن تضئ لياليناالمظلمة حينها، غير أضواء الانفجارات، ولكنها للأسف، كانت أضواء قاتلة، مميتة... لم ينس مالك أن يمتعنا قليلا وهو يحاول أن يستأصل شأفتنا، نحن أهل الديرة، كما هو ديدنه في تغليف سمه بأغلفة زاهية براقة، فقد هدته أريحيته إلى أن تنفث صواريخه نارا من مؤخراتها لكي نستطيع أن نتابعها وهي تملأ سماء المزاغة برسل الموت الزؤام قبل أن تسقط، في كل حين، ولطالما تابعت تلك الزخات

العزرائيلية وأنا أتساءل أيها ستسقط علي، ولكن، لسوء حظي لم يكن اسمي مكتوبا على واحد منها رغم عديدها... سمعت بعد أن انتهى كل شئ، عن ذلك المسلسل الذي بثته قناة تلفاز مالك، وعرض على كل شاشات الدائحة، ما عدا شاشاتنا المظلمة بالطبع... ذلك المسلسل، ما كان اسمه... لم أعد أذكر... كان وقائع، شئ، معلن... نعم، وقائع ومعلن، أنا متأكد منهما، ولكن وقائع ماذا... احتلال، انتهاك، امتهان أم اغتصاب... اللعنة، لا أستطيع أن أتذكر، أو بالأحرى، يمكن أني لم أعرفه بالضبط يوما، ولكن العنوان كان مأخوذا من إسم الفتى الذي خلده "ماهر عزيز" في نبوءته الشهيرة التي أعلنها قبل أكثر من عقدين... "سامي نصار" الفتى ذو الأصول العمورية الذي قضى اليوم الأخير في حياته القصيرة، عابثا، لاهيا، وهو لا يدري أن الجميع من حوله كانوا يعرفون أن سكاكين القدر ستنحره في نهاية ذلك اليوم العجيب... سامي نصار، الذي أتهم بتدنيس عذرية "ملك" الفتاة البريئة، ولكن أحدا من الذين شهدوا اعدامه العلني لم يكن على يقين من أن سامي كان قد هتك حقا، عفاف تلك الفتاة، أو إنها كانت بريئة بالفعل... سامي نصار الذي لم تستطع أمه، التي أساءت تفسير اشارات الطيور عندما أرادت تحذيرها من مصير ولدها، قبل أيام، أو أي أحد يمت له بصلة، ولا حتى المساعي المحمومة لـ"مريم" بغي المنطقة المحترمة، صديقة أمه، لإنذاره وتحذيره من الخطر المحدق به، أن يمنع عنه تلك الميتة الشنيعة، فذبح ذبح الشاة، ومات كما تمنت "نصرية" خادمتهم في سرها، لأنها كانت تخشى أن يغوي سامي ابنتها، كما فعل أبوه معها عندما كانت شابة... قتل سامي، رغم معرفتهم جميعا بتفاصيل الخطر الذي كان يحدق به... هكذا أصبح أهل الديرة فجأة،

سامي نصار الذي عجز كل التعاطف العموري، بل وحتى الدائحي، الذي عبرت ملايين الأعين المعلقة بالشاشات، عنه، عن تجنيبه قدره المؤلم وقنابل مالك الرحيمة، الذكية، التي تستطيع ان تميز بين الطيب والشرير، تحصده من دون رحمة... تصوروا، قنابل ذكية، وتميز بين الطيب والخبيث، والله لو كانت كذلك بالفعل، لما وصل جندي مالكي واحد إلى المزاغة... ولكن الأشد رعبا من بين سكان الدائحة، غير أهل الديرة، كانوا أزواج الخالات الذي تسمروا أمام شاشات تلفازاتهم وقد وضعوا أيديهم على رقابهم وهم يتحسسون المكان الذي سيوضع فيه الحبل الذي كان يلتف ببطء حول رقبة عنترة... كانوا هم أسياد العارفين، وهم خير من يستلم الرسائل المستترة، من هذا النوع... في تلك الأيام تذكرت جدتي التي كانت تجهد نفسها دائما في اضافة تفاصيل مرعبة على الغيلان والسعالي لكي تخيفنا بها... المسكينة، لم تكن تعرف أن ما لا نراه قد يكون مرعبا أكثر بمرات عديدة، ولكن أنى لها أن تعرف ذلك ولم يتسنى لها أن تعاصر الغولة 118 والسعلاة 52 التي كانت تقصفنا طوال الوقت بأطنان من الرعب الهائل في تلك الأيام، من دون أن نراها بأعيننا، ولو مرة واحدة... لا، لا، لا، أنا لا أريد أن أستعيد ذكرى تلك الأيام الجهنمية... لا أريد أن أتذكر الخوف، الرعب، الحيرة، الاستكانة، والرضا بالقدر الغاشم لمجرد أن تنال الراحة أخيرا... أنا لا أريد أن أتذكر كل ذلك الحزن... الحزن! رباه، ولكنه لم يكن حزنا، بل هو ألم، ألم ممض... اللعنة، لم لا يستطيع العلم أن يحل لنا هذه المشكلة المستعصية، ذكرى مؤلمة لا نستطيع أن نتعايش معها، حسنا، اربط (الكابل) هذا هو، اختر (البرين) لا، لا، اضغط مفتاح الفأرة الأيمن، اختر (اكسبلور) تلك... نعم، ها هو، ها هو (الفولدر) المطلوب، هذا المسمى (ذكريات

مؤلمة) لا، لا، لا تفتحه، لنلغه كله ونرتاح... اختره، حدده، هيا ظلله... ضع المؤشر عليه واضغط، لا، لا، اضغط بالمفتاح الأيسر هذه المرة، لا الأيمن، نعم هكذا، والآن، (دلته) نعم، اضغط (ديليت) وليذهب إلى الجحيم... آه، ما أعذب النسيان ولكن، ما هو الذي نسيته... أنا لا أتذكر، حسنا، نجحت العملية، شكرا جزيلا، وإلى اللقاء.

ولكن، ما بها "المزاغة" بل، أهذه هي... ما لها تبدو وكأن إعصار هائل مر بها، وأي إعصار هذا الذي يخلف مثل هذا الدمار... ما للغبار يعلوها، وما لنخلاتها كئيبات، وما هذا الثقب الذي في أعلى هذه البناية، يبدو وكأنه إعلان هائل لشركة مختصة بالتدمير! وأكوام الزبالة هذه التي تكاد تجعل "المزاغة" مزبلة كبيرة، من أين تأتي، وما للناس لا يتحركون إزالتها... لا، لا يمكن أن تكون هذه هي "المزاغة" أهذه هي شوارعها الجميلة، أتلك هي حدائقها الـ... ولكن، أية حدائق، أنا لا أراها... لم تنامت ترع الماء الآسن والطين في شوارعنا المليئة بالمسلحين، والعجلات المسرعة التي تريد أن تفسح لنفسها المجال بصفاراتها المدوية... ما لعنترة مستعجل هكذا، ولكن أي عنترة، هذا موكب ذاهب في اتجاه، وذلك يعاكسه في السير، أين النظام، وأين إشارات المرور... ثم ما هذه الانفجارات الهائلة، وإطلاق النيران الخفيفة هذا، الذي لا ينتهي، أتزوج كل رجالات "المزاغة" اليوم... وهذا عنترة آخر، وآخر، وآخر... اللعنة أبدأ عنترة يتكاثر كالأميبا... أنا لا أفهم، ما الذي يحدث... يا للشيطان، يا للأبالسة بل، يالعزرائيل، من أين أتى هؤلاء، إنهم من قوم مالك، إنهم جنوده، أنا على يقين، فلطالما رأيتهم في الأفلام، ولكن، ما أتى بهم إلى شوارع "المزاغة"...

هيا، أنتم، مالكم لا تفعلون شيئا، لم تحملون هذه الأسلحة، وإلى أين تريدون أن توجهونها، ها هم أعداءكم وسط مدينتكم، فما لكم لا تحركون ساكنا، وتتصرفون وكأن شيئا جللا لم يحدث، هيا صولوا عليهم بأبي أنتم وأمي، هيا... ماذا، أنا مجنون... أنا المجنون، بل أنتم المجانين، والملاعين الذين أنجبوكم، أنا مجنون... ماذا، تحرير، احتلال، سقوط، عملية سياسية، علم ودستور... رباه، أما من منفذ لخلاص... لا، ما من خلاص... وها أنذا ميت كما ترون، ولكن النسيان المرجو، عز علي... ما هذا القدر يا ربي.

كان لا بد لمالك أن يعود يوما، ليستعيد الذهب الذي كان قد استودعه "سودة" عندما خرج بشكل علني أول مرة، كان قد سمح لها أن تأخذ منه بقدر، لأنه كان يعرف أن ما تحت الديرة من ذهب لا يمكن أن ينفد، خاصة وأن أزواج سودة لم يفكروا يوما أن يستخدموه لصنع الأقطاب المهمة للمكائن المستخدمة لتوليد الطاقة التي تحتاجها الصناعات كما كان يفعل مالك ويصدر منتوجاته لنا، فيستعيد أثمان الذهب المستخدم في الطاقة، أضعافا مضاعفة... لقد إنشغل أولئك الأزواج الكرام، أولاد الـــ، كرام في استخراج الذهب لتصديره إلى الآخرين، وخزن الأموال التي يدرها عليهم وتكديسها، قبل أن يعود مالك لسلبهم إياها، أو للإنصياع لرغبة زوجتهم المجنونة في اقتناء المزيد والمزيد من المصوغات الذهبية التي لم تمتلك الوقت الكافي لإرتدائها كلها، أو حتى بعضها، للتزين بها... كانت السنين الأخيرة لعنترة، مع سودة قد تميزت بالاضطراب المستمر بسبب طموحاته اللامحدودة، الأمر الذي تسبب في تعثر عمليات استخراج الذهب وتصديره، فبقي في حرزه الحريز، في حين كانت الديرات العمورية

الغنية بالذهب، الأخرى، تستنزف خزينها طوال الوقت، ولذلك عاد مالك وهو على يقين من أن آخر قيراط من الذهب سيكون من ذهب الديرة... رجع، المالك، "مالك"، ليستملك، ملكه، كرة أخرى، ولكنه لم يعلن ذلك على الملأ، بل أوهم الدائحة أنه ذاهب إلى هناك بجيشه لتخليص الديرة وأهل الديرة من "عنترة" الذي سامها سوء العذاب، والذي كان يشكل خطرا كبيرا على الدائحة كلها.

شن مالك الحرب على الديرة، واخترقت جيوشه حدودها من أكثر من اتجاه، قاتل أبناء الديرة قتالا مجيدا، ولكن هيهات... شارك المقاتلون العموريون، ابناء العم الذين أرادهم مالك أن يكونوا أبناء خالات لغرض في نفسه، الذين تطوعوا، دفاعا عن الديرة أولا، ولأنهم يتشوقون لتحدي مالك أيضا، في القتال، فسطروا ملاحم اسطورية، ولكن هيهات... أما جيش الديرة فهيهات في هيهات، فقد تبين للقائمين عليه، والذين بذلوا جهودا كبيرا في تدريبه وتهيئته وتزويده بأسلحة، أنه كان في تلك المنازلة غير المتوازنة، كطفل درب تدريبا قاسيا ليكون بطلا في المصارعة، صحيح أن جهدا كبيرا قد بذل في سبيل تهيئته لذلك، ولكنه عندما دخل النزال أمام مصارع هائل الجسم، وبالغ، حينها فقط اكتشفوا، أن ذلك الطفل يفتقد أساسا للعضلات التي تؤهله للصمود... لا، لا، لم يكن جيش مالك على مستوى الأفراد، تنينا اسطوريا، بل كان نمرا من ورق، ولم يستطع جنوده أن يصمدوا للمنازلات، حتى لو كانوا في دبابات بمواجهة بنادق ورشاشات، ولكن السر كان يكمن في طيور الموت تلك... انا لا أقول أن جنود مالك كانوا جبناء، ولكن المنطق يفرض نفسه هنا، إذ كيف نطلب ممن تعود أن يعيش في ترف بلاد مالك، أن يموت على رمال الديرة المحرقة، من دون هدف أو سبب... انا

بالحقيقة لا أعرف تفاصيل ما حدث في الطريق من الحدود إلى المزاغة، ولكنها بكل تأكيد كانت تطبيقات لخطط متقنة، وخدع ومؤامرات وخيانات وكر وفر وأخطاء وسوء تقديرات، ولكن المؤكد هو، أن جيوش مالك وصلت المزاغة واحتلتها، بعد أن فرشت دروبها التي سلكتها، بالموت والدمار.

دخل "مالك" المزاغة، فاختفى "عنترة"... رحل هذا، فأتى ذاك، رجع هذا، فإختفى ذاك، وأهل الديرة محتارين، مفجوعين، مكلومين، ومثلما كانوا عندما زرعتهم الأقدار في هذه الأرض، بقوا فقراء ومحتاجين... وسيبقون... اختفى "عنترة" فقال المازني "الجبان، لم يكد أول جندي مالكي يطأ أرض المزاغة حتى إختفى وكأنه لم يكن موجودا يوما... الحقير، كان يزأر كالأسد عندما يسحق أهل الديرة، ولكنه ركض مرعوبا كالأرنب عندما أتاه مالك" فيرد عليه المرهون قائلا "ولكن يا مازن، لم لا تكون منصفا، فقد سمعت أنه قد قاتل بنفسه جحافل مالك، ولكنها قوة غاشمة، فما عسى أن يفعله لوحده بعدما عجز جيشه عن ذلك" فيرد المازني "أي جيش هذا الذي يقف في وجه جيش كجيش مالك، لقد كان عنترة يعد جيشه ليذيق أهل الديرة مر الهوان فقط" فيقول سلام المرهون "يا مازن، يا مازن، أنا أعرف أنك كنت تكرهه، ولكن الأمور لم تكن هكذا أبدا، حاول أن تكون منصفا كما قلت لك، ثم أن الرجل قاتل ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا" يتهيأ المازني للرد مرة أخرى، ولكن بهلول المدلول يسبقه قائلا "نعم، لقد سمعت أنه أوقف رتلا مدرعا لمالك، لوحده، بل إنه أجبره على الانسحاب" فيضحك المدلول ويقول "هيا، دع عنك المبالغة أنت الآخر" فيما بقي كريم التقي خلال ذلك الوقت، يحرك جسده ذات اليمين واليسار كالبندول وهو يردد "ضاعت الديرة، ضاع الدين، ضاعت

الديرة وضاع الدين"... أما عني، فسواء عندي إن صدق منهم من صدق، أو كذب، لأن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، فقد أتى مالك وإختفى عنترة ولم يتبق له من أثر في المزاغة، غير ما يقوله فلان وفلان، وغير صوره الممزقة وتماثيله المحطمة... إختفى عنترة، فإنطلقت شياطين من عقالها، وعاثت أيدي ظالمة في المزاغة المنتهكة، وأكملت التدمير الذي كان قد بدأه جيش مالك.

سوادي، إبن سودة من أحد أزواجها السابقين، سوادي هذا كانت قد تركته لرعاية أعمامه بعد أن ولدته، كما فعلت مع كل أولادها الذين انجبتهم، ولدت ثمانية عشر ابنا ذكرا، وعندما كانت تذكر ذلك في مجالسها الخاصة، تكركر ضاحكة وتقول "كأن الله أراد أن يعوضنا عن افتقادنا للأخ فلم نلد إلا ذكورا ولكن، يقولون أن ثلثي الولد على خاله، فعلى من سيكونون أولادنا"

كان يمكن لسودة برغم محاسنها التي تجعلها أشهى امرأة في الديرة، أن تنال جائزة أسوأ أم، فيما لو منحت، لأنها ما أن تصبح جاهزة للسفاد مرة أخرى بعد الولادة، حتى ترمي بوليدها جانبا لتنهمك في تلبية حاجات جسدها الشبق الذي لا يشبع من الملذات أبدا، هذا بالاضافة إلى أنها كانت تؤمن بأن ما لديها أعلى بطنها، ليس ضرعا، لأنها ليست شاة أو بقرة، بل هي إمرأة تمتلك نهدين لا تستسيغ حلماتهما أن تمسسهما غير شفتين ترتجفان شهوة، أو أصابع قد التهبت شبقا، ولأن أزواجها كانوا دائما من النوع الطامع، لا بجسدها أو فرجها، فقط، بل بأملاكها أيضا، أو بالأحرى بأملاكها في الدرجة الأولى، ولعدم وجود الأخوال لهؤلاء المناكيد كان الأعمام دائما هم الطرف الذي يتصدى لتربية هؤلاء الأبناء وتنشئتهم حتى يبلغوا أشدهم، وبالنسبة للآباء

المشغولين، فعلى الأقل، أن يتكفل أخ أولادهم ، أفضل بكثير من أن يترك للغرباء! وإذا كان بعض من هؤلاء الأعمام رحيما بالأطفال مهتما بمستقبلهم على أساس أنهم أمانة في أعناقهم ولا بد من الحفاظ عليها كما يجدر بالشرفاء، فإن الكثير من هؤلاء الأعمام كانوا أيضا غير مخلصين للمهمة التي تصدوا لها سواء أكان ذلك طواعية أم لا، بسبب أطماعهم المشروعة منها وغير المشروعة، وكم من أخ ظل حاقدا على أخيه لأنه كان هو من نال سودة التي كان يتمناها.

وبذلك أصبح أولاد سودة صعبي القياد حتى إذا إفترضنا أن أحد أزواجها كان يريد خيرهم، فإنه سيجد صعوبة كبيرة في احقاق الحق لهم، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا فاهمين لما يريد، ولكن هذا مجرد افتراض لأن الحقيقة هي أن جميع الرجال الذين رغبوا في سودة طوال حياتها كانوا من النوع الذي لا يرى فيها إلا مطيته لتحقيق أهدافه الشخصية هو... ولكي تزداد الأمور سوءا، ورثت سودة كل التناقضات التي يمكن أن تنتج عن تزاوج المدنية بروح البداوة فأورثت ذلك لأولادها الذين كان مقدرا أن يكونوا النخبة السياسية في الديرة، وكان هذا ارثهم من الجينات، أما الأدهى فكان ما اصابهم من جراء التربية الخاطئة، فبالإضافة إلى تعدد المربين واختلافاتهم وتناقض مصالحهم فيما بينهم كان هناك مفهوم التربية نفسها، أو فلنقل اللاتربية إذا أخذنا التربية بمفهومها الصحيح في نظر الاعتبار... ساءت أخلاق أولاد سودة، ولذلك أصبح أهل الديرة حاملين لكل التناقضات التي يمكن أن يعبر عنها أولاد جويزع على اختلاف مشاربهم وأهواءهم، وأصبحوا متخلفين لا وعي لهم على العموم، ما عدا

القليل الذي عبر عن وعي هائل ولكن تأثيرهم على الآخرين كان قليلا جدا، لأنهم لم يكونوا يمتلكون شرعية التأثير، الأثر السلطوي.

سمع سوادي باختفاء عنترة الذي كان يكرهه كرها شديدا، فتذكر أمه، ذهب ليبحث عنها وهو لا يعرف ما يريده منها، فقط دفعه هاجس غامض لفعل ذلك، وصل إلى القصر وهو يتستر بالجدران، لأنه كان يعرف أن مالكا كان موجودا في مكان ما من المزاغة... دخل القصر، فألفاه مهجورا، خاويا، ذليلا... رأى كل غرض ثمين حرم منه طوال حياته، معروضا للسرقة من دون أي جهد، فالتهبت أطماعه، مد يدا غير واثقة، مترددة لرفع أول كأس ذهبية وجدها ملقاة على الأرض، فسمع همسا، أصاخ السمع، فعرف أنه صادر من أحد الغرف القريبة، كان الباب مغلقا، فإقترب منه، إنحنى نحو شق المفتاح، تطلع من الثقب، فرأى إليتي رجل واقف! ركز جيدا، فتمكن من رؤية وجه أمه التي بدت وكأنها جالسة على ركبتيها أمام الرجل العاري الاليتين... يكاد الدم ينفر من وجهها الأحمر الذي استقرت على شفتيه، ابتسامة شوهها شبق، وتذلل... كانت تقول في تلك اللحظات وقد بدت وكأن يديها مشغولة بتحسس شيئا ما "أواه يا مالك، أين كنت طوال السنوات التي مضت... انا لم أتوقف عن حبك يا مولاي... لقد كنت تفرض علي الأزواج دائما، ولكني لم أستطع أن أحب غيرك فأنت الذي علمني سر الهوى وجعلني أعيش روعة العشق... أتذكر، أتذكر تلك الليلة الأولى التي عرفتني بها... ماذا، عرفتني، أقصد عرفتني، هيا فأنت تعرف ما أقصد، عرفتني، عرفتني عميقا، أوه يا مالك هذا ليس وقتا للمزاح، فأنا ارتجف شبقا، انا لا استطيع أن اقف على قدمي خوفا من، خوفا من... حسنا، قصدت يوم ولجتني... غشيتني... يوم جعلت شياطيني تتقافز حتى ملأت الدنيا

صراخا من لذة عارمة، وأنت تدفع به عميقا في أحشائي... لقد كنت يا سيدي الرجل الأول في حياتي ولم أستطع بعدها أن أعشق غيرك، فأنت سيد الرجال ولا يستحق غيرك أن يمتلك روحي، نعم، لقد أسلمت مفاتيح جسدي لمن مروا علي من رجال غيرك، ولكنك الوحيد الذي يستحق روحي... آه أيها الحبيب، لكم آلمتني نيران الغيرة في الليالي التي كنت تنتقي فيها إحدى أخواتي شريكة لفراشك، كان السهد يقف حائلا بين الكرى والجفون فيها وأنا أحاول ارضاء جسدي الملتهب لعلي أنام، ولكن مستحيل، فذكرى وجهك الذي جنت ملامحه وأنت تدك جسدي بحثا عن مكامن اللذة فيه، كانت تجعل من الاشباع أملا بعيد المنال... أما حين كان يعتليني من تنتقيهم أزواجا لي، فالأمر كان بسيطا، إن هي إلا إغماضة عين حتى تكون أنت الذي يجوس في أنحاء جسدي ويزرع في أعماقي بذور رغباته الجامحة... لقد عبدتك أنت يا سيدي لأنك أنت الوحيد من يمتلك الرجولة الحقة... يا ليت شعري ما يكون من يتخذ هذا العدد من الأخوات، عشيقات له... غير أفحل الآلهة"

أنا على يقين من أن سوادي لم يستطع أن يحدد مشاعره بالضبط في تلك اللحظات الرهيبة، فقد وضعت نفسي مكانه عدة مرات فلم أستطع أن أعرف ما يمكنني فعله وأنا أرى أمي في حضن رجل غريب، أن أرى أمي زانية... تصوروا، المرأة التي منحتني الحياة، زانية أمام عيني... لا، لو كنت مكانه لما استطاع عقلي أن يستوعب ما تراه عيني، بل لعله كان لينكر عليها اداءها الخاطئ لمهماتها، أقصد عينيه، لا أمه، لا تفهموني خطأ... ومع ذلك، لم يكن ما رآه سوادي لحد تلك اللحظة شيئا أمام هول ما اكتشفه بعد ذلك بقليل... فقد وقفت سودة بعد لحظات عارية تماما لتواجه من يفترض به أن يكون مالكا... عندما وقفت،

اختفى وجهها من مدى نظر سوادي، ولكن وسطها العاري حل مكانه... أراد سوادي أن يتفادى رؤية عورة أمه باغماض عينيه، ولكنه انتبه، قبل أن يفعل ذلك، إلى أن أسفل بطنها كان خاليا... كانت العانة موجودة والمثلث لم يزل على حاله، مقلوبا، ولكن لم يكن ثمة ختم طيرة، لم يكن هنالك صورة لطير أو فأر أو حتى فيل! نسي حرجه وتمعن جيدا لعله يكون مخطئا فلم ير غير الطيات المترهلة لبطن يفترض به أن يكون قبلة أنظار العشاق والطامعين... دفع مالك المرأة الواقفة أمامه على ظهرها، وتحرك ليمتطيها فاختفى بذلك من أمام أنظار سوادي الذي غامت تفاصيل الغرفة في عينيه ولم يعد يدرك شيئا فانطلق راكضا وهو يحطم الأشياء في دربه... ولكنه، ويا للغرابة، لم ينس وهو تحت رحمة ذلك الغضب العظيم الذي انتابه، أن يضع الأشياء الثمينة التي يلقاها مبعثرة في أنحاء القصر الذي خلا من ساكنيه، في جيبه! قبل أن يقرر فجاة ان يغيب ذلك القصر الذي أذله طويلا، في أتون حريق رهيب.

المسكين، لقد تجمعت عليه في تلك اللحظات المشاعر المتناقضة، فسلبته القدرة على الفهم، والإدراك... نعم، فقد تعاضد الطمع مع الغضب، وساند القرف، رغبة الانتقام في داخله، فإندفع هائجا، غاضبا ومرتعبا، فلم يلحظ جنود مالك وهم يغتصبون "الخالة خضرة" في الشارع، بل لم يرهم وهم يقفون بالدور صابرين، كل منهم ينتظر دوره للتنفيس عن رغبته التي زادتها رحلته عبر الصحراء الجهنمية، إحتداما... إيه يا خالة خضرة كيف إستطعت... ولكن... اللعنة... اللعنة... اللعنة، لقد تذكرت الآن أني لم أحدثكم بعد عن الخالة خضرة... أترون، هذه هي مأساتنا فنحن لا نتذكر الخالة خضرة إلا لماما، رغم أن حبها هو الذي يمكن أن يجمعنا، ولكننا لا نحبها كما تحبنا، ولذلك

ترونـنـا متـفـرقـيـن وكـل مـشـغـول بـهـمـه الـخـاص، حـتـى أنـا ، لـقـد رأيـتـهـا ذلـيـلـة ومـهـانـة وهـي فـي مـحـنـتـهـا ، ولـكـنـي لـم أسـتـطـع أن أدافـع عـنـهـا لأنـنـي خـفـت، خـفـت عـلـى حـيـاتـي الـتـافـهـة... يـا لـلـتـفـاهـة ، خـفـت! عـلـى الأقـل سـوادي لـم يـفـعـل شـيـئـا لأنـه لـم يـنـتـبـه ، فـمـا عـذري أنـا الـذي إنـتـبـه ، ورأى، ومـا قـد يـنـفـع هـذه الـخـالـة الـكـريـمـة ، حـبـي الـعـاجـز هـذا... بـالـحـقـيـقـة ، لـم تـكـن هـذه هـي الـمـرة الأولـى الـتـي تـغـتـصـب بـهـا ، بـل لـقـد مـرت بـهـذه الـتـجـربـة أكـثـر مـن مـرة خـلال حـيـاتـهـا ، ولـكـنـهـا فـي كـل مـرة كـانـت تـغـتـسـل لـتـعـود أكـثـر بـهـاء ورونـقـا ، لـم يـكـن الإغـتـصـاب، أي إغـتـصـاب لـيـنـتـقـص مـن شـرفـهـا ، فـهـي لـم تـكـن يـومـا زوجـة أحـد ، أو أخـت أحـد ، ولـذلـك يـكـون فـعـل الإغـتـصـاب دائـمـا مـتـعـلـقـا بـشـرف أهـل الـديـرة ، فـهـم الـمـسـؤولـون عـنـهـا ، وعـلـيـهـم يـجـب أن تـقـع إهـانـة الإغـتـصـاب ولـكـن، هـيـا دعـونـا مـن هـذا الـمـوضـوع الـمـزعـج الآن، مـاذا تـريـدون مـنـي، ان اكـون غـرابـا يـأخـذ عـلـى بـقـيـة الـغـربـان، وجـهـهـا الأسـود... الـخـالـة خـضـرة كـانـت دومـا كـريـمـة مـع الـجـمـيـع ، ومـع ذلـك فـمـحـبـيـهـا قـلـيـلـون! هـي لـم تـوقـد نـارا أمـام بـابـهـا ، ولـكـنـنـا كـنـا دومـا نـسـتـرشـد إلـيـهـا بـدفء الـمـشـاعـر الـتـي تـنـتـابـنـا عـنـدمـا نـفـكـر بـهـا... تـصـوروا ، إن أزواج سـودة عـنـدمـا يـحـتـاجـون أبـنـاءهـا لأمـر جـلـل، فـإنـهـم يـسـتـحـلـفـونـهـم بـحـبـهـم لـخـضـرة لا بـحـبـهـم لأمـهـم ، وهـم لـعـمـري، قـد افـلـحـوا فـي ذلـك لأنـهـم يـعـرفـون أن ظـئـر ا رؤوم ا لـخـيـر مـن أم سـؤوم ، وسـودة كـانـت دومـا أمـا سـؤومـا ، مـلـولا، أنـانـيـة ، بـل أسـوأ ، فـيـمـا كـانـت خـضـرة حـاضـنـة لـنـا ، رؤومـا ، حـنـونـا ، عـطـوفـا ، وخـيـر مـن يـرأف بـنـا ويـحـن عـلـيـنـا ، وبـحـبـهـا كـانـوا يـسـتـحـلـفـونـهـم ، فـيـسـتـجـيـبـون، ولـكـنـهـم حـالـمـا يـسـتـنـفـذون أغـراضـهـم مـنـهـم ، يـعـهـدونـهـم إلـى الإهـمـال مـرة أخـرى. لا أعـزتـي، فـحـديـث خـضـرة يـطـول ويـطـول، وأنـا بـت أشـعـر بـإضـمـحـلال رغـبـتـي فـي الـمـزيـد مـن الـكـلام ، فـأنـا قـد

قضيت حياتي الدنيا في الكلام، أفتريدون مني أن أستهلك حياتي الأخرى بالكلام فقط، أيضا!

ولكن، إلى متى ساظل أنا الذي أتكلم، متى ستفعلون أنتم... إذا لم يكن في نيتكم أن تقابلوني بالمثل، فلم جعلتموني أقول كل هذا، لم، لم... آه، آه، آه... لقد فهمت، لقد جعلتموني أتكلم لكي أتحرر مما يثقل وجداني لأنني ارتكبت جرم أن أكون انسانا... أهذا ما قصدتم، ولكني لم أكن مجرما، ولم أؤذ أحدا طوال حياتي... السابقة طبعا... ولكن من يؤكد ذلك... ألم أرد محتاجا... الم أسبب أذى لشخص بكلمة أو تصرف... ألم أحسد... ألم أسئ فهم أحد... بل ألم أكذب يوما... لا، لا، أنا لا أستطيع أن أكون على يقين في هذا... ولكن، ايعني هذا أني... عليكم اللعنة، هل أتيتم لتشهدوا صيرورتي الأخرى، أم لتنبشوا ذكرياتي السيئة لتقيموا الحجة على انسانيتي... ولكني أعرف أنكم لا يمكن أن تكونوا بهذا اللؤم، فقد خلقتم لتكونوا... ملائكة، نعم ملائكة، فلم جعلتموني أبوح بكل ما سبق، أنا أعرف أن وراء ذلك هدف نبيل... لقد فهمت، نعم، نعم، لقد فهمت، لقد جعلتموني أتطهر بالبوح، ولعمري تلك طريقة ناجعة في التطهر... لقد هيأتموني لأكون روحا، أن أتخلص من أثقال جسدي الانساني لأكون روحا، روح، وكيف أكون روحا... بالحب، نعم، بالحب، أليس كذلك، فلو كان الانسان يؤمن بالحب، لما أساء استخدام الجنس حتى دنسه، واستنبط منه الأسس الأولى للظلم، ظلم الذات الذي ألهمه ظلم الآخرين... لو كان الحب هو حادي الانسان الحقيقي، لما كان هناك سياسة تقوم على اللاحب، لما كان هناك ظلم، لما كان هناك أوهام قاتلة، لما كان هناك حرب، ولما ساء المصير، ولكن، لم يعد هنالك أمل، لقد انتهى كل شئ، وما علينا إلا انتظار سوء العاقبة... يا اااه كم

يحتاج الانسان من وقت حتى يدرك أن الحب الذي يمنحه للآخرين هو طريقه الوحيد للخلاص... بل هو يحتاج للموت أحيانا، مثلي، ليدرك ذلك!

ما هذا، اين ذهبتم؟ وأين أنا، لا، لا، ليس أنا أنا، بل ذلك الأنا الآخر، صاحب المؤخرة الملطخة... أين اختفيتم جميعا، بل متى اختفيتم، ولكن لم رحلتم هكذا فجأة، آه، أهذا إشعار لي بان أسكت أخيرا... حسنا سأسكت، كفانا حديثا عن حياة لا تستحق أن تعاش، فبئس الحياة هي تلك التي يكون الموت حلا لإشكالاتها، لقد حان وقت الرحيل، لأنطلق، أنطلق روحا صرفا تحللت من دنسها بعد أن عرفت ما كان عليها أن تعرف... أن تعرف أخطاءها الذاتية، قبل أن تنتبه لأخطاء الآخرين، بل حاشا الروح أن يمسسها الدنس... الدنس خاص بأجسادنا الآدمية، بنفوسنا المريضة التي لم نحسن صونها منه، كان يجب أن تعرف ذلك، وقد عرفت، أقسم بأني قد عرفت، ولذلك، ها أنذا أنطلق، يا للروعة! أنطلق، أنطلق، هيا، أسرع... ڨڨڨڨڨڨڨڨڨڨڨڨڨ، أسرع... حول ناقل السرعة، عشق، يا الله، بالضبط مثل أيام الطفولة، إمسك المقود، هيا أنا أعرف أن لا وجود لمقود، فقط تصرف وكأنه موجود، إنطلق بسرعة، أسرع، أسرع، وييييييييييييييييييييييييييييييييييييي.